مدينة إيزيس

التاريخ الحقيقي للعرب

تأليف

بيير روسي

ترجمة

فريد جحا

دار البشائر

للطباعة والنشر والتوزيع



مينتر ايزيس

بسم الله الرحمن الرحيم

العنوان : التاريخ الحقيقي للعرب

تأليف : بيير روسي

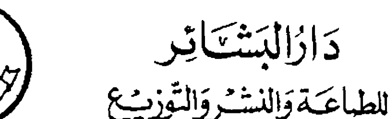
ترجمة : فريد جحا

عدد الصفحات : ٢٦٤ صفحة

قياس الصفحة : ١٧ × ٢٤سم

عدد النسخ : ١٠٠٠ نسخة

المطبعة : مؤسسة غبور للطباعة



دار البشائر

للطباعة والنشر والتوزيع

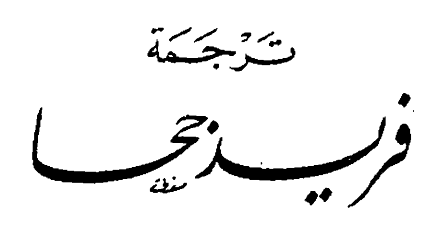
دمشق - شارع ٢٩ أيار - جادة كرجية حداد

هاتف : ٢٣١٦٦٦٨ - ٢٣١٦٦٦٩

ص. ب ٤٩٢٦ سورية - فاكس ٢٣١٦١٩٦

الطبعة الثالثة

١٤٢٥هـ = ٢٠٠٤م



التاريخ الحقيقي للعرب

مدينة إيزيس

بيير روسي

العنوان الأصلي للكتاب

PIERRE ROSSI

LA CITE D'ISIS
HISTOIRE VRAIE DES ARABES

NOUVELLES EDITIONS LATINES

PARIS 1976





مقدمة المترجم

هذه ترجمة كتاب بيير روسي (مدينة ايزيس التاريخ الحقيقي للعرب) ، الصادر عن دار Nouvelles Editions Latines بباريس عام ١٩٧٦ ، نضعه بين أيدي القراء العرب في طبعته الثانية بعد أن نفدت الأولى منذ زمن بعيد ، أي بعيد صدورها في عام ١٩٨٠ .

ولقد ألح الكثيرون ، وخاصة الصديق السيد الدكتور محمد سلمان وزير الإعلام ، علىٰ ضرورة إعادة نشره من جديد لأهميته القومية البالغة ، فامتثلنا لهذا الإلحاح ، وأعددناه ، من جديد للطبعة الثانية التي نأمل ، بعد صدورها عن دار البشائر ، أن تكون ممتازة في شكلها مثلما هي ممتازة في مضمونها .

مؤلف الكتاب السيد بيير روسي ، صديق العرب الذي أصدر كتباً كثيرة حول القضايا العربية وقضية فلسطين منها خاصة ، وفيها وقف إلى جانبنا لأن قضيتنا عادلة .

أما في هذا الكتاب فهو يقف إلى جانب حضارتنا التي رآها أماً لجميع الحضارات . ولقد التقينا به في باريس في عام ١٩٧٩ ، في دار الشرق التي يرأسها والتي خصصها لدراسات تتعلق بشرقنا العربي . . . التقينا به ، فازددنا معرفة به ، بعد أن ترجمنا كتابه الهام هذا . وسمعناه يتحدث بحماسة عن فلسطين العربية ، وعن حكم لليهود لم يدم فيها سوى ثلاثين عاماً ، سيعود العرب بعدها إلى مسرح التاريخ أمة تقدم الخير لها وللإنسانية جمعاء . وها هم أولاء الصهاينة صهيونيو القرن العشرين ينقبون في أسفل المسجد الأقصى ليعثروا على حجر أو قطعة خشب من بقايا معبد سليمان ، فلم يوفقوا إلى

شيء ، على الرغم من انقضاء وقت طويل ، وعلى الرغم مما بذلوا من جهود . . .

فالمسجد الأقصى يضم مسجد الصخرة والمسجد الأقصىٰ ، وهما مسجدان عربيان إسلاميان لا يرمزان إلى القدس الإسلامية فحسب ، بل وإلىٰ تاريخها الكنعاني العربي القديم .

دمشق في ١٢/٩/١٩٩٥ .

مقدمة خاصة بالترجمة العربية

لقد آن الأوان الذي ينبغي للعالم الشرقي أن يبدأ فيه اكتشاف حقيقه تاريخه وثقافته اللتين ، لولاهما ، لغدا الغرب فارغاً . ولقد أتى على الناس حين من الدهر كانت مدارس الغرب وجامعاته قد خفضت فيه ، بمخطط ، القيمة الواسعة لحضارة امتدت عدة آلاف من السنين بين نهري السند والرين وجبال البيرينه ، رغبة منها في تمجيد أثينا وروما ، في حين كانت هاتان العاصمتان قد أنشأهما الشرق ، وسكنهما الشرق ، وعلمتهما وكونت ثقافتهما الأنهار ، والمدن كممفيس ، وبابل ونينوى وبعلبك وقرطاجة ، التي أصبح العرب اليوم ورثتها المخلصين .

وإنه لخطأ فادح ذلك القول الذي يدعي أن ألاسكندر أو بومبى أو قيصر قد احتلوا ، أو بالأحرى قد حضّروا ، الأراضي المتوسطة والآسيوية الشاسعة التي تتحدث عنها كتب تاريخ الغرب ، كما أن من الخطأ الفادح أيضاً أن يكون أرسطو أو أفلاطون قد أثرا في الفكر العربي . إن الحقيقة ، هي على العكس من ذلك .

لقد اتفق أن النهضة العربية قد رافقت نهضة الحقيقة ، نهضة دفعت الجهاز الجامعي الأوربي إلى إيضاح دقيق ، لتقسيم الغرب ، ولجعل الشرق العربي تلميذ هذه الحقائق المتناقضة ، كما لو أنها جعلت منبع النهر مصبه ونهايته . إننا لنأمل أن يلغي المفكرون والعلماء العرب ، هذا الدجل الذي بات تاريخهم ضحية له . إن عليهم ، ألا ينسوا ما تعلموه من أساتذتهم الأوربيين فحسب ، بل عليهم أن يتمكنوا من ذلك أيضاً . إن هذا يحقق بوساطتهم ، إصلاحاً

يحطم العقلية التي كانوا تشربوها . إنَّ هذا يستتبع هزة أساسية لراحة عقلية كانت تصلهم ، مجاملة ، بمفكري الغرب الذين لم يكن المفكرون العرب إلاّ النماذج الطيعة لها إن لم يكونوا النسخ المطابقة لها . إنهم سيكتبون ، بمزيد من القوة والشجاعة ، تاريخاً سيوضح قدر أبنائهم . لأن المقصود اليوم هو إعادة الإرث إلى الأطفال العرب ، ذلك الأرث الذي سيضمن عظمة مستقبلهم .

وإنه لمن غير المنطقي أن يفرض علماء الغرب الموسوعيون عن طريق فكرهم العلمي ، ميثولوجيا مؤسسة على الأساطير التوراتية ، أو على مخطوطات مزعومة ، إغريقية أو رومانية ، مكتوبة (من كتبها ؟) بعد قرون عديدة من الحوادث التي رووها بالتفصيل ، وإنها لفضيحة كذلك أن يعطوا الحياة والمادة لشخصيات حلم أقاموا هم أنفسهم أعمدة عقيدتها ، وإنها لمرفوضة نظرية عرقية اللغات هذه التي اخترعوها ، مقسمين العالم تعسفاً ، إلى ساميين وآريين ، أي إلى شعوب لم يستطع أي تحليل علمي أن يثبت وجودها . وإنه لمن الحمق كذلك ، أن يعطي هؤلاء العلماء أنفسهم ، انطلاقاً من وثائق لا وجود لها ، أو مشكوك فيها ، أو لا معنى لها . . . من الحمق أن يعطوا الحق لأنفسهم في إعادة الحياة لعضور كاملة مفقودة في ليل الزمان . إنه ادعاء وابتذال أو أحكام مسبقة من التشهير ضد الشرق ، وإنها روح استعمار أبويّ تحاول فرض نفسها . تلك هي الأفكار الرئيسة التي جعلت جياد الباحثين الأوربيين تتجه ، بحجة العلم ، نحو كتابة التاريخ .

إن اليوم الذي يعود فيه هذا التاريخ إلى دقة وثائق مفهرسة لا يطعن فيها ، لهو اليوم الذي سيقوم فيه علم الوثائق بمقام جدول فرضيات تؤلف كذلك الشيء الأساسي للتعليم الجامعي . . . ومن الواضح أن الشرق العربي بكل ثرواته الميتافيزيكية ، وبمعرفته وقدرته ، سيطور في الأفق حضاراته الواسعة المنيرة ، وسيغدو من المؤكد أن الإسلام ، الذي جمع من قبل في نفسه منابع

التوحيد الأولى ، ممثلاً أيضاً ، بجماع ما فيه ، ثقافات النيل وفلسطين وفارس ، وهذين النهرين الرافدين اللذين يجريان فيما بين النهرين . . . إن الإسلام قد جعل من اللغة العربية ، لغة التعبير ، العاليةِ التي لا مثيل لها ، لغةً إنسانية قوية في دوامها واستمرارها .

إن (مدينة ايزيس) تعكس هذا الحلم ، إنها تبقى ، وسط هذه الظلمات التي رسختها موسوعية خاطئة ، انفراجاً ، وموطن أفكار جديدة جداً . فإذا كانت تستطيع أن تكون نقطة انطلاق نحو تطور ، وإعادة نظر تاريخية مؤسسة على الحقيقة وحدها ، حقيقة الوثائق وحياة الشعوب ، فإنها عند ذاك ستؤدي دورها ، وستحقق أحلام مؤلفها

لقد اتفقنا ، في باريس ، وأثناء نقاش طويل دار بين السيد الأستاذ فزيد جحا وبيني ، على ترجمة (مدينة ايزيس) ، وإنني لأشكره على ذلك أعمق الشكر .

إن معرفته العميقة باللغتين العربية والفرنسية ، والمشاعر التي يحملها في قلبه ، عن مجد الأمة العربية العظيمة التي هو ابنها ، تعطي لترجمته النَفَس الذي تحتاج إليه ، مستعينة به على اجتياز عتبة العالم العربي المضياف

باريس في ٣٠ تموز ١٩٧٩

بيير روسي

مقدّمة

إن نظرتنا المحدودة للتاريخ قد فرضت علينا تعيين مصادره قريباً منا ، أي في شبه الجزيرة الهيلينية المجدبة هذه ، وعلى ضفاف نهر التيبر الفقيرة . لقد قلل الأوربيون ، عن طواعية ، أصول ثقافتهم بإعادتها إلى المقاطعات اليونانية والرومانية . وها هنا تقويم خاطىء استوحيناه من انحياز مذهبي وسياسي . إذ أنه من الثابت أن مؤرخي الكنيسة الكاثوليكية الرومانية ، الذين هم سادة وثائق العهود القديمة طوالَ ألف عام ، قد وجهوا تفسيرها في خدمة أمجاد الغرب الأوربي .

ومع ذلك فقد كتبت تحت شلال نور آسيا المتدفق ، ومن السماء التي تظل نهر النيل ، جميع الدفقات القوية التي ولدت منها الحضارة العربية الكبرى التي بسطت منذ فجر الزمان ، معرفتها وآداب سلوكها على مجموع الأراضي التي تمتد من الهندوس إلى التاج ، ومن النيل الأزرق إلى بحر البلطيق . ولم تكن أثينا وروما سوى انعكاس لها . إننا حين نعيد إلى آسيا ، وإلى الوطن العربي الواسع مكانتهما الحقيقية ، وعندما نؤكد بشرف على إبراز دورهما في إعداد ثقافتنا فإنما نتمنى ، من وراء العتبات الأثينية والرومانية ، إعادة صلات القربى التي ضمت أوروبا إلى مجموعة واحدة من المساحات التي كانت أوسع مما نتصور ، وحيث سنقرأ هناك ـ بشكل أجود ـ جميع سطور مستقبلها . إن أوربا ليست مركز العالم ولا مرآة العاهل الفاضل . ذلك أنها لا تمثل ، وهي ابنه الشرق الإفريقي والآسيوي ، وفي محيط الزمان والمكان هذا ، سوى منطقة تتمرس وتتدرب فيها قوىً كانت تجذبها ، مثلما كان القياصرة يتدربون ذات يوم

لكن الأحكام المسبقة تبقى ، وتعليماً مذهبياً يزيف آراءنا وأحكامنا

ويُزوّرها ، والصور التي تلازمنا وتلاحقنا قد أخذت مكان البداهة فينا . إننا نعتقد أن دروس التاريخ ، التي نعطيها في مدارسنا ، مطابقة لتلك الدروس التي تعلمها القاهرة وطهران وكابول وكلكتا . وليست هذه هي الحقيقة : ذلك أننا لم نقم الدليل ذات يوم على صحة ادعاءاتنا في تعليم الأمم غير الأوروبية . إننا عندما نتعرف الوزن الصحيح والدقيق للأقطار التي تحيط بنا ، نكتشف آفاقنا وحدودنا في آن ، إلى جانب أخوة صحيحة تربطنا بها . إننا نشعر تحت تأثير سحر الكلمة وفتنتها ، ومن خلال إحساسنا بالخيلاء وإرادتنا برفع أنفسنا إلى العلاء . . . نشعر عندما نتلفظ بكلمة (غربُ) أننا قد قلنا كل شيء كما لو أن هذا الغرب كان شيئاً آخر غير انحدار الشرق المتراجع

أما فيما يتصل بالعالم العربي (ونعني به عالماً عربياً حقيقياً) فإننا قد رددنا حدوده إلى اثنين أو ثلاثة من (الآربينات)[1] الصحراوية القاحلة التي تتموج فيها فضلات من أساطير وترهات لقد خفضنا مكانته ، وسخرنا منه ، وكدنا ندفنه حياً ، ولكن ، ها هو ذا يصعد إلى حقيقة الحياة لقد حان الوقت لكي ندرك ، إنه إذا كان غربنا محبوباً ، غنياً ، جميلاً ، ومنظماً كذلك ، فإنما يعود فضل ذلك كله إلى تلكم الامبراطوريات العربية الكبرى التي خلقت وأوجدت مثل هذه السعادة ما أشبهنا بزهرة خشخاش عمر الخيام التي كانت تمتح أرجوانها من دم امبراطور دفين !

باريس في شهر مايس من عام ١٩٧٦

---

(١) الآربين : مقياس فرنسي للطول .

« إن دين المسيح هو دين الفلاسفة العرب معاصريه »

ستاندال في : الحوليات الإيطالية ·

من الأهرامات إلى كنيسة آل ميديتشي

نحت ميكالانج ، في كنيسة آل ميديتشي بفلورانسا ، ثلاثة تماثيل ضخمة تمثل أوقات الزمان الأربعة : الفجر والمُغيب ، والنهار والليل ، أي بتعبير آخر ايزيس واوزوريس ، أبولون وبيرسوفون ، إنها محاولة من هذا الفنان الكبير لنقل قلق الزمان إلى جمال المكان ، ونداء لنا ، لروحنا ، من أجل دعوتها للاتصال بخلودها . إن تلك الكنيسة تحدد مساحة جد لية مخصصة للتفكير في مصير الإنسان وقدره من خلال حركته الكونية ، وفي الموت الذي نتجاوزه ، وفي البعث المعلن عنه والحاضر منذ الآن ، وفي الكمال الثابت الذي لا يتغير ، ولا يفسد في صورة المرمر الذي يجسده .

إن ملامح بيير وجوليان دو ميديتشي لا تنتهي أبداً في التفكير المذهل من أجل أن تعكس تناقض مبدأي العالم هذا . فالفن والفلسفة والدين تمتزج هنا وتختلط مستخدمة صرامة الهندسة بأبعادها الثلاثة ، من أجل اقتراح حل لها ، وذلك بإيجاد بعد رابع ، هو التعبير عن غير المرئي بالمرئي . وإن الزائر لهذه الكنيسة الذي يلج إليها وحيداً ، لتستولي عليه عاطفة حساسة جداً . فهذا الضريح ، وهذه التماثيل في سكونها الهندسي الصافي ، تحاول أن تحل مشكلة وجود حقل مقدس ، لا تنتهك حرمته ، متوضع بعيداً جداً عن الظواهر . إن هذا الزائر نفسه مملوء القلب بالشعور ذاته عند تأمل معبد ممفيس أو أعمدة بعلبك المحاطة بسمائها وصحرائها . إن الاهرامات والتماثيل العملاقة في نينوى ، ومسجد عمر بن الخطاب وكنيسة آل ميديتشي لترتفع من المنظر العقلي نفسه ، ذلك أن هذه الأوابد ، وهي تنفي اللحظة العابرة الزائلة ،

تؤكد أن الفن ليس سوىٰ اندفاع الأرض باتجاه السماء . فلكي نصل إلىٰ كنيسة آل ميديتشي ، رائعة الفن الغربي هذه ، نشعر أن من الضروري إذاً أن تخلد وتستمر وتمتزج ، في اندفاع مستمر ، مصر وكلدان وفلسطين والأناضول واليمن ، واليونان وروما أخيراً ، أي جميع هذه القوىٰ الثقافية للوطن العربي . إن العالم العربي هو الذي أعطىٰ روحنا الغربية طموحها الشرقي الذي لم تكن لتستطيع من دونه تحديد هويتها أو الاستقرار ضمن انسجامها الخاص .

إننا نعرف ، عندما نتكلم عن الوطن العربي أننا في سبيلنا إلىٰ معارضة نظرية مقدسة تجعل من العربي شخصية صحراوية انبثقت في التاريخ في عهد غير محدد أو معروف . لقد كتبت دائرة معارف الإسلام . « إن عهود العرب الأولىٰ في التاريخ غامضة جداً ، إننا لا نعرف من أين أتوا ولا ما هو وجودهم البدائي » . ولكن شيئاً وحيداً كان يبدو مؤكداً لكاتب المقال ، هو أنهم ساميون . وها هو ذا التفسير الهزيل الهزيل ، التعبير الخالي في الحقيقة من أي معنىٰ . تعبير فارغ إلىٰ حد أن دائرة معارف الإسلام هذه نفسها لم تستطع أن تضع تعبير « الساميين » علىٰ مائدة البحث . وهل هناك ضرورة لإضافة أن تعبير (سامي) لم يرد له ذكر بين مفردات اللغة الاغريقية أو في اللغة اللاتينية ؟ وما يقال في هذا المجال طويل . إننا لن نجد هذا التعبير قبل نهاية القرن الثامن عشر . ذلك أن العالم الألماني ا . ل . شلوتسر هو الذي صاغ هذا النعت (السامي) في مؤلف نشره عام ١٧٨١ وأعطاه العنوان التالي : (فهرس الأدب التوراتي والشرقي) كأن الأدب التوراتي ليس شرقياً . إن هذا التقسيم الذي حدده ا . ل . شلوتسر يجب أن يدعونا إلىٰ الحذر . وإنه لمن المؤكد وبشكل حاسم أن التسليم بتقسيم الشعوب إلىٰ شرقية وغربية هو مفتاح تاريخنا وأنه مع هذا التقسيم الجغرافي يتطابق حدان مزدوجان عنصريان ولغويان هما الهنود الأوربيون (أو من يسمون أحياناً بالآريين) والساميون . إن جميع العقول الجيدة قد انحنت أمام هذا الاختراع المتولد عن خيال اللغويين الألمان . وإن

المؤرخين سيعجبون للانتصار المناقض لما هو متعارف عليه ، لهذا التصديق السريع ، وللمطابقة في عصر ، هو عصرنا الذي يؤكد كونه مرتاباً وعقلانياً ورافضاً . والواقع أنه انطلاقاً من الوثائق والمصادر والمواد التي كانت تحت تصرف العالم ، يبدو أن من المستحيل البرهان علىٰ وجود شعوب سامية وآرية ، وبالأحرىٰ إعطاء الحدود والفروق الخاصة بينها ، كما أنه يبدو كذلك خاطئاً في منطلقاته مثلما هو خاطئ في عرضه ووقائعه ، هذا المذهب الذي يجد الشرق والغرب بموجبه تعريفاً لكل منهما وتفريقاً لأحدهما عن الآخر حسب هذا التقسيم إلى لغات هندية ـ أوربية وسامية . وإنه لا يحق لنا ، بحسب الحالة الراهنة لمعرفتنا ، أن نقدم مثل هذه المفاهيم . إن تعبيري (سامي وآري) ليسا شيئاً ، ولا يدلان علىٰ شيء . ولكي يكتسبا حقيقة ما ، أو لكي يصلحا نقطتي انطلاق تاريخيتين ، ينبغي أن يكون هذان الشعبان قد امتلكا من قبل صفتي الآرية والسامية . وأنه ليس هناك إنسان ما ، أو ثقافة ما ، أو مجتمع ما ، قد طالب بهذا الارتباط بالمصير السامي أو الآري . إن هذا يجب أن يقال . ولكن عالمنا كان نظرياً إلىٰ حد جعله يجد سعادته في الأشكال الخيالية التي وضعه فيها المفكرون . إن البعد العالمي للنظريات التي يعممونها ، والتضامن (لئلا نقول التواطؤ) الذي يصل بعضهم ببعضهم الآخر ، والآلة المذهبية التي تحيط بهم . . . إن كل ذلك يعطي لآرائهم وأقوالهم سيطرة تفرض نفسها علىٰ الرأي وتعريه ويبدو الأمر كما كتب ايراسم « الصحيح أن الإنسان مخلوق يتأثر بالخيال أكثر مما يتأثر بالحقيقة » . بيد أنه لا شيء في ميدان الحقيقة يفرض تمييزاً سليماً أو مريباً بين (الآريين) و(الساميين) . إن التعبير الأول من هذين التعبيرين اختراع بسيط وصاف ، أما الثاني فهو تعبير منطقي جديد مشتق من سام بن نوح ، وهو شخصية أسطورية . يضاف إلىٰ هذا أننا ، من أجل احترام التراث التوراتي ، ينبغي أن نقول (اليافثيون) وليس (الآريون) ، لأن (يافث) من أبناء نوح

الثلاثة هو الذي نسل اليونانيين ، والأناضوليين ، وأقاربنا الأوربيين فبأية غفلة لا تغتفر تقدمت مدرستنا العلمية في ميدان ليس فيه شيء من الثبات والصحة . ذلك أنه لا يكفي الإنسان أن يتكلم ، بل عليه أن يتكلم ما هو صحيح . فمن فرط تعلقنا بأن نكون خالقي كلمات ، أصبح بعضنا خالقي كلمات . وإنه لمن المؤكد أن جميع العلماء لم يرددوا تلك الكلمات معاً ، وأنه كانت هنا وهناك أصوات معارضة ، نشاز ، وأن هناك نقاداً وقفوا ضد هذه الادعاءات الشاذة للنظريات المعترف بها ، ولكنه من المتعارف عليه أن الجامعة جسم يحمي أعضاءه المؤمنين به من جهة ، ويقسو على معارضيه من جهة ثانية . لذلك سكت النقاد عندما لم يسكتهم معارضوهم قسراً . إن كثيراً من المعلمين والمفسرين ، قد فضلوا ، وهم الخائفون من مضايقة الأساتذة الذين تتلمذوا عليهم ، أن يأخذوا دورهم ، دائنين بذلك أنفسهم ، وموزعين نعيم تعليم لم يكونوا مؤمنين به أبداً ، ومخلدين وهماً لم يكن من خلقهم ، ثم منقلبين بعد ذلك بالإجمال ، ومخطئين على الرغم منهم . وليس أقل من ذلك صحة كون العرب أنفسهم ، وهم المعتقدون بنجاحهم العالمي في الأخذ بيد الغرب ، قد وافقوا على التعريف بأنفسهم من قبل مراقبين أجانب ، لقد صدّقوا بسهولة وعن طواعية ، الأحكام الجسورة المتهورة لمستشرقينا ، دون أن يقولوا إن الغربيين ، مزودين بقدر أكبر من المعرفة كانوا من جانبهم ، سيستقبلون بشيء من الريبة المؤلمة أطروحات سيسمح لهم بإشادتها مدارس للمستغربين الساكنين القاهرة أو بغداد . ولكنه إذا وجد لدينا مستغربون ، فلن يكونوا كمستغربي القاهرة . وتلك فجوة ذات معنى خاص . لأنه من المتفق عليه بطبيعة الحال أنه ليس بريئاً كل البراءة ذلك الاقتفاء .

فقد عالج القديس نيفاري المصري ، في القرن العاشر الميلادي ، أسراراً عميقة في التاريخ لا يدرك غورها ، معبراً عن ذلك على الشكل التالي : « إن سطح البحر صفاء وشفافية يعمينا تلألؤه ، أما أعماق البحار فظلمة لا تخترق .

وبين هذين تسبح أسماك ضخمة ينبغي أن نتقيها » .

إن الضلالات التي يقودنا إليها السكوت أخطر من تلك التي يقودنا إليها الجهل . والله وحده يعرف الأسباب السيئة التي استطاع ذلكم التمييز بين الساميين والآريين سترها بالاستعانة بمعطف نوح . . .

وإنها في الحق لتفرقة أكثر منها تمييزاً . . . . وإنه لبرهان ثابتَ منسجم آخر قولنا : إن الشرق والغرب ليسا أبداً ميدانين متناقضين ، بل هما علىٰ العكس من ذلك قطب الحقيقة نفسها والثقافة ذاتها ، فالاغريق شرقيون ، والرومانيون يعترفون بأنهم أبناء اينيوس وهو أبوهم الاغريقي . إن الجذور الصوتية والخطوط هي من هذه النقطة مربوط بعضها ببعضها الآخر بحيث إن كل تحليل أو تفسير يتطلب وعداً بدفع الرهان . ولقد بدأ الخطأ بالتأكيد من محاولة الانطلاق من بديهية ناتِجَة قليلاً أو كثيراً عن تعليم مستعار من المسيحية أو من معرفة مبتورة من التراث القديم . إننا حين فعلنا ذلك قد بسّطنا ؛ إلىٰ أصغر حدٍ ، التراكم الثقافي الضخم المنجز في عالمنا المتوسطي منذ الألف الرابع أو الخامس قبل الميلاد ، ولخصنا كذلك ، في ثلاث أو أربع من الحلقات القصيرة الهزيلة ، ماضياً شاهقاً سامي الارتفاع في أهميته وأعطينا أيضاً مخططاً سخيفاً مطابقاً لأذواقنا ، أي خاصاً لتبرير اشمئزازنا ، وإننا قبل أن نقول لأنفسنا إن أغلب الأحداث الماضية قد أصبحت بالنسبة إلينا غامضة وغير مفهومة ، وإن الصعوبات ذات المعنى تبقى تقريباً مستعصية على الحل . . . إننا قبل ذلك كله قد اقتطعنا ، دون أن نبلغ أبداً ما نحن متأكدون منه ، اتجاهاً آخر أكثر خطورة ، اتجاهاً قادناً إلىٰ أن نعهد ، إلىٰ مجموعة من العلماء المتسلطين المحتبسين في أديرتهم أو جامعاتهم أو مخابرهم ، بدراسة مجتمعات واسعة قديمة كانت حياتها بصورة رئيسية جماعية ، ومشتركة ، وغير معروفة ، ودينية ، ولا صلة لها البتة بهذه العصافير النادرة التي تسمىٰ علماء مختصين .

لقد كشف ج . ب . آدم ، مدير مكتب علم العمارة في العصور القديمة في باريس ، في مؤلف صدر حديثاً عن علم « الآثار أمام الدجل والتضليل » . . . اكتشف الصفة المخادعة المخاتلة الافتراضية لعلم ما من علوم الماضي . لقد أعلن المؤلف أنه كان مذهولاً من رؤية العقل السليم مستهزأً به إلىٰ هذه الدرجة . وأنه هو نفسه لم يتجرأ علىٰ أن يذهب إلىٰ آخر ما يمكن أن يوصله إليه منطقه .

وكيف لا نبتسم عندما نقرأ ما كتبته ريشة أرنست رينان في « تاريخ اللغات السامية » من أن الآريين والساميين لم يعرفوا أبداً « بفضل حالة خاصة » « المرحلة الوحشية » ، وأنهم وجدوا أنفسهم دفعة واحدة محمولين إلىٰ أعلىٰ مستويات الثقافة ؟ ما أشبههم بمنيرفا المولودة مسلحة ، من عقل جوبيتير ! وكيف يمكن أن نحمل على محمل الجد تصريحات مثل هذه : « أن الآشوريين كانوا بالتأكيد ساميين ، أما الكلدانيون ، فمن المستحيل معرفة من هم ومن أين أتوا » ، إنه تأكيد يكتمل في الحال بمثل هذا التأكيد : « وشكل الكلدانيون والآشوريون ـ بصورة سريعة ـ حضارة مشتركة ، سميت الحضارة الآشورية ـ البابلية » . فما هو في هذه الحضارة القسم السامي ، والقسم غير السامي ؟ ولنتابع القراءة : « لقد كان الحثيون بالنسبة لبعضهم ساميين ، ومغولاً بالنسبة للآخرين ، ولفئة ثالثة هم مغول ـ ساميون » . أما المصريون فهم بالنسبة لبعضهم أحباش ، وهم أنصاف ساميين بالنسبة لبعضهم الآخرين ومهجنون عن الحاميين أو الأفارقة البيض ! « ينبغي أن يكونوا قد اكتسحوا وادي النيل في عهد بعيد جداً إلىٰ حد لا يمكن أن يقدره الخيال » . بل أن بعضهم قد ذهبوا يتساءلون فيما إذا كانوا قد أتوا من إحدىٰ القارات الأوقيانوسية (دون التأكد من أي اقيانوس) . علىٰ أنهم هم أنفسهم كانوا يملكون فكرة عن هذا الجدل الذي قدمنا ، فهم يقولون في كتابات حفروها على جدران معبد الكرنك أنهم « خدام حورس » أي أنهم مصريون .

وها هي ذي علىٰ الأقل نتيجة صادقة شريفة مؤكدة . « لقد سجل حديثاً أن جزيرة العرب المركزية كانت مهد الساميين . لقد كان الساميون الذين بقوا في جزيرة العرب أجداد الشعب العربي . وهؤلاء الذين استقروا في الفرات الأدنىٰ وتألقوا وانتشروا في آسيا الغربية كانوا الآشوريين والـ . . . والإسرائليين . » وها هو ذا تأويل يخلط بين الكلدانيين والآشوريين والإسرائليين ويفترض وجود « آسيا غربية » خالية من السكان ، فإذا لم تكن خالية خاوية ، فمن كان يسكنها ؟ الجواب هو الصمت عن هذه القضية الهامة . إن يوسف فلافيوس ، الذي يستشهد به كثيراً شراحنا للكتاب المقدس ، يرىٰ أنه لا السوريون ولا المصريون ولا اللبنانيون ساميون ، والأمر يسري كذلك علىٰ اليهود الأحباش . ولكن الفرس هم ساميون . علىٰ أن علماءنا المحققين يؤكدون ، من جهتهم ، أن الفرس آريون قد أتوا من آسيا واكتسحوا الهضبة الإيرانية وشمالي الهند حول العام ٣٠٠٠ قبل ميلاد المسيح . ولكن المصيبة أنه توجد **رواية تقول : أن أصل الساميين أيضاً من آسيا . وفي كل الأحوال فإن الكتابات الوحيدة المكتشفة في البلاد الميدية والفارسية ، وهي الأرض المقدسة بالنسبة للقائلين بالنظرية الآرية ، هي كتابات مسمارية ، وكذلك الكتابات المصرية والآرامية ، فاللغات الثلاث لغات سامية .**

ويقفز التناقض أمام العين ، ولكن الصحيح أننا في الميدان الفسيح العلمي الذي نحن فيه لسنا في تناقض قريب . ذلك أننا ، ونحن نتابع أبحاثنا في الساميات ، قد رجعنا إلىٰ آخر المؤلفات المنشورة برعاية جامعة الصوربون والكوليج دوفرانس ومدرسة القدس التوراتية . لقد وقعنا علىٰ دراسات مهمة جداً ولكنها ممتلئة حرفياً بتعابير مطبوعة بلا ترتيب « إننا نمتلك خطأً قوياً لكي . . . الأمور تجري كما لو أن . . . لقد انتقينا الفرضية من ضمن الفرضيات التي بدت لنا أنها الأكثر قيمة والأكثر تطابقاً مع الفكرة التي تبعناها ، أن النص منقول عن أصل يهودي غير موجود » . أليست غريبة

ولا معقولة هذه الفكرة التي تستدعي شهادة شاهد غائب ؟ ونحن نكتشف أيضاً ، بالمصادفة ، أننا باتفاق مع شرح ما : إنه بيان عالم من هايد برغ قد كشف خطأ ارتكبه ناسخ منذ أربعة آلاف سنه . أذلك رصين ؟ إننا لنستطيع مضاعفة الأمثلة حتىٰ النهاية ، أمثلة الفرضيات المريبة والمشكوك فيها ، بالإضافة إلىٰ الاستنتاجات الاعتباطية . وإنها لميزة يمتاز بها جميع هؤلاء الخبراء الذين لا يتفقون فيما بينهم علىٰ شيء ، إلا علىٰ أمر واحد ـ ويا للغرابة ـ إنه هذا التعبير « سامي » ، الذي لم يتفقوا أبداً علىٰ محتواه . إننا ، باختصار في جهل مطبق ، جهل علمي ، متفق عليه . وإن الأمر سيكون بسيطاً جداً فيما لو أننا تكلمنا بدلاً عن الساميين ، الأبطال المختلقين من أصل خيالي ، . . . لو أننا تكلمنا عن العرب ، ذلكم الشعب الحقيقي والذي يمتلك وجوداً اجتماعياً مستمراً ، وجوداً ثقافياً ولغوياً يعطي حياة وتوازناً لهذا البحر المتوسط منذ عدة آلاف من السنوات . وأن الأبنية الأثرية قائمة هناك لكي تشهد وتثبت وتقرر أن الحضارة ، التي هي حضارتنا ، قد ولدت وازدهرت وتفجرت في أرض تمتد بين النيل ونهر السند ، بين القوقاز ومضيق باب المندب . وأن أربعة من الدول قد اقتطعت من امبراطورية عاشت طويلاً : إنها دول المصريين ، والسوريين الكنعانيين والإغريق الحثيين ، والبابليين . إن لغة واحدة مكتوبة ومتخاطب بها قد انتهت إلىٰ فرض نفسها وتغطية هذا المجموع الكبير : إنها اللغة الآرامية والاغريقية تابعتها والملحقة بها التي تقترب كل منهما من الأخرىٰ بصورة دقيقة ، ثم تطورت الآرامية منذئذٍ طبيعياً ، ودون معارضة ، إلىٰ اللغة العربية ، التي وجدت نفسها منذ ذلك الحين وارثة الماضي المصري والكنعاني والحثي والبابلي . ها هو ذا المعيار الدقيق للثقافة العربية ، أمّ الثقافة الهيلينستية والموحية بها والتي صاغت وشكلت عقلها وقوانينها . إن العرب والاغريق يتواصلون ويتوالون لإعطائنا ما نسميه (الحضارة) التي هي ، كما نرىٰ شرقية بمقدار ما هي غربية ، وسامية بمقدار ما هي آرية ، علىٰ أنها

واحدة ، ولا تتجزأ في جميع أقسامها ، سواء أكانت روحية أم مادية . وها هي ذي شواهد تؤيد هذه الحقيقة : النصوص الثلاثة الأصلية لعقيدتنا التوحيدية ، إنها محررة كما يلي : أحدها بالعربية وهو القرآن ، والثاني والثالث بالاغريقية وهما العهد القديم والعهد الجديد .

علىٰ أَنَّ إيضاحاً حول قضية العبرية يبدو ضرورياً ، لأن وهماً معقداً ومستمراً لشعوذة اشتقاقية لغوية قد استطاع أن يجر كثيراً من الناس ليروا في العبرانيين ، وفي « ثقافتهم » الأجداد الساميين لتاريخ الشرق ، ولتاريخنا نحن أيضاً . إن علينا أن نعرف ، قبل كل شيء ، أن التاريخ المصنوع للعبرانيين خارج النصوص التوراتية هو الصمت الكلي المطبق ، فلا العمارة ولا الكتابات المنقوشة علىٰ الآثار ، ولا القوانين والدساتير تكشف أثراً قليلاً للعبرانيين ؛ فعلىٰ آلاف النصوص المسمارية أو المصرية التي تؤلف المكتبة المصرية ، أو مكتبة رأس شمرا أو نينوىٰ ، وحتىٰ في الروايات الآرامية . . . في ذلك كله لا تذكر كلمة (عبرية) ، وأشهر ملوك التوراة وهما داود وسليمان لم يصبحا قط موضوع وقائع تاريخية . وليس هناك أبداً ذكر للملحمة وللوقائع الحربية المعزوة لعبور العبرانيين . وليس هناك أي انقطاع حضاري ثبت بالحفريات التي تمت في فلسطين منذ عام ١٨٩٠ ـ ١٩٢٥ . فالعدم كامل مثلما هو قطعيّ جازم . إنه لا يمكن بالتأكيد إيجاد قضية تاريخية عندما نجهل الحوادث ، ولا يمكننا كذلك محاولة التنبؤ بحوادث عندما لا نملك أي مصدر عنها . لقد نشر في عام ١٩٧٣ برعاية السلطات الإسرائيلية طبعة من كتاب فلافيوس يوسف ولقد زين المؤلِّف برسوم منسوخة بابلية وسومرية ومصرية وحثية ، أي عربية إننا لا نجد فيها عبرية ، ولا حتىٰ في النص الذي هو ، كما هو معروف ، ترجمة إغريقية ، ذلك أن فلافيوس يوسف كان يكتب باليونانية ويتكلم اللغة الآرامية كما كان شأن جميع الفلسطينيين في عصره . ولنضف أن العبرانيين مجهولون في الأناجيل ، وكذلك هم في القرآن الذي يتحدث فقط عن اليهود

والإسرائيليين ، وبني إسرائيل . وعلىٰ كل حال ففي كل مرة كانت كلمة « العبرية » تذكر في الأدب العربي أو الإغريقي أو اللاتيني ، كانت تعني ديناً لا قومية . علىٰ أن هناك رسالة للعبرانيين ولكنها كانت مرفوضة من قبل شراح الكتاب المقدس ، مرفوضة لأسباب مادية قبل كل شيء ، ذلك أن ذكر كلمة « العبرانيين » مضافة هامشياً ، ثم لأنه لم يكن هناك اتفاق حول معنىٰ التعبير (العبري) الذي يفلت من كل تحليل جاد . وإنه ليصعب علينا اليوم أن نعرف العبرانيين بواسطة المكان ، أو الزمان ، أو بمعونة علم الاجتماع ، أو علم الأديان . ولن يساعدنا في ذلك فلافيوس يوسف ، فكتابه (تاريخ اليهود القديم) ، يثير العجب في تناقضاته وفي رواياته : إنه يضع الكلدانيين خارج ما بين النهرين ويجعل من إبراهيم ملكاً على سورية ، ويسجل أيضاً أن « السامريين عبرانيون ولكنهم ليسوا يهوداً »[1] . وهناك ما هو مؤكد علىٰ كل حال ، وهو أن العبرية ليست اللغة الأصلية لليهودية التي كان تعبيرها الحي والمحكي أولاً هو الآرامي ، ثم العربي : وذلك بسبب كون اليهودية قد شاركت الديانات المصرية البابلية والأورفية والمسيحية أو الإسلامية مصيرهن . وعندما صرخ يسوع المسيح علىٰ الصليب صرخته الكبرىٰ « إلهي ، إلهي لماذا شبقتني » ، فإنما بالعربية كان يصرخ ، وكل عربي يفهم اليوم معنىٰ هذه الصرخة التي تعني « يا إلهي لماذا كنت الأول أمامي ؟ » أو بمعنىٰ آخر « لماذا تركتني خلفك ؟ » ليس في هذا النص أي أمر عبري ، علىٰ الرغم من شروح بعض العلماء . وإننا إرضاءً للضمير قد قوّمنا التعابير المعطاة « كعبرية » من قبل شراح الكتب المقدسة النصارىٰ ، إن غالبية هذه التعابير هي بكل بساطة كلمات عربية . وإذا ما قرنا أخيراً ، عوضاً عن الذهاب للبحث عن المصاعب حيث لا توجد ، وعوضاً عن إعادة النظر في التفاسير التوراتية تحت ضوء اللغة

---

(١) ص٣٦١ طبعة ليديس عام ١٩٧٣ .

والثقافة العربيتين ، فإن مدرسية سكولاستيكية مصطنعة قد انهارت لصالح رؤية منعشة للعهدين القديم والجديد .

وإنه لمن غير الطبيعي أن الوحي المصمم من أجل الوعظ والإرشاد والصلاة الشاملة ، والمعد من أجل الفهم الشعبي ، قد أصبح سجين اللغة العبرية ، وهي كتابة مقدسة مخترعة من أجل جماعة صغيرة كهنوتية . أما اليهود الشرقيون ، الذين لم ينقطعوا عن التعبير بالعربية ، فقد عرفوا كيف يعطرن الأدب العربي والفكر العربي والعلم العربيّ ممثلين يشار إليهم بالبنان . لقد قلنا إن أول ترجمة للتوراة اليهودية تتمثل في نص يوناني ألف في الإسكندرية في القرن الثالث قبل الميلاد تحت حكم بطليموسُ الثالث ، في الوقت نفسه الذي جمعت فيه الآثار الهوميرية الملحمية أو السرية التي نقلها إلينا التقليد المأثور سليمة شبه كاملة . فمصر إذاً المصدر الأم للعهد القديم ، إنه فكر عربي هيليني أشرف علىٰ ملحمة داود وأخيل . وذلك ما يلحظه بسهولة ، أي قارئ ذي بصيرة وانتباه . كما أن من المنتظر ، أن تربك أصالة النص السبعيني الإغريقي التي لا تناقش والتي هي المصدر للتقليد العبري . . أصالة النص هذه تربك علماء اليهوديات الذين يعاندون في ألا يرَوْا إلا الترجمة العبرية . ولا شيء قد حدث حتىٰ ذلك اليوم مؤكداً مثل هذه الفرضية . ذلك أنه قد قرر ، منذ القرن الثالث بعد الميلاد فقط ، أن تحرر بالعبرية تلك الترجمة اليهودية التي ظلت حتىٰ ذلك الوقت مصوغة باللغة العربية ـ الآرامية ، لقد استعين من أجل هذا الظرف ، باللغة السريانية التي لا تزال تدرس حتىٰ اليوم . إن بعضاً من النبذ العبرية المصورة على البابيروس تعود إلىٰ القرن الأول قبل الميلاد ، ولكن ذلك يخضع للمناقشة أيضاً ، ومن الممكن أن تكون الإشارات باللغة الفينيقية الجديدة . (إن النص العبري للتوراة اليهودية لم يثبت إلاّ في وقت متأخر جداً بين القرنين التاسع والعاشر الميلاديين ، من قبل علماء مدرسة

طبرية الماسوريين[1] الذين استعملوا أربعة مصادر : النص الإغريقي السبعيني ، وترجمة القديس جيروم اللاتينية ، والنص الآرامي ، وأخيراً العناصر السريانية) .

لقد أثيرت ، منذ عدة سنوات ، ضجة حول اكتشاف مخطوطات البحر الميت في خربة قمران ، ولقد كنا في ذلك الوقت في زحمة العمل الصهيوني في فلسطين ، في الأمم المتحدة وفي مجالات الرأي ، وكان هناك فائدة في التفتيش عن إثبات توراتي للعملية العسكرية .

كذلك فإن فرصة الاكتشاف كانت قد ظهرت مشبوهة . ولما استشير العلماء في قيمة الوثيقة كانوا حذرين جداً . وهم قد أعادوا كتابةالنص إلى القرنين الثاني أو الثالث الميلاديين . إضافة إلىٰ ذلك ، فإن النظر القريب في الخط يظهر أنه مملوء بإشارات فينيقية وآرامية . وهكذا ركزت الشبهات واعتبرت مخطوطات البحر الميت مشكوكاً فيها ، ولم تقلل أبداً الفكرة التي أخذها العلماء الجديون حول الدور الذي لعبته اللغة العبرية في تاريخ الشرق . فلقد رأينا الكنيسة الرومانية تخترع لغة لاتينية طقسية وانجيلية مخصصة لحياتها الداخلية ، لغة كانت جهوريتها ، المتقعرة المتشبهة بالقديم ، قد التمست لكي ترمز للصلة بين مجتمع الإنسان والتعبير الإلهي . وإنه لمن المؤكد أن الجهورية المتناغمة للمزامير الكنسية باللاتينية أو بالعبرية قد استطاعت أن تبلغ القلب وتوقظ الحدس حول المجهول البعيد . ولكن إنساناً ما لم يذهب قط للتفتيش فيها عن وثيقة لغوية ذات قيمة ، أو عن أصل ثقافة أو نهايتها . فجمال هذه اللغات الطقسية إنما يكمن ـ بالتأكيد ـ في وهميتها وقيمتها ، إنما هي في نسقها الجمالي لا في نظامها التاريخي . أما اللغة العبرية الحديثة ، فاختراع أملاه اليعازر بن يهوه الذي نشر بين عامي ١٩١٠ و١٩٢٢ معجماً طلبته الحركة

---

(١) العلماء اليهود الذين أجروا أبحاثاً حول نص التوراة .

الصهيونية العالمية ، وخصصته لإيجاد نوع من (الاسبيرانتو) ليهود العالم الموعودين بالهجرة إلىٰ فلسطين ، إنه إذاً أداة سياسية .

فما هي الأسباب التي دفعت العلم الغربي إلىٰ جعل العلم الغربي خيط (إيريان) في بحوثه الشرقية ، بينما يجد بتصرفه لغة عربية حية ، موثوقاً بها متخذة أداة تعبير أمين عن عدة آلاف من السنين المتواصلة وخاصة بإيضاح سر العصور القديمة بسهولة ؟ إننا نستطيع البحث عن تفسير ذلك في الجزء المأخوذ من الكنيسة الرومانية ، ومن العلماء الذين جعلوا من أديرتهم حصوناً لتفسيرات كتابية مجاهدة . منذ القرنين الرابع والخامس اللذين شهدا مواجهة الكنيستين الشرقية والغربية في الصراعات الحادة لدراسة السيد المسيح حول النساطرة والقائلين بطبيعته الواحدة . . . منذ ذلك الوقت البعيد كانت روما في حرب ظاهرة ومستترة ضد الجدليين العرب . فالصليبيون الذين كان عليهم أن يستعملوا فيما بعد القوة الجبرية ضد الإسلام لم يكونوا مدفوعين ضد الإسلام فحسب ، بل ضد جميع الأنماط الدينية والفلسفية المستوحاة من الفكر العربي ، تلك الأنماط التي أثارت الشرق ، أو تلك التي استعملتها مجتمعات اسبانيا وروسيا وفرانسا في القرون الوسطىٰ . فالمؤلفات القديمة تسمي « عرباً » سكان الأكيتين والباسك والأندلسيين أو القشتاليين المتأثرين بالمسيحية المؤمنة بالثالوث المقدس والمنفتحة علىٰ اليهودية بقدر ما هي منفتحة علىٰ الإسلام .

وإنه معلوم في هذا الصدد أن المسيحية الشرقية (الغنية جداً بالإيمان والتقاليد الإنجيلية) لم تلتمس قط في العبرية طرق تبريرها ، بينما كان عليها أن تفعل ذلك بصورة خاصة . إن هذه الكاثوليكية قد بقيت متعلقة باللغة السلفية العربية . وإنها المسيحية اللاتينية وحدها التي توجهت وجهة نمط منعزل ومنحرف عن التقليد الديني ، مستعملة منذ وقت مبكر العبرية سلاحاً وأداة صليبية ضد الميتافيزياء الشرقية .

وهكذا كان زيفاً وضلالاً باسم السامية المزعومة ، فصل العرب عن المجموع الثقافي المصري ـ الكنعاني ـ البابلي الذي كان قسماً مكملاً إن ذلك آت من خرافة تعطي للغة العبرية مكانة خاصة ، وليس ذلك إلاّ فرعاً متأخراً وطقسياً للغة العربية ، فرعاً فكرياً مجهولاً لمدة طويلة من قبل الشعوب ، وهو لهذا السبب مجدب لأنه كذلك مصنوع بمقياس واسع والعبرية في هذه الأيام تنتسب لعالم صغير مغلق من العلماء . وهي لا وجود خاص لها بالمعنىٰ الشعبي ، والتاريخي للتعبير .

ويغيب فضل هؤلاء المدافعين عنه ، ويعيد العلم الحديث النظر في قيمة هذا الشعار الطقسي المدثر بدثار الدعاية الرسولية الرومانية . ولقد حان الوقت لاستبدال « النسبة العبرية » بهذه « النسبة التوراتية » ، لأن إحداهما ، كما رأينا لا تتطابق مع الأخرىٰ البتة ، وفي التعبير « توراتي » في الحق قرابة مع التعبير العربي (أو الآرامي ، الذي ينتقل إليه تماماً) . لنضع اسم (نوح العربي مكان Noé ، وأيوب مكان Job ، ويونس بن متى مكان Jonas ، وسام بن نوح مكان Sem ، وإبراهيم مكان إبراهام . وداود مكان دافيد ، وهرون مكان آرون ، وسليمان مكان سلمون ، وجالوت مكان غوليات ، وعيسىٰ مكان Jesus ، ومريم مكان ماري ، وعند ذاك سنجد أمامنا طراوة العهد البدائي.وحضوره الحقيقي ، وسنشعر كم دام ، من ألف عام إلى ألف عام ، كلام بقي يرن في عقول الملايين من الناس الذين يسكنون الشرق هذا اليوم والذين هم دون جدال ورثته . وسيكون له المعنىٰ نفسه الذي لم تحمله اليهودية والنصرانية والإسلام فحسب ، بل إن الديانات الزرداشتية ، وعبادة الشمس ، والديانة الأورفية ، وديانات الأسرار والسلام ، ومعتقدات الإغريق والرومان تشتق كلها أيضاً كإخوة وأخوات من الكون الشرقي الذي كان يسود ذات يوم بين النيل ونهر السند ، محمولاً علىٰ أجنحة لغة عامة ، وهي الآرامية الحية دائماً ، في هذه اللغة العربية المعاصرة . إن المسيح عندما صرح « قبل أن يوجد إبراهيم ،

وجدت » ، إنما كان يؤكد أن كلامه ليس درساً مستمداً من اليهودية بل صدر عن عالم روحي أقدم من ذلك . فبين النيل والقوقاز واليمن والسند تلاقت وتقاطعت وعاشت خلال نسيج متلاحم ، تيارات صوفية روحية متمازجة أحياناً إلىٰ حد يبدو معه من العبث التفتيش عن خطوط القسمة الجغرافية فيها . إن العالم الثقافي ، الديني والشعري للشرق في عصوره الأولىٰ قد كان عاماً تماماً . وقد استمر لمدة طويلة . وهكذا فإنه بدءاً من الألف الثانية قبل الميلاد كانت الإلٰهة عشتار محترمة ومقدسة في طيبة وبابل وكركميش واوسوس قبل أن يعرفها الإغريق تحت اسم افروديت ، وقبل أن يعطيها الرومان صفات فينوس ، كذلك ربَّى الإسكندر القاسي في القرن الثالث الميلادي في إنطاكية متأثراً بمعلمه المصري أوريجين ، فعبد في مصلىٰ ثالوثاً يجمع إبراهيم وأورفيه والمسيح .

فالمجتمع القديم لا يحلل في الحقيقة الدين ولكن يحياه ، كما يحيا الطبيعة أي السماء والأرض . وهو لا يطرح أبداً الأسئلة الشائكة التي يجعل منها إنكارنا الوحي لعبته اليومية . ومهما استطاعت أن تكون ديانات بعل ويهوه وايزيس وأورفيه أو المسيح ، فإنها جميعاً تملك عن الإنسان الفكرة ذاتها ، إنها تنظر إليه في أعالي السماء ، وبما أنها لا تضع في الحسبان سعادته الشخصية ، فإنها لاتهتم من ثم إلاَّ بالسماء ، مع العناصر ، مع الأصول ، أي مع الموت ، والعالم .

وكما أن تاريخ العالم لا يقاس بطول يوم ولكن بالسنة الشمسية ، فإن المجتمع القديم المفعم ديناً يقيم حساباته السياسية أو التاريخية انطلاقاً من كميات ضخمة في المكان والزمان . ذلك أن الحياة الإنسانية لا تحب إلاَّ بالشرط الوحيد في وجودها موضوعة في حقيقة كونية وملحمية أي في حقيقة وهمية بالتالي ، لأن الإله لا يستطيع أن يكون إلاَّ ملحمياً . وإنه ليس هنا من أجل أن يقوم بما يلزم إسقاطه من حساب حالات أرواحنا أو توترات قلوبنا .

وليس التاريخ بالنسبة للإنسان القديم ، يوماً بعد يوم ، وحادثة بعد حادثة ، وكما ندركه نحن، إلا مغامرة تعيسة . إن مصيره يراه ، يحياه تحت شكل مأساة ذات عدة سجلات ، تتلاقىٰ فيها وتتواجه الشعوب مجتمعة ، والمدن السماوية ، والقوىٰ الخرافية . وفي هذا المستوىٰ تمّحي الفروق . وتلتقي جميع الديانات في السماء . فالسماء واحدة ، والدين إذاً واحد . والمنازعات العقائدية لن تظهر إلاّ في وقت متأخر . فمعابد بعل أو ميترا ، أو مصليات ما بين النهرين ، ومساجد المسلمين أو كنائس يهود اليمن أو سوريا . . . ستعبّر لمدة طويلة عن عقلية واحدة وذلك حقيقي إلىٰ حد أننا نستطيع أن نرىٰ على امتداد القرون قدس الأقداس أو محاريب تمضي متتابعة من عقيدة عشتار إلىٰ ديانة أورفيه ، ومن الله الأزلي لليهود إلىٰ إله المسيح أو الإسلام ، ذلك أن التعصب الديني أو الفلسفي صفة العالم المعاصر . ومن هذه العمومية المسكونية في المكان والزمان تعطي اللغة الإغريقية شاهداً ثميناً بشكل خاص أو بالحري أن اللغة العربية قد أعطت ، دون انقطاع منذ أصولها النيوبوتيكية والرافدية حتى يومنا هذا ، وفي جميع أشكالها وصورها ، دون استثناء . . . أعطت تديناً صاغ منه مجتمعنا ، جميع التأملات ، والفلسفات ، والجماليات والعلوم الخفية أو العامة . فلقد كان كاهن بعل يتكلم العربية ، وبها كذلك يتعبد التقي المؤمن بإيزيس ، أو موسىٰ المصري ، وبالعربية يتكلم منْ ثم عيسىٰ المسيح عندما يتحادث مع قيافا أو مع شعب فلسطين ، ولعلها بديهة أن نسجل هنا أن محمداً قد بشر بالعربية ، وبها نشر رسالته . وأن الخط المستقيم لثقافتنا لم يكن يوماً ما منحرفاً أدنىٰ انحراف . وأنها ، في الحقيقة ، لعبة أطفال بالنسبة لعالم لغة ، أن يجد في أصول اللغات المصرية والكنعانية والأناضولية أو الآشورية ـ البابلية العناصر الأساسية للغة العربية ، فلقد نقلت الكلمة أحياناً بكليتها خلال العصور بحيث تلخصها في كلمة مقصورة مدهشة . فإذا ما أردتم أمثلة قدمنا بعضها فيما يلي : سنعار في النصوص السومرية

والآرامية الرافدية ، نسميه اليوم في العربية شنعار . والإله الشمسي شمش يطابق في العربية الكلمة الحديثة شمس التي تعني الشمس أو الشرق ، وبعل يعني بالعربية (المعلم والسيد) ، ورب (وهي كلمة من ما بين النهرين) تعني « أب » ورب البيت هو « سيد المنزل » . وحروف الزيادة لكلمة « مالك » مضافة إلىٰ عدة أسماء توراتية تعني « المالك » .

ويسمىٰ إله الصاعقة البابلي « براك » ، وعربية القرن العشرين تسميه « برقا » إله الحظ هو جد ، في العربية المعاصرة جداً تعني « ميسوراً » .

الإله تموز أعطىٰ اسمه لشهر تموز العربي . والعديد من التعابير ما بين النهرية والتوراتية تحوي المصدر شلام ، شالوم الخ . . . مذكرة بالكلمة العربية سلام . الإله السوري الفلسطيني للجحيم يسمىٰ موت ، والتعبير نفسه يعني بالعربية الموت . « هاك » في لغة ما بين النهرين العيد الطقسي . « الحج » بالعربية الفريضة المعروفة . أما سبت ، فمرادف مباشر لكلمة سباتو البابلية ، وهي تحدد عيد القمر عندما يصير بدراً . وإننا لن ننتهي من إعطاء الأمثلة أبداً . وهناك في اللغة اليونانية تعابير منحت ، من مصدر ما بين النهرين والمصدر الآرامي ، كميةً كبيرة من مفرداتها ومن بينها بنيتها . فإذا كانت الكلمة الإغريقية « سيبيل » (سيبولا) تعني شخصية مقدسة مكلفة بإيضاح الهتاف عند الوثنيين ، فإن الكلمة العربية « السبيل » تعني « الطريق الذي يقود إلىٰ الله » ، وهي تستعمل كذلك لتحديد المكان الذي يقام في كل مدينة ، يستخدم للقاء والتأمل ، وغالباً ما يكون مزوداً بسبيل ماء عام .

والحق أن الإغريق لم يكملوا أبداً ارتقاءهم الآسيوي ، إنهم كانوا يعترفون بأنهم تلاميذ المصريين والبابليين ، إن البانتيون عندهم عربي ، والكوسيموغوني والتيورغوني لديهم مستوحيان بصورة مباشرة من الأناضول ومن كنعان . أليس والد ايزيود من أصل ايلي ؟ وكان هيرودوت يتعجب من تمييز أوربا من آسيا ، وقطفت بوساطة المستوطنات الفينيقية ثمرات أربعة آلاف سنة من جهود حصلت

عليها وتوصلت إليها مصر وبابل وإن ازدهارها بالتأكيد قد تأخر ، وقبل هوميروس بألف سنة وبينما كان اليونان يحيون ، في الظلمة ، كان شعب تحوتمس ينعم في وادي النيل بفن وبنعيم مترف ، وسيدخل الإغريق ، خلال نقلهم إلىٰ الغرب الصقليّ والإيطالي الإرث الآسيوي ، مختلف الديانات العربية ، والمسيحية منها خاصَّةً ، ذلك أن العهد الجديد إنما وصل باليونانية إلىٰ البحر المتوسط الغربي . فلماذا نتابع نحن أبناء الهيلينية ، وفي مثل هذه الشروط ، التعريف بأنفسنا منسوبين إلىٰ الفلسفة اليهودية ـ المسيحية وحدها ؟ ، فاليهود والنصارىٰ ليسوا إلاَّ عنصراً في جملة عناصر حُمِلَتْ إليهم عبر الهيلينية .

أجل نحن أبناء آسيا ، وأبناء العروبة النيلية ـ الرافدية ، أجل نحن أولئك في الحقيقة . وهذا هو مجموع الوصية التي ينبغي علينا أن نطالب بها . فلتتحدَّ الصور الجاهزة الصالحة لكل زمان ومكان . إن اليهودية والمسيحية تعبيران يخفيان وراءهما حقيقة أكثر تعقيداً وسعة من الطوائف التي أغلقنا على أنفسنا الأسوار داخلها .

وإنه لتوجد أشياء كثيرة مثيرة للاضطراب فيما يتصل باليهود في أقاصيص فلافيوس يوسف ، وفي الأدبين اليوناني واللاتيني ، وفي الأناجيل نفسها لأن القديس يوحنا يسمي « اليهود » أعداء المسيح . كيف نفسر ذهاب المسيح مناقضاً بشكل صريح قانون موسىٰ ، ليحتفل بعيد الفصح لنفسه ، في تاريخ اختاره مخالفاً ، لأن الاحتفال بالفصح اليهودي يتفق مع موته ؟ وسؤال آخر محير :

هؤلاء « اليهود » الآخرون ، الحواريون الذين حرروا الأناجيل ابتداء من العام السبعين أو الثمانين ، لماذا لم يسجلوا أو يذكروا في أي مكان جرت الحادثة التي هزت المجتمع اليهودي : إنها تهديم تيتوس للمعبد في العام

السبعين علىٰ وجه الدقة ؟ ولماذا لم يتكلم فلافيوس يوسف إلاً عرضاً عن يسوع الناصري ؟

سؤال آخر أكثر خطورة : إن المدن الكبرىٰ المسيحية لم تكن القدس أو الناصرة بل العواصم الكبرىٰ في ذلك الوقت : فيلادلفيا ، مدينة بطليموس ، برغام ، دمشق ، أزمير ، افسوس ، اللاذقية ، سارده ؟ ولماذا وجهت رؤيا القديس يوحنا الإنجيلي ، والتي هي رسالة وحي في نهاية القرن الأول ، إلىٰ سبع كنائس عربية في آسيا ، وهي نفسها بالذات التي كانت تُظِلُّ عقائد ايزيس وبعل وأورفيه ؟ إن رؤيا القديس يوحنا تتضمن أمراً ضد « هؤلاء الذين يقولون أنهم يهود وهم ليسوا كذلك ، ولكنهم ينتمون إلىٰ كنيس الشيطان » . وإنه لإعلان غريب ذلك الإعلان الذي أرسله القديس بولص والذي سمى فيه « إسرائيل » مجموعة من المؤمنين ، مضاعفاً حجم اللغز : « إن الذين ينحدرون من إسرائيل ليسوا جميْعاً من إسرائيل » . وإن الأناجيل لتضيف كذلك أنه يوجد « يونانيون كانوا يصعدون للعبادة في القدس » . فماذا تعني ، اتفاقاً ، كلمة (يونانيين) ؟ وماذا تعني كلمة « يهود » ؟ لا ، بالتأكيد ، لا شيء بسيط في لعبة الاصطلاحات هذه ، ويجب أن نفكر جدياً بالتخلي عن عادات متخذة بشأن نفي ارثنا اليهودي ـ المسيحي المزعوم ، ولنتوقف عن الانتصار فيه ، ولنستدع الرواية اليونانية الآسيوية . وهل هناك شكل أفضل من العزوف عن أنواع الأخطاء التي تعد منها هاتان التسميتان الآرية والسامية ؟ أما ما يتعلق باليهودية والأورفيه والمسيحية والمانوية والإسلام ، والتي كان الناس من قبل يعتبرونها عناصر مجموع لا يتجزأ ، فإن تبادل الآلهة والملائكة يحدث بسهولة ، وبسبب بسيط هو كون الناس آنئذ قد آمنوا بها بعمق . إن العين المثبتة بدون شفقة علىٰ الأشباح نفسها تفقد نظرنا سباق الشمس . ولنعترف أن أفقنا يتحدد لنا ، بحسب الأفكار التي نتلقاها والتي تتأكد لنا في فكرة سامية لقيمتنا . وإننا بجد وبتدقيق دلي نعمل لإكمال الصورة التي تلذ لنا . بينما سترضى

الشعوب التي تمتلك ثقافة عريضة بالحياة الخالصة قلباً وروحاً من أجل تاريخها ، بينما نعمل نحن الأوربيين في سهاد من بحث سرمدي . إن الحضارات المصرية ، والكنعانية ، والبابلية أو الأناضولية قد درست علىٰ حدة حسب المنهج المونوغرافي ، كما أن عالماً عربياً قد اخترع وحده أيضاً ، فإذا ما دفعنا بعيداً تحليلنا لاحظنا في داخل هذه الحضارات مجموعات تحتية إقليمية كانت بدورها مقسمة ثم منقسمة من جديد إلىٰ ذرات عرقية ، وعائلية الخ . . .

إن فن الانقسام قد ذهب بعيداً جداً بحيث إن الحضارات ، تحت مجهرنا القاتل ، قد انتهت بالانشقاق إلىٰ فتات . لأنه في الوقت نفسه الذي كان فيه سيرنا التحليلي يتطور متقدماً ، كان ذوق التركيب يتراجع ، ذلك التركيب الذي لا يمكن بدونه أن يكون هناك تاريخ ممكن . وإنَّ من غير الممكن تصوره وإدراكه بالنسبة لنقادنا أن يحكموا علىٰ تاريخ الشرق والغرب انطلاقاً من هذا البلد المنعزل أو ذاك ، أو اعتماداً علىٰ هذا الحادث المعترض ، ولكن انطلاقاً من وحدة ثقافية واجتماعية تظهر فيها الوثائقُ الالتحامَ الذي لا يناقش .

إن الحدود المرسومة عسكرياً أو سياسياً حسب مقتضيات آراء الأساتذة أو علماء الآثار لا تتجاوز بالضرورة قلوب الناس . وإننا عندما نؤكد من خلال نظرة شاملة ، أن الشرق يتعين من خلال ثقافة عربية في مساحة عربية ، فإننا لا نخترع شيئاً ؛ إننا لا نفعل شيئاً جديداً سوى جمع وإحكام العناصر الجغرافية والثقافية الموطدة الواحد إلى الآخر ، تلك العناصر الموطدة والمغرقة حتى الآن بإرادة تحليل زائد عن الحد . تلك الإرادة نفسها هي المسؤولة الأولى عن نفي عالمنا الحقيقي .

والمذنب الثاني هو التعليم الجامعي المتفرق منذ النهضة والذي كان الوحيد لصالح أثينا وروما اللتين غدتا (ايتيوبيا) تنظر إلى الخلف ، واللتين غدا الأوربي من خلالهما ، منذ القرن الخامس عشر ، معتقداً أنه اكتشف ذروة

مثالياته . واعتباراً من هذا القرن توقفت الثقافة الأوربية عن الاهتمام بالعرب ، لكي ينهاروا في الرمل ، ولكي ينسحبوا شيئاً فشيئاً إلى حيث يغدون من قبل الغرب ، في القرن العشرين ، مختصين بالجمل والقبيلة والثأر والبداوة .

لقد غدا العرب منذ عصر النهضة ، ولكي نوضح الرهافة الفنية والصناعية لعصر الخلفاء . . . غدا العرب تراجمة الإغريق والمعبرين عن حضارتهم . وتستمر أسطورة الحياة ، ويوجد اليوم أيضاً ، لدى العرب أنفسهم أناس يستفيدون من ذلك في الدفاع وفي تزيين أطروحات مستعربة .

إننا نقرأ بريشة كاتب حسن الطوية مايلي :

« لو لم يترجم ابن سينا أرسطو ، لما وجد القديس توماس الأكويني » . ولكن الحقيقة شيء آخر ، إنها التالية « لو لم يتأدب الإغريق في ظل الثقافة العربية ، لما وجد أرسطو بالتأكيد » .

« نعم لم يتلألأ في فلك النهضة إلاّ أثينا وروما . لقد كانتا الإنسان الشريف » .

« إنني أرغب في قراءة إلياذة هوميروس في ثلاثة أيام » كذلك وعد رونسار نفسه . ولقد عرض رفائيل في لوحة « مدرسة أثينا » الرائعة أن يصور العمارة الذهنية للإنسانية الكاملة . وارتدى أحبار روما الكاثوليك عظمة القياصرة العسكرية والقانونية . ولكن ، تحت مظاهر الموجودات العقلية ومع العصر القديم ، يبدأ ، في الحقيقة ، عصر التضييق الثقافي ، لأنه إذا اكتسحت أثينا وروما ، اللتان لم تكونا إلاّ قوتين متواضعتين نسبياً . . . إذا اكتسحتا المسرح الأوربي ، فإنه تمحى ، بالمقابل من تراثنا ذكرى الثقافة العربية الواسعة التي كانت قد غطت من النيل إلى نهر السند فترة أطول من تلك بآلاف السنين . ومع القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، وبتأثير من نظريي الديمقراطية والفكر الحر الذين سيستولون على المدارس وسيهيمنون على تحرير الكتب المدرسية

وتأليفها ، وستغدو أثينا في ذينكم القرنين معبود التعليم الجمهوري ، وستغدو روما بروتس معلمة الفضائل المدنية . وقد تزينت العاصمتان بزي معلمة النوع الإنساني وصوّرتا في مقدمات أبنية الكنائس السياسية ، عقائد إيمان المجتمع الليبرالي . وستبقى صلاة ارنست رينان على الاكروبول تحفة هذا النوع ومثالاً جميلاً للخفة والطيش في آن . وليس البارتينون ، حين نقابله بمعبدي الكرنك والأقصر ، إلاّ أثراً صغيراً جداً ، ولن تلتمع الجمهورية الأثينية إلاّ لفترة قصيرة لا تتعدى سبعين عاماً . (وذلك بين انتصار سلامين ومعاهدة ليساندر الارسباطي) ، وما قيمة ١١٥٠ من أعوام القوة الرومانية بمقابل خمسة آلاف أو ستة آلاف سنة من الحضارتين المصرية والبابلية ذلك الباب المتفرع من ليل الزمان والمتغلغل في أيامنا هذه في أرض الشرق ، تلك القوة الممكن تجريمها ؟ وهل يجب أن تخلد في الشرق طويلاً الامبراطورية الرومانية ، المشغولة منذ عهد أوكتاف أوغسطس في مجموع ثقافي ديني ، سياسي يضم مصر والأناضول وآسيا ما بين النهرين وسورية ؟

لقد اتسمت الإمبراطورية بالسمة العربية عندما بني في روما تنفيذاً لأمر الإمبراطور (اغريبا) معهد البانتيون ، الذي بناه مهندس معماري سوري في فجر العصر المسيحي . ولا ننسى أن الأسرة المالكة الآسيوية قد بدأت مع الأمبراطور فلافيان . ولقد عاشت روما واستمرت في بيزنطة ، وغدا جوستنيان المبشر بعهد الخلفاء . وما كانت أثينا في ذلك كله ؟ لقد غدت قرية ضائعة وإذا كان الخيال والمقاصد الجمالية أو السياسية قد رفعت من قيمتها وأشادت بها ، فإن التاريخ قد وضعها في موضعها الحقيقي . فالمسيحية والإسلام لم يأخذا طريق عاصمة بركليس ، ولكنهما أخذا طريق دمشق والمدينة ، وبيت المقدس . فالقرون الوسطى التي سحرتها مصر والأرض المقدسة لم تتذكر أثينا البتة . ومؤلف العصر الكبير (أسطورة دوريه) الذي جمع في القرن الثالث عشر تقاليد أوربا الشعبية ، قد مجّد فلسطين وسوريا ومصر وبيزانطة

والأناضول ، وأشار بكلمات قلائل فقط إلى أثينا . إن (أسطورة دوريه) هذه ، المجهولة في أيامنا ، هي مجموعة من المعارف والعلوم من جميع الأنواع ، وهي تؤلف ، مع كتاب دانتي التي استوحاها ، أهم ذخر من الموضوعات الفنية والشعرية والطقسية ، التي يمكن أن تكون المسيحية قد عرفتها . وهكذا من عاصمتينا الإنسانيتين الكلاسيكيتين ، في معزل عن التاريخ ، لم تحمل هذه الأسطورة ، وهي الأثر العلوي في السماء ، شيئاً ما إلى شعوب الشرق أو الغرب ، وذابت الأخرى ، روما ، في حضرة الثقافة العربية التي غدت ، بوساطة بيزانطة والكنيسة ، وارثة وشاهدة .ر ولنأخذ من ذلك أفكارنا الخاصة لتسليم اعتقاداتنا .

ولقد مضى وقت طويل توقف فيه الاختلاط والتشويش بين تاريخ بعض القبائل التعيسة من قبائل جزيرة العرب وتاريخ العرب . وكما لا يختلط تاريخ فرنسا مع تاريخ بعض من قبائل اللوزير أو الكانتونات المتوارثة عن المقاطعات الألبية ، فإن الحقيقة والثقافة العربيتين لا تتوقفان في حدود مساحة ثلاث أو أربع أسر تائهة يروي لنا الخبراء بغنائية وتشويش مصيرها الأسطوري . والحق أنه ليس من أسطورة في عالمنا . وإذا كانت الحضارة العربية قد امتدت في طرفة عين ، من البيرينه إلى أرض السند ، فلأنها لم تكن أبداً إقطاعة حفنة من آكلي اليرابيع الذين ارتقوا فجأة . وإذا كان الدين الإسلامي قد انتشر في قارات بكاملها ، وإذا كانت اللغة العربية قد لقيت حظاً لم تعرفه أية لغة أخرى ، وإذا كانت لغة اليهودية والمسيحية والإسلام ، فلأن حضارة مهيبة قد أعطتها سلطة تجاوزت أبعاد هضبة الحجاز . ولقد خضع لهذه السلطة اليونان ثم الرومان ومعهم الاتروسكيون ، قبل أن تنضم إليهم ممالك فيزيقوط الغرب وأمراء الهند . وهذا هو السبب الذي من أجله يغدو من الصعوبة بمكان الاعتقاد بانتصار إغريقي بعد الحروب الميدية بسبب انتصار الاسكندر في آسيا ، كذلك من الصعوبة بمكان اعتماد فتح عسكري لاسبانيا بجنود الحجاز فقط .

وفي هذه الحالة مثلما هي في الحالة السابقة كان عدم التعادل في القوى كبيراً بحيث وجب التماس التفاسير بعيداً عن الشروح المدرسية ، أي في أسباب أعمق مما كان الأمر عليه في معركة حربية ، أي في اشتراك في عمل أو في مؤازرة ما ، يكفي في هذا البحث الركون للحس السليم . إن هذا الحس السليم أكثر نبلاً وشرفاً من التبحر في العلم .

فإذا ما أبعدنا عنا الهوىٰ وعرينا المفهوم الشعبي واللغة الساميين ، من قيمتهما العلمية ، وإذا ما أنعمنا الفكر من أجل أن نرى بوضوح ، وليس من أجل أن نكتفي بالأفكار المتوارثة ، وإذا كنا عازمين على ألا نستعير شيئاً من أحلامنا ، وجب علينا عندئذ أن نعرّف العروبة كثقافة الشرق الوحيدة ، وأن نشرع في إبراز أنوار هذه الثقافة بإعادة النظر فيما كانوا قد علمونا إياه تحت عنوان « الشرق واليونان » .

ولن نصل إلى ذلك إلاَّ بشرط إبعاد النظرة غير المناسبة والجزئية للشرق التي تلقيناها عن أساتذتنا ، وذلك بالتأكيد أولاً على ما يعود للإسلام وعلى ما لا يعود إليه . فإذا ما كانت سياسة الإسلام قد جعلت السلطات مركزية ، فإنها لم توحد القوميات ، فهذه هي الوحدة القومية والأرضية التي أفاد منها الاسكندر قبل عهد الخلفاء ، والتي ورثها الإسلام في العهود التالية . إن سياسة الإسلام لم تعد المجتمع العربي : فهذا المجتمع قد رفعه إلى أعلى درجات الحضارة ، الأجداد الفراعنة أو البابليون . إن الإسلام وقد خرج من الصحراء لم يعد إلى الصحراء بل توجه إلى الجماهير الكبيرة ، في لغتها وعقليتها ، وفي مدنها البحرية والنهرية . لأن الدين الموحى إلى النبي كان متلائماً مع فهمهم ، ذلك أنه ليس بدعة ولا ثورة ، إنه يكمل بصورة بسيطة التراثات والكتابات السابقة ، وإن عقليات الشرق المركبة المتنوعة ظاهرياً ، قد كانت واحدة في جوهرها ، الذي يلخصها في إيمان واحد حول وحدانية الله . فالقرآن لا يضيف ، بل يجمع ، والقرآن لا يناقش ، بل يقرر ، إنه لا يفرق ، بل يجمع . إنه ليس ديناً جديداً بالمعنى الأكيد للكلمة . إنه يقرر الخضوع لله

الخالد الأزلي ، الحاضر في الماضي كما هو في المستقبل ، الواحد ، الثابت ، الدائم ، غير المخلوق ، الموجود في كل مكان من الكون . وليس هذا بالتأكيد مفهوماً مولوداً في صدى ، في زاوية صحراء ، ولكن من زبدة تأمل منقول من عصر إلى عصر خلال سهول النيولوتيك ، الكنعانية وما بين النهرية ، وفيه نجد تكوين المخلوقات الكنعاني ، والبعث المصري أو المسيحي ، والأمل في رؤية مستقبيلة ، كانت قد سمعت من عالم مجهول ، قبل أن تنطلق من فم القديس يوحنا .

إن الإسلام لم يفاجىء أبداً شعوب الشرق ، بل أنار من حولها ، ما هو متغاير متميز . ولم يكن هناك حاجة لسيف ولا لاضطهاد من أجل أن تعتنق هذه الشعوب دين الإسلام . لقد اقتادهم ، إلى الإسلام ، الميل إلى الإيمان المتوارث عن الأجداد . فليس اليهود والنصارى وحدهم ، ولكن المجوس والإغريق وعباد مختلف الآلهة أيضاً قد عرفوا فيه كلمة لم تكن غريبة البتة عنهم . إن المسلمين لم يكونوا بحاجة إلى احتلال الشرق والمتوسط عسكرياً حيث كانوا في وطنهم منذ آماد قديمة . وهم ، بالمقابل ، قد غزوا ثقافياً الغرب الأوربي مدخلين إليه دياناتهم ، وفلسفاتهم ، وذوقهم الجمالي . وإنها لمحاولة واسعة كان حلفاؤها والوسطاء فيها الهيلينية ، وفرعها الاتروسكي ، وهما خميرة المجتمعات الايطالية . وإلى الهيلينية وحدها كان يعزى خلال مدة طويلة من الزمان تشابه الناس الثقافي هذا ، دون أن تؤخذ بعين الاعتبار المعجزة التي يفترضها هذا الادعاء ، ودون الانتباه إلى أن الإغريق لم يكونوا أبداً سوى شرفة وملحق لبناء العرب في الشرق ، ذلك الأمر الذي راح اليونانيون أنفسهم يعترفون به بصورة كاملة . ولكننا بصورة اعتباطية قد كنا يونان أكثر من اليونان . وإنه من الخطورة بمكان أن نتفهم بيركليس وأخيل ، ونحن نجهل قرابتهما الآسيوية . إننا سنخطىء كثيراً في فهمنا للإسلام وللعرب إذا انتزعناهم من جغرافيتهم وروحانياتهم التي ينتسبون إليها .

بحار خمسة أنهار خمسة إمبراطوريات خمس

« الزمن ، صورة متحركة لأزلية ثابتة »

أفلاطون

هذه القوميات المسماة خدعة « بالساميات » والتي هي في الحقيقة عربية . . . كيف نظمت سياسياً في المنطقة ؟ إننا ، لكي نتجنب الخطأ التقليدي والذي يحطم مساحتها الجغرافية ، ليدرسها أقساماً منفصلة بينما هي عناصر جسم واحد ، عناصر تحيا حياة واحدة . . . لكي نتجنب هذا الخطأ سنتابعها في مسيرتها العامة خلال الزمان . إن هذه الأرض الشرقية قد عاشت من خلال ايقاع وحيد النغمة لخمس إمبراطوريات : مصرية ، وبابلية ، ورومانية ، وبيزنطية وخليفية . إننا سنرى كل واحدة من هذه الإمبراطوريات تتنضد لصالح التالية دون أن تتكيف معها أو تتغير فيها البنىٰ الاجتماعية أو الثقافية ، بحيث إنه منذ حكم أول فرعون في الألف الخامس قبل الميلاد حتى سقوط آخر خلافة مروراً بالإسكندر . . . كان الأمر استمراراً لا انقطاع فيه قد تركز في الشرق ، استمراراً للقوى ، استمراراً للفكر ، واستمراراً للاقتصاد . والتغييرات التي حملتها العصور كانت طفيفة إلى حد أنها تبرز لنا كم كان التاريخ في صبره البطيء متناقضاً مع سرعة الأفراد . إن المصريَّ اليوم قديم معاصر لرمسيس ، واليمني رفيق بلقيس ملكة سبأ ، ليسا أقل حداثة من أي تاج في ميناء عدن . إن كل شيء يمضي كما لو أن الزمن لم يكن سوى الصورة المتحركة للأزلية الثابتة . إن الإمبراطوريات الأربع الشرقية لم تكن لتقتصر على الحكم بين ليبيا والبحر الهندي ، بين جسر أوكسن Euxin والصومال ، لقد

مدت نفوذها منذ وقت مبكر تاريخياً على أرض اليونان القارية المشمسة ، على صقلية وإيطاليا الغربية قبل أن تبلغ مضيق جبل طارق . ولأن فلسطين وبحر إيجة قد كانا مفتاحي المجموع ، كانت البحار الخمسة : المتوسط ، والبحر الأسود ، والبحر الأحمر ، والخليج (الفارسي) والمحيط الهندي البحار الأمهات . أما دجلة والفرات والنيل والرون والدانوب فكانت طرق الشتات . ولقد تشكلت حضارتنا عبر العصور في مثلث يشمل البوسفور والنيل وسوس ، عاصمة عيلام ، وكانت شعوبها الشعوب المصرية والكنعانية والأناضولية والسورية والبابلية تنتمي للأسرة العربية نفسها . وليس مهماً أن نعرف من أين أتوا ، فلربما لن نعرف ذلك أبداً ، وعندما نعرف ذلك ، فإننا لن نكون متقدمين في استنتاجاتنا . كذلك يجب أن نضم معها القرم وبحر الخزر .

ولنكبَّ على خريطة الشرق ، ما هي المدن الكبرى التي تظهر أو تختفي من المسرح بتأثير دراما الأحداث التي سيرتفع مصدرها إلى الألف الخامس لعصرنا ؟ . . . إن جهلنا يحرمنا من الصعود أكثر من ذلك . إن أربع عواصم تتلألأ بادىء ذي بدء : ممفيس ، وصور ، وبابل وسوس . ثم تعقبها ست أخرى : الإسكندرية وقرطاجة وروما وإنطاكية وسلوقية . ويلتمع اسم العاصمة الأخيرة الوحيدة : بغداد كما لو أن بغداد كانت اتصالاً وتفتحاً لثقافة لم تجر معها في سيرها أثينا وقرطاجة وسيراقسطة ، وقومس Cumes ، والتي بقيت فيها الأماكن السامية هي مصر وما بين النهرين . ما خلا هذه المدن حسنة الذكر ، تبقى سائر مدن خارطة الشرق مغمورة في الظلام . إننا لن نلحظ فيها مدينة تيماء الحجاز الشمالية ، ولا مأرب اليمن التي تبرهن مع ذلك على وجود جماعات ثقافية بين سكان الصحراء العربية وبين المدن الثرية النهرية ، بين « سامي الجنوب وسامي الشمال » كما يقول علماؤنا الذين يخشون التلفظ بكلمة عربي . إننا لا نلحظ فيها خوبتاتانو التي عاشت ثورة اخناتون الدينية ، ولا امانوفيس الرابع ، ولا نهر ميليس الذي كان شاطئه يضم قبر أورفيه ، وبيت

لحم ، وأسوس في تراقيا حيث تربى وتعلم أرسطو ، مما يثبت أن مدينة ما أو منطقة ما قد تكون مجهولة من الآثاريين ومن العلماء دون أن تكون مجهولة من التاريخ . على أن هناك مدينتين تظهران علامتين بارزتين ، مهما كانت شهرتهما متواضعة ، ولا تشغلان مع ذلك مكانة أقل شهرة في تاريخ الشرق لأنهما تحددان حركة المجموع وخطوط القوة . هاتان المدينتان هما غزة على الشاطىء الفلسطيني ، وكركميش في حوض الفرات الأعلى . وقد كانتا نقطتي التقاء تجاري وثقافي ، كما كانتا بالطبع مسرحي معارك .

إن كلتيهما قد كانت مرحلة على الطريقين العالميين للعصر . كانت الأولى تملك مفاتيح العاصمتين المصريتين ممفيس وطيبة لوصل خليج العقبة ، هذا الطريق الذي يستعير مجرى النيل والبحر الأحمر لينقل المحصولات السودانية والغربية الافريقية ، مستفيداً من اليمن ومن مستودعات الحجاز ، متجهاً من الجنوب إلى الشمال باتجاه مدن البحر المتوسط ، ثم يتجه بعد هذا نحو نينوى محاذياً مجرى الفرات لكي يهبط ، من ثم ، إلى بابل . وفرع آخر من فروع هذا الطريق يتجه بالطريق الأرضي نحو البحر الأسود . ولم ينقطع الفراعنة عن السهر على أمن طريق مجرى الفرات الأعلى هذا الذي كان يفضي إلى كركميش ، لذلك أرسلت حملات عسكرية متواصلة لكي تقيم في فلسطين وسوريا نظام جماية استمرت طويلاً . ولكن هناك طريقاً آخر ، إنه طريق آسيوي ، كان هدفه مدينة بابل . إنه ينقل محاصيل الهند وما جاورها في طريق يتجه من الشرق إلى الغرب في اتجاهين متوازيين ، ماراً بعمأن في طريقه ، ومجتازاً مضيق هرمز ، ومحاذياً الخليج العربي . ثم ماضياً صعداً إلى ميتاني ، فسيسليا وكابا دوس ، وفيرجيا حتى يبلغ سارده ، عاصمة آسيا الصغرى ، ومن هناك يمضي إلى بيرغام وأزمير وأفسس ، وميله ، حيث يكثر أصحاب المراكب والتجار اليونانيون . إن هذه الطريق الثانية تمر بكركميش أيضاً حيث تلتقي الإمبراطوريتان المصرية والبابلية ، الافريقية والأسيوية ، تتوازنان عندما

تكون القوى متساوية ، وتقتتلان في حالة انحدار إحداهما أو ضعفها .

إن حوض الفرات الأعلى كان مع كركميش نقطتي التقاء استراتيجي متنازع عليهما في العهود القديمة . وإنه لإغراء لأهل الأناضول ، المالكين الطبيعيين لنقطة اللقاء هذه بأن يقيموا بدورهم إمبراطورية في هذه المنطقة : إنها ستكون الإمبراطورية الحثية الكبرى أو الميتانية التي ، تختصم أو تتعاون حيناً مع مصر ، وحيناً آخر مع الآشوريين ـ البابليين ، وستعرف أيضاً مصيراً متألقاً وإن لم يكن مستمراً ومعادلاً لدوام منافسيها .

وهكذا وجد تياران من المبادلات المستمرة سيشملان ثلاث قارات ، إبان ثلاثة آلاف من السنين على الأقل (وربما أكثر من ذلك) : إنها قارات آسيا وأوربا وأفريقيا . فعن طريق بابل وآسيا الصغرى سيغذى العالم الإغريقي الإيجي بالثقافة المستوردة من كلدان والهند . وعن طريق النيل وفلسطين ، ستتلقى شبه الجزيرة الهيلينية المنتجات الافريقية والأثيوبية واليمنية . وبالمقابل سيرحل المسافرون والتجار اليونانيون أو الآخرون مع ثقافاتهم ، ولغتهم ، وبضائعهم إلى أقطار بعيدة كأنغولا أو سيلان . إن زهونا ، منذ أفكار بول فاليري المتملقة ، لم ينقطع عن النمو ؛ إننا نعتقد أن حدود العالم قد تقاربت لأننا نتنقل ونسافر بسرعة أكبر ، فنحن نملك الشعور الخاطىء أن العالم القديم كان ساكناً ، متقوقعاً في نظر قروي يجهل الشعوب المجاورة بينما الأمر على العكس من ذلك ، إذ أن مما لا يمكن إنكاره أن تعدد الحدود القومية ، وتصلب العادات ، وضعف التميز والعلاقات التي يفرضها وجودنا اليومي جعل ذلك الإنسان أكثر لزوماً لبيته وأكثر خوفاً من الآخرين .

إن تنقل الإنسان الأكبر سرعة ، والأكثر سهولة مما كان عليه في الماضي لا ينظم شيئاً ولا يصلحه ، إن ذلك يعني أنه يوجد منذ الآن استعداد أقل من أجل الاهتمام بالقطر الذي يزوره . إن ظروف إقامته نفسها ، وتنقله تعزله أكثر من الآخرين . فنحن نسافر داخل قفص مصنوع عمداً لنا ، لا نخرج منه إلاَّ

عندما نعود إلىٰ منزلنا . أيمكن أن نسمي سفراً ورحلة هذا النوع من تغيير المكان ؟ في العالم القديم كان الانتقال إنما يتم عن طريق قبائل كاملة ، أو أمم أو أسر ، للاستقرار في مكان آخر ، إنه انتقال مستمر .

إن كتب تاريخ مصر وبابل وفينيقيا والأناضول ، واليونان ، مملوءة بالهجرات والاستعمار ، والرحيل ، والوصول . إنهم كانوا يتحركون كثيراً في ذلك العصر القديم . كأننا نريد من هؤلاء الناس في الحجاز وحضرموت وصنعاء ومكة والمدينة ، أن يبقوا أناساً بسطاء تعساء مشاهدين منفعلين ، بينما كان يتم من الشمال إلىٰ الجنوب ، ومن الشرق إلىٰ الغرب ، هذا التحرك العجيب المناسب الذي نعرفه ، للأرزاق ، وللمعادن الثمينة ، وللسفن ، وللأفكار ، وللعقائد ، وللآلهة . إن هذه الأشياء كانت تنتقل مع حركات الآخرين ، الذين لا يجهلون شيئاً مما يجري في سارده وسنوس أو نينوىٰ أو الكرنك أو أثينا ، متقاسمين معاً ومن أجل الجميع القدر المحتم ، كما حدث أو كما يحدث دائماً في عواصم الزمان الواحد الكبرىٰ .

وهذا هو السبب الذي من أجله لا تستطيع دراسة تاريخية في صور ثابتة لهذا القطر أو ذاك أن توفيه حقه من الدراسة الشخصية ، لأن هذه الشخصية إنما تكون في مضمون الحياة ، في السلوك والحركة التي يتحملها هذا القطر أو ما تحمله إليه . إن رؤية التاريخ علىٰ شكل آخر ، غير الإسقاط السينمائي ، تعود علينا بإيقاف الدم أو تؤدي إلىٰ الحد من جريانه .

وإذا ما وضعنا ، مختارين ، حدوداً بين إمبراطوريات مصر وميتاني والحثيين والبابليين ، فإن تمثيل الشرق كذلك لم يكن البتة بغرض التبسيط ، ولكن لأنه منذ عهد مبكر قد امَّحَتْ ممالك ميديا والفرس الشديدة التمركز ، لكي تقوم ، لحاجة الفتح إمبراطوريات قريبة من شاطئ المتوسط . إن الضغط باتجاه البحر قد كان القانون المستمر لتطور الشرق الأدنىٰ . وكما كان ترك سوس لصالح بابل ، فإن العاصمة المصرية انتهت بالاستقرار في الاسكندرية ،

واستقرت قرب البحر في بيزانطة القوة الليدية ، أما إمارة سلوقية السورية ، فقد انتقلت نحو تدمر ودمشق . ومشت ليديا وفارس منذ عهد مبكر نحو مغرب الشمس ، نحو أقاربهما وجيرانهما . وكما اكتشف منذ الألف الثالث قبل الميلاد ، الخزف ، والسكن في الصخر المحفور ، والتماثيل ، كان التشابه مؤكداً بين الناس في وادي السند (أي أناس هارابا ، وعمري ، ورببار) والناس في سومر وسوس .

إن الأبنية في سطوح باساركاد ، وبيرسيبوليس ، ومعبد سليمان كانت من طراز بابلي . والتماثيل العملاقة التي تقف حارسة قصور فارس الملكية تقلد الفن الحثي أو الآشوري . والتزيين بالقرميد المزين بالمينا لأبنية سوس الأخمينية ، تذكر بأسودها ، وعقبانها ، ووحوشها ، تصاوير عشتار البابلية . والذي يكفي إذاً لتبيان أن الحدود المشهورة التي وضعها بعضهم للفصل بين الفرس ـ الآريين ، والعرب ـ الساميين ، لا يمكن أن تقف على قدميها أمام هذه الأمثلة . كذلك لا تثبت اليوم تحت أنظارنا مقالة سلطات طهران التي تدعي أن إيران هي منذ عصور قديمة أصلاً مختلفة عن العراق عرقياً ، وعقلياً ، وتقاليدَ . إن مثل هذه الأقوال يمكن أن تحمل معنىً من الوجهة الديبلوماسية ، أما من الوجهة التاريخية فليس لها معنىً البتة . فمنذ أول ملك ميديّ معروف باسم سياكسار الأكبر ، وحتىٰ آخر ملك فارسي ، هو داريوس الذي غلبه الإسكندر ، كانت البلاد الهندية الإيرانية تسودها علاقات مع بابل ومصر والإغريق ، علاقات لم تكن الحروب الميدية فيها إلاّ حادثة عارضة . ألم يصنف داريوس ، حول السنة ٥٠٠ قبل الميلاد ، بالآرامية ، القانون المصري ليكون قانوناً يعتمد للتطبيق في جميع أنحاء الامبراطورية ؟ وكما أخذت الجيوش الفارسية طريق غزة وكركميش ، سنرىٰ الاسكندر يقلدها هو وورثته ، وسلك الأباطرة البيزنطيون والخلفاء العرب المسلمون ، الطريق نفسها . إن التاريخ يشبه النجوم ، ومحتّمٌ عليه قطع مسافة ثابتة .

وعندما التحق الكولونيل لورنس في شباط من عام ١٩١١ ببعثة التنقيبات التي باشرت عملها في كركميش بعد اتفاق معقود بين العثمانيين والحكومة البريطانية ، أخذ يفتش هناك ، بإصرار عن آثار العرب ، لأنه كان مقتنعاً أن هذه الكلمة تخفي حقيقة أخرىٰ ، غير تلك الحقيقة التعِسة التي علموه إياها في أوكسفورد . لأن اللقىٰ المكتشفة في كركميش ، نقطة تقاطع التأثيرات المصرية ـ المتوسطية والتيارات الهندية البابلية ، تتشابه تشابهاً دقيقاً مع اللقىٰ التي عثر عليها في غزة ، وتيماء الحجاز ، ومأرب والبحرين ، فالسبب إذاً مفهوم في استحالة التمييز بين عدة ثقافات ، أو بالأحرىٰ التفتيش عن توزيع جغرافي ، لشعوب اسمها نفسه موضوع ضمان .

إن الجزم بسعة التأثير المصري في العالم القديم يغدو عملاً فوق قدرة البشر ، ولا يجازف إنسان في الإقدام عليه ، ما دام قد أعطىٰ حجتنا الناقصة ، والسكوت يغطي هنا وهناك عصوراً كاملة ، أو يشمل مناطق واسعة كمقدونيا والقرم والهضبة الأناضولية ، وافريقيا الغربية أو الشرقية . إننا لا نملك بالتأكيد أية فكرة حول السيطرة الاقتصادية والعقلية التي مارستها باستمرار عواصم كممفيس وطيبة والعمارنة . ذلك أن خيالنا تعوزه نقاط اهتداء . فنحن نعرف علىٰ الأقل أن السياسة باتجاه آسيا حيث اشتهر تحوتمس الثالث ورمسيس الثاني قد بدأت منذ منتصف الألف الثالث قبل الميلاد ، حول السنة ٢٦٠٠ تقريباً ، ونحن نعرف أن الغزوات في البحر الهندي قد كشفتها لنا تصاوير جدارية في معبد الملكة حتشبسوت من الأسرة الثامنة عشرة ، وأن الحضارة الكريتية والقبرصية كانت من وحي مصري ـ كنعاني ، وأن ازدهار فينيقيا قد بلغ أوجه بين القرنين السابع عشر والخامس عشر قبل الميلاد . بينما كان أسطول صيدا يتحرر من سلطة الفراعنة . إن (اليونان) التاريخية كما تظهر لنا في ضوء أدبها ، تولد مع الفرعون بشماميتيك الذي فتح في منتصف القرن السابع قبل الميلاد ، موانئه للبحارة الهيلينيين ، ولقد صنف أول القانونئين الأوروبيين

العظام ، صولون ، حول العام ٥٩٠ دستور أثينا ؛ صولون هذا كان قد تخرج من مدارس مصر . إن أكثر النصوص غنىٰ بالقدرة العالمية لمصر منقوش علىٰ نصب الكرنك الذي كان الفرعون تحوتمس الثالث قد أقامه تمجيداً لانتصاراته التي تمت إبان سنوات عديدة علىٰ طريق غزة ومجدو وقادش وكركميش والفرات ، بين سنتي ١٤٨٠ و١٤٧٥ قبل الميلاد . ولقد كانت حمايته المفروضة عند ذاك مسلماً بها . إن الإله يعلن له « أنه قد عين له ، بموجب مرسوم ، الأرض طولاً وعرضاً . . . وأنه قد أتاه ، وأعطاه أمراً بأن يسحق أرض الغرب ، بحيث ترتعد كافيتي وقبرص خوفاً منه . . . لقد أتاه وأعطاه أمراً بأن يسحق جميع هؤلاء الذين يتصرفون خطأ ، بحيث تغدو الأرض تحت ميتاني مهتزة فرقاً وذعراً . . لقد أتاه وأعطاه أمراً بسحق هؤلاء الذين يعيشون في جزرهم ولا يخضعون له . . . لقد أتاه وأعطاه أمراً بأن يسحق أقوام تيهونو ، وأقوام هيرو شايتو ، والبداة ، والنوبيين ، حتىٰ بلاد بونة . . . » وبين الأسماء المنقوشة علىٰ النصب كان بعض المؤرخين قد اعتقدوا بتمييز اليونانيين ، والليبيين وشعوب البحر المتوسط الغربي بحيث إننا لا نستطيع أن ننفي أن الامبراطورية المصرية كانت تمارس ، في منتصف الألف الثاني قبل الميلاد ، سلطتها علىٰ هؤلاء الذين سيسميهم هوميروس ، فيما بعد ، الآخيين . وإنه لحادث يهز الملك الأسطوري الذي أنشأه أرغوس ويعطي واحداً يسمىٰ « داناؤس » الموصوف بأنه ملك مصر ، وسيكون بين ورثته وريث يسمىٰ « أغاممنون » وهو نفسه الذي سيغدو بطل طروادة التعس . لقد عمل معاصرو هيرودوت من اليونانيين من طوطموزيس الثالث مركز واحدة من أساطيرهم التي لا نظير لها ، فعلىٰ التمثالين الضخمين اللذين كانا يحرسان المعبد الذي شاده الفرعون قرب غورناح ، رأوا صورة تمثل ممنون ، ابن الفجر ، وأخابريام ملك طروادة ، حاكماً علىٰ الأثيوبيين . لقد كانوا يعتقدون أن مدينة سوس الفارسية مكرسة لممنون ، ذلك الذي جعلته الرواية يولد حيناً

في سورية ، وحيناً في الأناضول أو في مصر العليا . إنه بطل عربي متميز ، فله قبره على ضفة الدردنيل الآسيوية ، وهو البطل الذي تقول الرواية نفسها أن سحباً من الطيور متجسدة في صور رفاقه ، كانت تأتي كل عام وتجتمع في فريقين متعاديين ينتهيان متذابحين . أن تفرض أسطورة نفسها علىٰ أطراف العالم المتحضر الأربعة ، في سوس ، وفي طيبة ، واليونان والدردنيل ، يعطي ذلك مقياساً للالتحام الثقافي للعصر وللتألّق الذي لا يناقش لمصر الفرعونية في آن . ولكن ما إن استعاد الفرعونان سيتي الأول ورمسيس الثاني من الأسرة التاسعة عشرة بوساطة جيشيهما طريق غزة وقادش ، حتى كان توازن القوىٰ قد تبدل ، فلقد أقيمت شمالي كركميش أمبراطورية خطي (الميتانية الحثية) التي ستعارضهم بمقاومة جديرة بالتقدير . وعلىٰ الرغم من النصر الذي أحرزه رمسيس الثاني فإنه اضطر إلىٰ أن يوقع مع الأمير الحثي خاطوسارو معاهدة تحالف ، أكدها زواج الفرعون من ابنة الأمير الكبرىٰ المسماة لهذه المناسبة ملكة بالاسم الطقسي (اوريما اونو نيروري) الذي يعني (التي تتأمل الشمس في أبهىٰ حللها الجميلة) .

أما انتصار قادش الثاني فقد مجدته قصيدة ملحمية فخمة سميت (بانتادري) ، ومنها نستفيد أنه كان يقاتل ، إلىٰ جانب الحثيين « رؤساء آراد وليسيا ، وايليون ، والدردانيون ، وكركميش . . . » ايليون والطرواديون أو الدردانيون ، وهكذا تظهر أمام أعيننا الدلائل التي لا تدحض لحرب طروادة ، مع كل المخطوطات العربية التي كانت تمر تحت ستار الصمت من قبل مؤرخينا الكلاسيكيين . وعلىٰ كل فإن مصر بقيت سيدة سيناء وشبه الجزيرة العربية ، من الأراضي الأردنية أو شاطئ غزة الفلسطيني حتىٰ منابع العاصي . ولقد حدث ذلك علىٰ الرغم من عدة غزوات ، فمنذ موت رمسيس الثاني وارتقاء ابنه الثالث عشر منفتاح ، هاجم ملك ليبيا مارادي الذي كان يحكم منطقة تمتد من الفيوم إلىٰ ضفاف ميرت ، هاجم مصر واحتل قسماً من الدلتا ، ومما يثير

الدهشة أنه كان في جيشه آخيون ، وصقليون ، وليسيون ، وهم شعوب غريبة تحمل الأسماء نفسها التي كان يحملها الذين اشتركوا في معركة قادش ، مما يدفع إلىٰ الاقتناع بأنه ليست الجغرافية ضرورية لإعطاء شعب اسمه وحقيقته ، إلاً إذا كانت هناك مستعمرات آسيوية متعددة في المتوسط الغربي ، وهي مستعمرات شكلت جزءاً من الآخيين . ولم يتوصل أحد حتىٰ الآن إلىٰ إعطاء اسم جيش الملك مارادي المسمىٰ الجيش الليبي . ولقد تفرق الجيش الليبي بعد اندحاره . إن النصب التذكاري الذي حفر حول العام ١٢٢٩ قبل الميلاد في طيبة تمجيداً لمنفتاح ، قد جعل من الاندحار الليبي ، اندحاراً آسيوياً ، وهو أمر يُتساءل عن تفسيره ، فالنص في الحقيقة كان كما يلي : « منذ أن سُحِقَ الليبيون ، لم يستطع أحد أن يرفع رأسه بين البداة ، فخطي في سلام ، وكنعان أسير في أسوأ حالاته ، ورجل عسقلان فيها جلب في أصفاده ، وغيزير مأسور ، وإسرائيلو قد دمرت وليس حبة قمح ، أما خارو فتشبه أرملة مصر » ، ولقد اندفع مفسرون بشراهة علىٰ كلمة « إسرائيلو » لكي يتلمسوا فيها الدليل الذي لا يمكن دحضه علىٰ وجود مملكة إسرائيل . والواقع أن معنىٰ الكلمة تُفْلتُ من كل محاولة لتحديد أصولها ، زد على ذلك أَنَّ فيها ما يسميه علماء القواعد الكلمة التي وردت للمرة الوحيدة في نص ، فليس لدينا مثال آخر في مدونة للكتابات . ولنضف إلىٰ ذلك ، أنه بصورة مستمرة ، ومنذ الألف الثاني قبل الميلاد حتىٰ زمن البطالسة ، كانت أرض فلسطين تميز بالتعبير (عمرى ، أو عمورو) . وإنه من المستحيل اليوم ومع التدقيق أن نجد معنىٰ قومياً جغرافياً لكلمة اسرائيلو .

ولقد تبع هذه الغزوة الأولىٰ غزوة ثانية ، أقل أهمية ، تناولت هجرة من الشمال نحو الجنوب حاملة معها أخلاطاً من الناس من أصول كثيرة تسمىٰ (تيرسين ، وزاكالا وداناؤ ، وبولاستي) وهؤلاء هم فلسطينيو التوراة حسب تفسير علماء المصريات . ويظهر أن الإمبراطورية الحثية قد تفسخت أثناء

مرورهم . ولكن أيعني ذلك حقاً غزوة أم ثورات محلية ؟ إنه افتراض لا داعي له ، أن نرىٰ إقامة عشائر هندية ـ أوروبية في أرض سامية . ولا شيء يجبرنا علىٰ أن نجعل من الفلسطينيين شعوباً مختلفة من الوجهة القومية عن شعوب مصر أو ميتاني ، فهل هم حقاً غرباء إلىٰ هذا الحد ؟ وهل هناك فرق صوتي بين « فينيقيين » و« فلسطينيين » ؟ ألسنا نحن هنا أيضاً الضحايا الراضين بأفكارنا المسبقة التوراتية ؟ وسيشن الفرعون رمسيس الثالث حملة مظفرة ضد هؤلاء الفلسطينيين المفترضين ، وضد « شعوب البحر » حملة تقود ، في حوالي السنة ١١٩٠ ، قواته المصرية إلىٰ نهارينا إلىٰ جوار كركميش ، وتحمل قوائم أسماء الأسرىٰ نفسها التي سجلت في زمن تحوتمس الثالث أو رمسيس الثاني ، وأسماء الرؤساء الذين أسلمهم الفرعون إلىٰ غضب الإله آمون ، أناساً من كركميش وآراد ، والمانو ، والخطي الخ . . . إن استقرار القوة المصرية يتجلىٰ طوال عهد الأسر التالية ، ومن بينها الأسر الهيلينستية والبطلمية . إن العواصم ستنتقل ، دون ريب من طيبة إلىٰ تانيس وبوبتيس ، ومونديس ، دون أن تهمل ممفيس وطيبة في الأراضي العليا . ولا ينقطع الفراعنة الذين هم من أصل ليبي أو أثيوبي عن إثبات سلطانهم وعن مد حمايتهم باتجاه النيل الأعلىٰ وسوريا . ولم تتمتع فلسطين أبداً بسيادة خاصة بها . إننا لم نعثر حتىٰ اليوم علىٰ أثر ، ولا علىٰ أقل إشارة ، تجبرنا علىٰ التحدث عن عاصمة عبرية أو عن ملوك عبريين ولم يسجل في مكان ما اسم داود أو سليمان ، ولم تسجل ، في أي مكان ، الفتوحاتُ الكبرىٰ التي يمجدها العهد القديم . إن الديوان الفرعوني صامت في هذا الصدد ، وهو الذي يحلو له أن يقص أدنىٰ الأحداث السياسية أو العسكرية للمنطقة . وكيف سنرىٰ في العهد القديم شيئاً آخر غير قصيدة تحمل مثل ملحمة طروادة ، بدءاً من المنازعات والمشاجرات المحلية والقروية ، معارضة هذه أو تلك من أقسام القبيلة ، أو هذا أو ذاك من الآلهة ، هذا أو ذاك ممن ملك أرضاً أو سمي « ملكاً » للمناسبة . إن التاريخ لا يعترف

لداود أو سليمان في الحقيقة ، أكثر مما يعترف لآخيل أو أوليس ، ذلك أنه لم يكن لجزيرة ايتاكا التعيسة من الميزة التي تحسب في أنظار قوىٰ ذلك الوقت مثلما يحسب للقدس أو سيشام من ميزات . وإنه لمن السفه أن يحسب حساب الوثائق التوراتية ، المؤلفة باليونانية بعد حوالي ١٣٠٠ ، إلىٰ ١٥٠٠ سنة تلت الأحداث . إنه من الصواب أن تكتب في أيامنا وتستعمل هذه الوثائق من قبل علماء جديين يستمرون في سرد التواريخ الاستقرائية ، وسفر الملوك ، وكتاب صموئيل ، كما لو أننا نعني بهما صوراً فوتوغرافية لرجال وأماكن . إن اليوم الذي يتوقف فيه العهد القديم عن تغذية علمنا التاريخي ، يغدو فيه شرحنا لأمور الشرق محرراً من امبراطورية الأفكار المسبقة .

وبدءاً من السلالتين الحادية والعشرين والثانية والعشرين ، وحوالي العام ٩٠٠ تقريباً ، تكلم علماء المصريات ، المختفين داخل قماش من التأكيدات المتناقضة ، تكلموا في آن واحد عن تخلف ، وتوسع امبراطوري ، وعن أزمات وبخاصة عن دخول مهاجرين آتين من جميع جهات الأفق ، ومنتهين بإغراق مصر في لجج موج عالمي . لقد سجلوا حضوراً عديداً من ماشواشا (باختصار ما) : خليط من المستأجرين والعمال ، والموظفين ، هؤلاء « الناس الآتون من كل مكان » مؤكدين النهضة الإدارية والسياسية للطبقة الأرستقراطية المصرية . إن هذه الفكرة غريبة تماماً عن تسامح الشرق الذي هو مبدأ عالمي . ذلك أنه لم يكن هناك في أي وقت « مصريون أنقياء » كما أنه لم يكن هناك « بابليون أنقياء » . ففي « أنقىٰ » ساعات التاريخ المصري كانت حركة الذهاب والمجيء مستمرة ، وكان المستوطنون في مصر أكثر من المهاجرين منها . ولنعترف دائماً أن أفكار « النقاء » العرقية قد ولدت في أوربا مع عصر الأنوار ، ومع الادعاء العنصري الذي كان يؤكد أنه عالميّ ، وكان في الوقت نفسه يحفر حدوداً قاتلة بين الأعراق والديانات المختلفة . إن التصلب المدرسي مسؤول عن انحراف زائغ في عقليتنا التاريخية . إنها تتحدث مثلاً ،

عن « غزوة » لمصر من قبل الآشوريين حول العام ٦٧٠ قبل الميلاد ، بينما كان يملك في تانيس الأمير تاهاركا من الأسرة الخامسة والعشرين . لقد قرر اسار حادون ، ملك آشور ، الغاضب من الانتفاضات التي تحركها ضده مصر في فلسطين وفي بلاد ما بين النهرين (وهذا ما يبرهن أن مصر لم تفقد أبداً قوتها . .) قرر إذاً أن يدخل وادي النيل ، « بطريق الصحراء دون المرور بالدلتا المأهولة بسكان يدافعون عنها بالطبع » وركض كما قيل واستولىٰ علىٰ ممفيس وأخفق أمام طيبة ثم عاد سريعاً إلىٰ عاصمة ملكه . فهل كانت تلك نزهة أم غزوة ؟ كذلك كانت مغامرة ابنه آشور بانيبال ، الذي دخل مصر سنة ٦٦٦ ، ثم عاد سريعاً . وها هو ذا في سنة ٦٦٤ ، يقوم بالأمر نفسه دون أن يحصل علىٰ نجاح طويل . ولا يصل نبوخذ نصر بعد قرن إلىٰ النيل أبداً . وإذا كان من المؤكد أن قمبيز الفارسي قد أخضع مصر في سنة ٥٢٥ لحماية شكلية فإنه كان يملك في سنة ٣٦٠ الفرعون نيكتانيبو . فهل يمكننا أن نتكلم في مثل هذه الشروط عن « غزوة » ؟

إننا نملك معلومات عما بين النهرين أكثر مما نملك عن مصر ، وذلك بفضل المكتبات السومرية المكتشفة في نينوىٰ أو في أمكنة أخرىٰ من جهة ، وبفضل الراهب بيروز الذي سجل ، بناء علىٰ طلب الملك السلوقي أنطوخيوس الأول التواريخَ السنوية الملكية في القرن الثالث قبل الميلاد . صحيح أننا فقدنا قسماً من هذه التواريخ التي هي من أجل ذلك ملتحمة ، مثل هذه التواريخ التي كتبها الراهب مانيتون عن مصر ، والمكتوبة في نفس الوقت بناء علىٰ عرض من البطالسة . ونلاحظ من دون أن ندخل في التفاصيل ، أو نضيع في ضباب سميراميس الأسطوري أو فينوس ، إلىٰ أي حد كان تاريخا مصر وما بين النهرين متطابقين ، وإلىٰ أية درجة تكون طيبة وبابل قطبي عالم ملتحم . إننا بصدد الكلام عن حضارة أخرىٰ من الحضارات السهلية المتشكلة من الطمي حول أنهار قوية ، في هذه أو تلك من الأقطار الشمالية أو الجنوبية لبلدين انتهيا

بالاتحاد في دولة واحدة ، وفي انقسام مصر إلىٰ مصر الشمالية ومصر الجنوبية المرموز لهما بالعصابة الفرعونية ذات الرمز المزدوج ، تطابق ما بين النهرين الشمالي أو آشور وما بين النهرين في الجنوب أو الكلدان ، المسماة أيضاً ببابل . ولنذكّر أثناء مرورنا بالقرابة الصوتية الأكيدة بين سوريا وآشور ، الذي لا يمكن أن يكون التعبير الثاني إلاّ الأول مسبوقاً بأداة التعريف . لقد كانت نينوىٰ عاصمة الآشوريين وبابل عاصمة الكلدانيين . لقد حكمت كل واحدة منهما بدورها شعوباً مزودة بقانون ، وعادات ، وثقافة ، وهي متحدة ذاتياً ، فاحتفظت أرض بابل الواطئة إلىٰ جانب هذا الفرق بميزة كهنوتية ومقدسة أوضح من الأراضي العالية الآشورية . إنه من الصحيح أيضاً في عراق اليوم ، ولأن مدينتي النجف وكربلاء تقعان في جنوبي خرائب بابل القديمة ، إنه من الصحيح أن تحتفظ هاتان المدينتان بمقابر دينية رمزية ، وتستمران في الاحتفاظ بقبور شيعية مسلمة يرتقي أصلها إلىٰ جميع القارات .

ففكرة تقسيم العالم القديم إلى نصفي دائرة فكرة مغرية ، نصفا دائرة يندمجان على خط الطول ذي الأربعين درجة والمتخذ نقطة تقسيم : على اليسار الإمبراطورية المصرية ، وعلى اليمين الإمبراطورية الآشورية البابلية متحدتين بإمبراطورية الحثيين التي لا تدوم طويلاً . وسيكون الإصلاح الأرضي متعادلاً تقريباً ، وكذلك الجموع الإنسانية ، من هذا الطرف أو من الآخر ، فهناك من هذا الطرف أو من ذاك ثقل العصور ، فإذا ما استيقظت مصر حوالي القرن الخامس قبل الميلاد ، سمحت لنا الحفريات المباشرة بها في أوروك بأن نلمس بدقة في الألف الرابع ما نريد ، إنه التاريخ الذي تظهر فيه الإمبراطورية الكلدانية مع الملك الأسطوري صارغون في القرن السادس والعشرين وحمورابي في القرن التاسع عشر . ولكنه مع إمبراطورية آشور الأولى التي استقرت في نينوى بعد وقت قليل من غزوة طوطموزيس الثالث في كركميش ، تلك الغزوة التي تؤكد الصلات مع مصر . . . تبرز سياسة ما بين النهرين

الغربية ، التي كانت مشغولة حتى الآن بأمراء عيلام المقلقين . لأن من المفهوم أن مجرى الفرات هو الذي سيعطي سياسة ما بين النهرين اتجاهها واستمرارها .

إن بلوغ البحر ، وإقامة صلة مع البحارة اليونانيين ـ الفينيقيين لتطوير الصلات التجارية والمالية بين الخليج (الفارسي) والبحر المتوسط أمران لا يستطاع امتلاك أقوى منهما . كان ينبغي لذلك امتلاك ممر يعبر حوض كركميش ، وتأكيد حياد الفينيقيين العطوف ورجال مجرى العاصي معهم . فما دامت مصر متأكدة من حراسة طرق المواصلات وأمنها ، يلتزم أمراء ما بين النهرين معها باتحادٍ مفيد ينضم إليه الحثيون . ولكن ما أن يغيب السلام من نقاط الالتقاء هذه ، بعد انتفاضة وهجرات متفرقة ، حتى يأخذ الآشوريون طريق كركميش ، وقادش وصيدا ، كما كان يفعل مثلهم طوطموزيس الثالث أو رمسيس الثاني ، حوالي العام الألف تقريباً . إنه تمركز جغرافي وسياسي وعسكري يبرر نفسه بصورة متبادلة ، ويمتزج حسب قاعدة لا تتغير مع القرون . فمصر وما بين النهرين كانتا ، وستبقيان ، قوتين متكاملتين أو متعاديتين ، ولكنهما ضروريتان لتوازن الشرق الأدنى الاقتصادي والسياسي .

وتتوافق الغزوات الآشورية مع فترة حكم الإمبراطورية الثانية التي امتدت من سنة ١٠٢٠ إلى ٦٢٥ ، أي ما يقرب من ٤٠٠ عام . وشيئاً فشيئاً ، ورغبة في التأكد من السيطرة على المنافذ المتوسطية من مؤازرة الأساطيل الإيجية والفينيقية التي كانت آنئذ تحت الرقابة الفرعونية . . انتهت هذه الغزوات بالوصول إلى قلب مصر في ثلاث موجات غامضة في السنوات ٦٧١ و٦٦٦ و٦٦٤ ، وذلك دون أن تأخذ هذه الغزوات مظهر الفتوحات لذلك لم تأخذ أقل من إنذار عسكري . وسقطت سوس في الجنوب في سنة ٦٦٠ بين أيدي آشور بانيبال . لقد كانت الإمبراطورية آنذاك في ذروة مجدها . وكانت مدن نمرود وقصر خورسباد الرائع فيها رمزاً لقصر سنحاريب في نينوى ، حيث جمعت

مكتبة الخط السومري المشهورة التي لم تكن تضم أقل من ثلاثين ألف من الرُقُم المشوية مشكلة كنزاً إنسانياً مجموعاً اليوم في المتحف البريطاني . إن اسمي سارغون الثاني ساردانابال المعتبر واحداً من أكبر فاتحي التاريخ، وأسارحادون يشخصان هذه الفترة المتلألئة . ولقد سجل في كتابات حثية أن الملك سنحاريب كان يدعى رسمياً « سيد الآشوريين والعرب » .

أما الإمبراطورية الكلدانية الثانية التي ورثت من سنة ٦٢٥ ، إلى سنة ٥٣٣ قوة نينوى ، فقد أعادت الصلة مع تألق الإمبراطورية الأولى (إمبراطورية حمورابي المزدهر حول العام ١٣٦٠) وتلألأت مع اسم نبوخذ نُصر فاتح مصر هو أيضاً ، والإمارات الكنعانية وصور . ولقد أصبحت بابل في عهده رائعة جديرة بمجد لم يوفره لها الازدهار ، جديرة بتلقي سيدها الجديد قورش الذي سيستولي عليها ليجعلها إحدى عواصمه . إنه قورش مؤسس الأسرة الأخمينية والإمبراطورية الفارسية ، الذي لم يكن يملك الرغبة في عدم تدمير الإمبراطورية البابلية فحسب ، بل كان يرغب ، على العكس من ذلك ، في استيعابها وفي استيعاب جميع حقوقها الاقتصادية والسياسية . وسيأخذ منذ اليوم في الإبقاء على الطريق الهندي ـ المتوسط ملكياً ، وسيصبح منذ ذلك الحين رفيق المصريين والكنعانيين ، والأناضوليين ويونانيي إيجه أو الأرض الصلبة . ويقف آخذاً بمنافع صارغون وآشور بانيبال ونبوخذ نصر ، موقفهم ، ولكن مع قوة مكتسبة من الامتلاك ، ومن مصادر الأرض الهندية ـ الإيرانية . ولأن الأسرة الأخمينية كانت أغنى من جاراتها الغربيات بالرجال والخيل ، فإنها استطاعت أن تصل إلى تحقيق ما لم يتوصل إلى تحقيقه الفراعنة ولا الآشوريون البابليون : ألا وهو توحيد القوى المصرية والأناضولية والفارسية والرافدية في إمبراطورية واحدة .

وهكذا سقطت بابل وممفيس في آن ، الأولى في سنة ٣٣٥ والثانية في سنة ٥٢٥ ، سقطتا تحت حكم قمبيز ابن قورش . وأصبحت ساردة عاصمة

الإمبراطورية الأناضولية مملكة ليديا مع ملوكها جيجيز ، وآرديس ، وساديان ، وآليات ، أما كريزيس فقد احتلت بدءاً من عام ٥٤٦ . والصحيح أنه كان هناك سيادة اسمية وإدارية لم تغير شيئاً من حياة السكان وعاداتهم وتركت تبدل الممالك المحلية مقتصراً على إخلاصها الإمبراطوري . وإذا كانت مصر بصورة خاصة قد احتفظت بملوكها من الفراعنة ، فإن هؤلاء الآخرين لم يكونوا يتلاءمون مع لقبهم « أباطرة الشرق والغرب » ، بل كحكام إقطاعيين لبابل وبرسيبوليس . وإذا كان قورش وعائلته قد مدوا بسهولة سلطاتهم الملكية على أراض واسعة ، فإن ذلك يبرهن مرة أخرى ، كم كان التنظيم الديني ، والقانوني ، والاجتماعي متجانساً في كل مكان . بحيث إن الشعوب لم تكن تحس أبداً ببدء أسرة جديدة ، كحكم غير محتمل في تدخله في شؤونهم . فلتأتهم الأوامر الحكومية من ممفيس أو صور أو بيرسيبوليس ، لقد كانوا يعبرون عما في نفوسهم باللغة نفسها ، ويعبدون الآلهة نفسها ، ويحكمهم موظفون من المقاطعات نفسها . فليس هناك نقطة ما في الأرض يمكن أن تفلت من الإدارة ، أو من ثقافة ملقحة لا تؤثر في أكثرية سكان الإمبراطورية منذ آلاف السنين . وعلى هذه الثقافة كان مختلف الحكام يستندون أكثر من استنادهم على الجنود من أجل تركيز سلطتهم من حدود ما بين النهرين حتى الهند ، ومن أرمينيا إلى الحدود الأثيوبية . إن الأمر الأساسي هو عدم التعدي على الإرث الثقافي ، لأن السياسة كانت تكتفي بإثارة الديوان مظهرة الاحترام للسكان .

ولم يغير وصول الأخمينيين إلى عرش بابل من وجه المجتمع الشرقي . وإننا نعني بكلمة (الشرقي) أيضاً المجتمع الهيليني ، الذي يتمثل منذ وقت مبكر الثقافة المصرية وما بين النهرين .

نحن إذاً في العام ٥٣٣ ، والأراضي القديمة من النيل إلى الفرات موحدة تحت ظل واحد . وتنتقل هذه الأراضي نفسها ، إلى الحكم اليوناني بعد

قرنين ، منذ اليوم الذي نزل فيه الإسكندر على شاطىء طروادة في سنة ٣٣٤ بالتأكيد ، ولقد آن الأوان لكي نبين لماذا مر هذا العبور دون اصطدام ، ولماذا كانت الثقافة واللغة والسياسة والإدارة الاغريقية ، منذ زمن بعيد آسيوية حتى الأعماق ، أي « سامية » ، وذلك لكي نستعمل هذا التعبير الجديد على طراز العصر ، ذلك أن العروبة قد أشربت الهيلينية منذ الزمن القديم القديم .

ذلك أن ثقافة ما قبل الطوفان الضخمة لممفيس أو أوروك ، أو اليونانية هي شابة جداً ، لأنها لن تظهر تحت الملامح نفسها التي سنتعرفها ، قبل القرن السابع . وإن أقدم الكتابات المنقوشة الإغريقية على الحجر أو على حجر مشوي لا ترجع إلى أبعد من ذلك ، وهذه المنقوشة على تمثال أبي سمبل الضخم تعود مثلاً إلى عهد بساميتيك الثاني الذي عاش في القرن السادس . إننا لا نملك مثلاً أي أثر كتابي من عهد هوميروس ، بينما كانت مصر وبابل تملكان منذ عهد بعيد ، ألفباءهما . إن أقدم كتاب في العالم ، هو من البابيروس المحفوظ في المكتبة الوطنية بباريس قد أنشىء حول العام ٢٠٠٠ قبل الميلاد ، تحت حكم الأسرة الثانية عشرة ، بينما توجد الأعباء الحكومية ، من عهد الأسرة السادسة فقط . إن الثقافة اليونانية ، في الحق قديمة . وهي معروضة في آسيا الصغرى ، وعلى طول الساحل المصري الفلسطيني منذ عهد بعيد ، مندمجة في الثقافة الآرامية . إننا نملك تحالفاً استراتيجياً وثقافياً بين اليونانيين الإيجيين وأبناء فلسطين منذ القرن التاسع قبل الميلاد ، أي منذ حلول المحاربين الفلسطينيين الذي اتفق مع تحلل القوة الحثية ، وسترى حرب طروادة قتالاً يشترك فيه معاً اليونانيون والكنعانيون ضد العاصمة الحثية . وسنجد هذا التحالف في القرن السابع كبيراً بالليديين في الحروب التي قامت ضد المحتلّين السيجيرين الآتين من تراقيا من البحر الأحمر . إن ازدهار مدن ايليا وايونيا وأزمير وافسس وميليا وهاليكارناس الإغريقية معزو إلى مشاركتها الإمبراطوريتين المصرية والبابلية أكثر مما هو معزو إلى الحماية العطوف لملوك

الأناضول . وكانت تعرض في معبد دلفى أيضاً أمام أعين معاصري بركليس كنوز الذهب الضخمة التي أهداها إلى الآلهة جيجيز وكرويزس ملكاً ليديا الباذخان ، وهي الهدايا التي سحر بها الأدب اليوناني خلال العصور . ونجد اليونانيين هؤلاء كثيري العدد في مصر الذين يختلطون بمهاجري ماشوواشا القرن العاشر ، نجدهم مذكورين منذ القرن الخامس عشر ، في حوليات طوطموزيس الثالث . إنهم معترف بهم رسمياً في منتصف القرن السابع قبل الميلاد كأصدقاء الفرعون بساميتيك الذي فتح لهم جميع الأبواب الكبرى لمصر والذين لم ينقطعوا عن المشاركة ، في الدفاع عنها بأيديهم المسُلحة ، حتى مجيء الإسكندر . إن اليونانيين المتحالفين مع مصر وليديا ، كانوا كذلك أحلاف الاوترسكيين ، هؤلاء الآخرون ينتسبون ، حسبما روى هيرودوت إلى المنطقة الليدية ، وسيغادرون ، تحت حكم آتيس ابن مانيس المنطقة ليذهبوا إلى إيطاليا بعد استقرار في أزمير وجزر بحر ايجة . وعندما نفكر أن الرومان من جهتهم ، يعلنون أنهم ينتسبون إلى طروادة الأيونية ، فإنه يجب أن نستنتج أن شبه الجزيرة الإيطالية تدين بحضارتها إلى آسيا الصغرى . إن إنشاء قرطاجة في عام ٨٣٣ قبل الميلاد من قبل مستعمرين يونانيين ـ كنعانيين ، أي فلسطينيين قد أكمل إعطاء الطابع العربي للمتوسط الغربي ، وهو الطابع الذي لا يزال موجوداً حتى أيامنا هذه ، لا في افريقيا الشمالية فحسب بل في صقلية ، وحتى في البندقية ، وإذا كانت الكتابات الأوترسكية لم تحل بعد ، فإن لغتهم التي يعبرون بها ذات بنية مطابقة للإغريقية ، كما يشهد بذلك نصب القرن السابع المكتشف في ليمنوس .

ويظهر أن الرومان لم يكونوا يشاركوننا جهلنا بالاوترسكين ، فإن الإمبراطور كلود ، شقيق جورمانيكوس الذي أسره تيبير وجعل منه سجيناً ، قد كان عالماً مشهوراً بالأوترسكيات ، وقد علمتنا كتبه الخمسة والعشرون التي كرسها للأوترسكيين ، تحت عنوان : « تيرينكا » أشياء كثيرة ، ولكن الذي

يؤسف له أن غالبيتها قد فقدت . ولكنه حسب ما جاء في المؤلفات التي صنفتها أكاديمية أوترسك من كورتون والمؤسسة في عام ١٧٢٦ ، يظهر أنه كان هناك صلات وثيقة بين الكلدان وأوترورويا . وهكذا أعطت قارة آسيا ، سيبيل ، الآلهة الأم ، دمها وثقافتها وغناها وفكرها لأولادها من الغربيين . وكانت العواصم الهيلينية تتشرف بأجدادها الآسيويين . وكانت أثينا تعترف باريريكته مؤسساً لها ، وهو الذي أتى من مصر ليدخل إلى أتيكا زراعة القمح ، فأنقذها من المجاعة حتى إن اسم أتيكا عربي ، إنه يعني إما « قديم » عتيق ، أو يعني عندما يكون مثلاً اسم امرأة ، « مملوء شجاعة » . وبفضل الفضة الليدية استقرت الديمقراطية الارستقراطية للالكميونيديين التي اشتهرت ببركليس . أما طيبة فقد أسسها الكنعاني قدموس ، الصيداوي الأصل الذي كان أبوه اجينور ملكاً ، وكانت أم أجينور تدعى ليبيا . ولقد أعطى بيليبوس ، ابن تانتال ، اسمه للبيليبونير ، إنه مولود في الأناضول ، وقد استقر في شبه الجزيرة اليونانية مع جماعة من رفاقه الفريجيين ، الذين تظهر قبورهم في لاقونيا في العصر التاريخي . ثم ألا تصنع رواية من عهد فلافيوس يوسف من الاسبارطيين أقارب الآراميين ، وبين قائمة ملوك أرغوس يذكر أحدهم باسم « عباس » الذي هو اسم عربي ، وكان هذا الأخير شخصية من أغرب شخصيات الأسطورة الإغريقية ، ملكاً على ليبيا قبل أن ينفلت من توبيخ كاهن . وإنها لطويلة ، لا تنتهي ، تلك القائمة من الأبطال التي ذهب الإغريق يفتشون عنها بين النيل والفرات . وليس هناك عملياً أية مدينة يونانية أو صقلية أو إيطالية لا تزدهي وتتزين بمجد جد آسيوي . فيجب أن نرتفع إلى ما هو أبعد من الحقائق الضيقة التي علمونا إياها ، وأن نتجاوز كثيراً أثينا وإسبارطة ، لكي نصل إلى منابع ما نسميه الثقافة الغربية . فالتاريخ لا يتوضع بسهولة ، وإنه ليظهر وكأنه يتبخر على سطح الأراضي الواسعة . ولا توجد أوطان أقل حيوية من أخرى ، وبخاصة إذا كانت المزايا الجغرافية تسمح لها بأن تزدهر بشكل

أكثر تمركزاً وديمومة . وتهمنا بصورة مباشرة من بين الأوطان أرض فلسطين ، وبحـر ايجـة ، الـواقعتـان ضمـن نقطـة الالتقـاء الاستـراتيجـي والثقـافـي للإمبراطوريات الكبرى . لقد ولدت فيهما لغة أعطت أسس قواعد اللغات الأوربية ، وتمازجت فيها أديان عدلت عقليتنا ، وقدمت فناً اتخذ سبيله إليها ونشر نماذجه حتى أبعد أرض غربية ، وقدمت فلسفة بخلفياتها الميتافيزيكية والدينية لولاها لم نكن ما نحن عليه اليوم . ولقد كانت هذه الأوطان نفسها هي التي وجهت إلينا مباشرة أنوارها وظلالها تغذيها باستمرار بالقدرات والخيرات ، وبالتيارات الروحية والسياسية ، وبالعلوم ، وبالعقل ، تغذيها بهذا كله الشعوب العربية والفضاء العربي الكبير ، كما وجدن واستمررن حتى أيامنا هذه في تنظيمهن ، وفي ثقافتهن ، وفي قوتهن السلمية متأكدات من أنهن لم يتحملن أبداً عمليات تحليل أقدم عليها المؤرخون .

فلنتكلم أولاً عن الخط ، ومن المناسب أن نكون حذرين في هذا المضمار . ماذا يعني في الحق مثلاً هذا التعبير « طبعة أصيلة لأعمال هوميروس » لا شيء . فلا يغيبن عن بالنا أبداً أن الثقافة القديمة هي شفهية في الأساس ، وأن التأثير المكتوب يبقى وقفاً على ثلاث طبقات من الناس : الموظفون ومسؤولو الحكومة ، والرهبان ، والكتاب العاملون . إن المراسلة في الحقيقة نظام ليس مستعملاً داخل البلد ، ولكن في الخارج لحمل رسائل لمسافات بعيدة . وهذا يعني أن الخط يستخدم أيضاً في الاتصالات العالمية أكثر من استعماله في الاتصالات بين الأفراد ضمن وطن واحد ومن هنا جاءت الصفة العالمية المأخوذة رأساً بالخط القديم في معارضة الصفة المنطقية أو المحلية للغة المحكية . وهكذا يكون أدب هوميروس ، وتوسيديد ، والانجلليني يتضاعف بكمية كبيرة من اللهجات اليونانية التي لم تكن أبداً مكتوبة كاللهجة المقدونية مثلاً ، والايليرية ، والأكادية والكريتية ، والبامفلية الخ . .

إن الألفباء ، حسب اعتقاد اليونانيين أنفسهم ، تأتي رأساً من الفينيقية ، ويصف هيرودوت فوينيكيكا « أحرف هذه الألفباء » التي يعزو أصلها إلى قدموس الكنعاني الذي نفي من صيدا فذهب ليؤسس مدينة طيبة في ارغوليدا . ويجب في الحقيقة أن نعيد إلى نوعين من الخط « عالمين » فرضا على الشرق منذ الألف الثالث قبل الميلاد : المصري والبابلي ، الأول مؤكد بكتابات عديدة ضخمة وببرديات ، والثاني ، المسمى المسماري ، والمعروض بخاصة في المكتبة الواسعة المجموعة في نينوى تلك المكتبة التي جمعها سنحاريب ، ثم بكتابات القصور الحثية في المدن الكنعانية بعلبك أو أوغاريت (رأس شمرا اليوم) ، أو المصرية كرقم تل العمارنة .

والحقيقة ، أنه بينما كانت الهيروغليفية المصرية تستعمل في بابل ، فإن المسمارية كانت مستعملة في مصر ، والخطان يتجاوران في الاستعمال حتى عيلام . إن وجود اللغتين معاً مشار إليه في أكثر الأماكن من قبل علماء العمارة وهما مختلطتان بصورة مبهمة بحيث أنهما انتهتا إلى إعطاء لغة مشتركة . مكتوبة مع إشارات مصرية مبسطة أعطت الآرامية . إن حياتهما قد كانت مع ذلك أكثر طولاً مما يعتقد بصورة عامة . إن الخط المسماري الذي شجع استعماله من قبل سلالة السلوقيين الهيلينستية الذين جددوا المكتبة التقليدية ، قد عاش إلى العهد الأرسوسي على الأقل ، ولقد امتد استعماله في نص مزدوج اللغة حتى اقترب عصر الميلاد ، لأنه اكتشفت نصوص مسمارية متجانسة في سلوقية الدجلة ، وهي عبارة عن كتابات صوتية بالحروف الإغريقية الكبرى مؤرخة منذ السنوات المائة قبل الميلاد ، إن الخط المسماري حسب شكله الهيري (المستعمل من قبل الكهنة المصريين) أو الديموطيقي (المستعمل من قبل المصريين القدامى في حياتهم اليومية) كان معروفاً في عهد قيصر وأوغست .

أما الآرامية التي هي سبيل تنسيق بين اللغتين فلم تتخلص إلاَّ ببطء وإذا

كانت قد تشكلت في صورتها الأثرية في فلسطين حوالي القرن الخامس عشر قبل الميلاد ، فإننا نجد قبل ذلك التاريخ في سارده وكابول وفي أرمينية وفي شبه جزيرة العرب رقماً مسمارية تحمل تعليقات هامشية بالآرامية ، هذا وإن وجود اللغة الآرامية حول القرن الخامس عشر والسادس عشر قبل الميلاد ، وفي ظل حكم الأسرة الثامنة عشرة الفرعونية ، غزير بحيث أنه يصبح أحياناً مستحيلاً التمييز بين حثي أو مصري أو آرامي . وفي أوغاريت القديمة (باللغة الفلسطينية القديمة غوبلو ، أو جبل ، وبالعربية المعاصرة جبيل) التي تباهي بأنها أقدم مدينة في العالم ، والتي تحتوي آثارها على لقى سومرية أو مصرية مدعوة باسم (ميكرونوس) ، يظهر شكل مسماريّ حول القرن الخامس عشر قبل الميلاد ، شكل يتكون من ثلاثين حرفاً من حروف الألفباء (بدلاً من أربعمائة إلى خمسمائة على الأقل) سابقاً في ذلك الألفباء المعاصرة ، وكانت تعرض في فلسطين دائماً ، تقليداً للخط المبسط ، ألفباء ذات عشرين حرفاً ليست مسمارية ، وهي التي كانت مقدمة الألفباء الإغريقية ، والألفباء اللاتينية ، وأخيراً في نهاية المطاف للغتنا الأوربية الأثرية . ويتشكل في العصر ذاته وفي جزيرة كريت خط يقلد خط مصر ، إن الألفباء واللغة الفلسطينيتين تمتحان من أصول وأشكال مصرية بابلية نسختا على هذا المنوال ؛ واللغة اليونانية والآرامية اللتان كان خطهما استثنائياً مدهشاً ، لأنه منذ القرن السابع قبل الميلاد ، غدتا لغة المجموع الآسيوي المحدد بالنيل والهندوس ، والذي يسكن أرضاً عربية . بالتعريف وسيصبح الشرق المتوسطي الآسيوي ، سريعاً ، مزدوج اللغة ، على أن اليونانية كانت مستعملة في الأوساط المثقفة لغة ثانية وبقيت الآرامية اللغة الأولى ، اللغة الأكثر استقراراً لأنها لم تنقطع عن أن تكون محكية ، ومتطورة ، دون شعور إلى اللغة العربية المعاصرة ، كما كان الأمر بالنسبة للاتينية التي تطورت إلى الفرنسية أو الإيطالية . أي أن اللغتين الإغريقية والآرامية المجتمعتين إحداهما إلى الأخرى بشدة ، قد كانتا وسيلة

نقل ثقافية آتية من أعماق العصور ، وحاملة إلى بقية الوارثين كتابي العهد القديم والجديد المزدوجي اللغة ، وإلى الإسلام كذلك . إن ازدواج اللغة قد كان مترسخاً إلى حد أن اللغة الإغريقية ستبقى ، ولمدة طويلة ، اللغة الإدارية للخلفاء المسلمين ، ففي ظل الخلفاء العباسيين أخذت الأسرة الحاكمة البرمكية على عاتقها مهمة تعميم اللغة ، بترجمة الأعمال الإغريقية إلى اللغة العربية ، فلقد كان جعفر بن يحيى وزير هارون الرشيد يستعملها بصورة خاصة ، وكان سهل بن ربّان الطبريّ في ظل المأمون يفتخر بتطويع اللغة اليونانية . ولم يمر ارنست رينان في كتابه عن اللغات « السامية » دون أن يلاحظ الكمية الكبيرة من التعابير اليونانية التي تتضمنها اللغة الكنعانية بصورة متبادلة مع الأخرى . ولقد أسهم الإسكندر وخلفاؤه من بعده في تقوية ازدواجية اللغة هذه ، حتى غدت مفتاح الثقافة العلمية والفكرية للشرق . فقد جهد الأول ملتمساً ترجمة الكتب المقدسة الفارسية إلى الإغريقية والآرامية ، وأمر البطالسة ، بالمثل ، بجمع وكتابة آثار اليهودية الدينية ، وفلسفة المجوس ، والمزدكية الخ . . . في اللغتين . وغدت الإسكندرية عاصمة اللغة المزدوجة اليونانية ـ الآرامية ، تعبيراً عن الموسوعية القديمة . ومن الجدير بالتسجيل ، مثلاً أن ، مكتبة الاسكندرية ـ نقلاً عن بلين القديم (الذي ترك ثلاثين كتاباً في التاريخ الطبيعي) ـ كانت تحتوي ثلاثة ملايين بيت من شعر زرادشت مسجلة بالآرامية . فإذا ما فكرنا أن تعليم زرادشت (حسب أقوال الفلاسفة الإغريق القدماء) يعود إلى الألف السادس قبل الميلاد ، فكيف لا يأخذنا دوار أمام كمية العمل الضخمة التي جمعها مترجمو الإسكندرية ولغويوها . ولقد قام السلوقيون ، من جهتهم ، بما هو أعظم ، وفي الوقت نفسه الذي أمروا فيه بإصلاح معبد بابو في بورسيبا ومعهد مردوخ ، والايزا جيلا في بابل ، فقد أمر انطوخيوس بيروز ، كاهن بعل ، أن ينقل له إلى اليونانية مجموعة أخبار ما بين النهرين التاريخية . وإن ذلك كله يستتبع بالضرورة أن

تكون اللغة الإغريقية في بنيتها ، وعقليتها ، ومفرداتها ، مفهومة كلية ومتقنة متمثلة بين الشعوب الشرقية ، وهو شرط يتطلب ، لكي يكون صحيحاً طريقاً ثانياً في تبادل : أن تكون اللغة اليونانية متمثلة السجية الشرقية . ويلتقي هذان الشرطان ويكمل أحدهما الآخر في الحقيقة . وكيف يمكن أن تجري الأمور على شكل آخر ، وكيف يمكن أن يأخذ شعب من آخر ألفباءه إذا لم يكن يملك من قبل رهافة فكر وثقافة ؟ .

والحقيقة أن القطر الملقب فينيقيا والذي ليس شيئاً آخر سوىٰ إقليم كنعان الذي غدا فيما بعد فلسطين . . . ليس ذلك القطر قبل أثينا بمدة طويلة ، إلاّ وطناً يونانياً عربياً في المقياس الذي تأخذ فيه تعابير « اليونانيين » و« العرب » معاني تعطي الوحدة المبهمة للواحدة مع الأخرىٰ . فاللغة الإغريقية عربية بمقدار ما تكون العربية إغريقية ، في هذا الغرق القريب ، الفرق الملحوظ الذي لا تكون اللغة الإغريقية فيه سوىٰ لغة نقل ، ذلك أن الإرث الثقافي والعلمي والديني الجوهري قد زودنا العرب به . ينبغي إذاً ألا نعكس الأدوار ، وألا نجعل من اليونان ، الذين ليسوا إلاّ ورثة ، آباء أسلافهم الروحيين العرب . نحن نَقِفُ وجهاً لوجه أمام تدمير بنائنا الثقافي الوشيك الوقوع الذي لن تكفي صيغة الاتفاق الحر أبداً لحمايته وحفظه . . . إن ذلك يجب ألا يبعد عنا أن السلام لن يأتي من التأكيد علىٰ إيماننا بالقيم التي هي قيمنا ، ولكن من كون هذا الإيمان حاجة للحقيقة والشرف . وإننا لنطلب ، من أجل ذلك معذرة العلماء الأفاضل ، فسجلات علم اللغة مترعة بالنظريات السريعة ، أكثر من أن تكون مبنية علىٰ أساس قوي . فدراسة لُغة الإغريق ، وتاريخ الإغريق ينبغي أن تتناول مرة ثانية من الجذور . ولا ينبغي أن تحدد خارطة بلاد اليونان في رسم شاطئ البليبونيز الشرقي ، بل يجب أن نقذفها أبعد ، وأبعد ، مضمنين إياها فلسطين ، وفيرجيا ، ومصر ، وسوريا . ويجب ألا نخاف ، خاصة من التكلم عن العرب . وأي هيلينستي لا يأسف لأنه لم يتعرف جيداً تاريخ الشرق العربي

ولغاته من أجل شرح شامل لنصوص هوميروس وأفلاطون واسخيلوس وبيندار ؟ إنهم يؤكدون أن أوربا ليست إلاّ رأساً لآسيا ، وإنه لأكثر دقة أن نقول : إن اليونان ليست إلاّ مقاطعة في آسيا الصغرىٰ . ولأن صحف بلادنا أكثر احتراماً للحقيقة من غالبية العلماء الكبار ، فإنها أدخلت اليونان في منطقة الشرق الأوسط وعهدت بدراسة المشاكل الهيلينستية إلىٰ صحافيين مختصين في أخبار العربْ التاريخية ؟ وإنه لتصرف عاقل وأفضل بكثير من الرؤية الجزئية المحابية للكتب المدرسية .

إن من الأفضل أن نتكلم عن الحضارة الايجية بدلاً من الكلام عن الحضارة اليونانية . فالتأثير الذي مارسه الكنعانيون من صور وصيدا في بحر ايجه ليس له أهمية لغوية فقط ، بل هو يفرض نفسه في جميع المجالات وبخاصة في مجال الدين والأسطورة ، والفلسفة ، والعلم والفن . إن « جزر البحر » ، تمتص عن طريق فلسطين ، الثقافة النيلية ـ الرافدية المزدوجة وعن طريق ازمير وميلة وسارده ، العبيرَ الأناضولي الآتي من خلف البلاد الهندية ـ الفارسية . ومن الطبيعي ألا يستطيع إنسان الادعاء بأنه هو نفسه مؤهل للكشف عن نظرية متكاملة . إن علينا أن نوجز في التحليل برعونة ، التيارات المؤلفة « علىٰ شكل يخترق فيه النور الماء دون أن ينقسم » حسب تعبير دانتي . إن الإغريق يسمون « فوانيك » ، الفينيقيين ، نخبة مجموعة الدب الأصغر ، لأن بحارة صور وصيدا إنما يعتمدون عليها في رحلتهم نحو مستعمرات هرقل . وسيترجم الرومان إلىٰ « بونيكوس » « الحروب البونية » التي لم تكن أبداً شيئاً آخر سوىٰ « الحروب العربية » ، قبل بدء المنازعات التي ستقود أوربا إلىٰ افريقيا الشمالية بعد عشرين قرناً فيما بعد .

ولندخل قبل كل شيء في تعريف ما نريده بكلمة « فينيقيين » . من أين أتوا ؟ لقد هاجروا ، حسب رواياتهم التي أخذها هيرودوت ، من الخليج

الفارسي[1] في القرن الثالث قبل الميلاد ، ليتجهوا نحو البحر الميت نحو المتوسط . ولقد كانت هذه الرواية حية إلىٰ حد أن الإسكندر عند مروره ، لمعاقبة مدينة صور لأنها قاومته ، قد فكر في « إعادة الفينيقيين إلىٰ موطنهم الأول » أي إلىٰ جزر البحرين . ولقد قدمت في المؤتمر الخامس والعشرين للمستشرقين المنعقد في موسكو في سنة ١٩٦٠ ، اكتشافات خاصة عن هذا الأرخبيل تقدم بها عالم آثار دانيمركي . إن اكتشاف بضعة آلاف من القبور قد حدا بالعلماء الذين قاموا بحفريات منذ عشرين سنة إلىٰ التفكير بأن هذه القبور تعود لمدن . فسبع مدن قد اكتشفت ووضعت أمام أعين الناس في رأس الأولياء في مكان لا يبعد كثيراً عن المنامة ، في الغرب ، إن أقدمها يعود بتاريخه إلىٰ الألف الثالث قبل الميلاد . وقد ظهر في جوار قرية باربار مدفن غني بالحلي ، والتماثيل الصغيرة ، وأوان من المرمر ، ومسبح ، ومذابح تضحية . ولقد كان الخزف المكتشف في المنطقة جميلاً جداً . إن المزية الهندية والسومرية للأشياء ، للمواد ولصياغتها مؤكدة محققة ، حتى إن بعضاً من الأختام والتماثيل الصغيرة توحي بتأثيرات مستمدة من بعلبك في فينيقيا . أما الوثائق الكلدانية التاريخية فتقدم في الحقيقة مرافئ غنية لمملكة ديلمون باسم البحرين السومري . وإلىٰ ديلمون هذه سيلجأ البطل جيلجامش في بحثه عن الخلود . وإلىٰ ديلمون سيلجأ ، حسب التوراة السومرية ، زيواردرا ، الناجي الوحيد من الطوفان . وهكذا فإن نوحنا قد ألقىٰ مرساه ، لا علىٰ جبل أرارات ، ولكن علىٰ جبل دوخان (جبل الدخان) الذي ينتصب في منتصف جزيرة المنامة . وترىٰ الرواية في هذا الجبل إقامة سعيدة ، أي شانزيليزية يحكم فيها أبولون سعيداً . إنها مقبرة مقدسة ، جزر البحرين هذه ، التي تُضَم لهذا ، إلىٰ أرض بابل ، التي غدت ملجأ شهداء الشيعة . والغريب أن التشيع

(١) ونحن ندعوه الخليج العربي ، وهو الأصح ، وها هو ذا المؤلف يقدم الدليل علىٰ ذلك في كتابه .

كمذهب يسيطر على سكان البحرين . إن الحفريات لم تبدأ بعد في شبه الجزيرة العربية . ولنراهن عما ستوفره لنا من مفاجآت ستكشف كم كانت مكثفة ، ومتنوعة ، تلك الصلات التي كونت نسيج العروبة منذ عهود مغرقة في القدم .

ففينيقيا لم تظهر ذات يوم من العدم ، جيشاً ، وثقافة ، وعلماً ، أرسلتها نحو مغيب الشمس ، لقد ولدت من ملتقى أنهر عديدة وهي أنهر زادت فيها وعمقت مجراها ، وما دامت قد أصبحت منبعاً هي الأخرى فإنها تشعبت أثناء جريانها إلى فروع ليست قليلة ، جارة معها المجموعة الإغريقية . وفي التعبير الغامض جداً ، وبكثير من العرقية يوجد في كلمة « الفينيقيين » أو « الكنعانيين » التسمية الأكثر دقة والمستندة إلى الجغرافيا ولنتكلم منذ الآن عن الفلسطينيين ، لأن الوحدة الجغرافية توافق الوحدة الثقافية . وما دامت قد سماها البابليون أمارو فإن البلاد التي صورت في الكتابات المصرية تحت اسم : آمو ، وهارو ، وكارو ، وريتينو ، وأيضاً أمورو . إنه هو سنا المحب للخصام الذي بدأ تفريقه شعباً إلى شعوب أقرباء كالمؤابين والمؤدنين أو العموريين ، والكنعانيين ، والآراميين ، والسوريين الخ . . . ولماذا ؟ لأننا نعني بأن نميز فيهم خصوصيات عرقية أو طائفية تجبرنا على أن نضع بينها العبرانيين ، وذلك لكي نقدم الدليل بكل ثمن على صحة العهد القديم . يقال إن جميع العلوم قد تصرفت في جهد وحيد : هو تأكيد القيمة التاريخية للخطوط . وإنه لمن المستحيل بمكان أن نجري فرزاً بين سكان آمورو . سواء من خيث اللغة أم من حيث اللباس ، أو السلاح ، أو الدين ، أم بواسطة الأبنية الأثرية . إن إعادة اسم فلسطين الوحيد إلى هذه الأرض يصبح إذاً ليس فقط مطابقاً للقاعدة التاريخية الأدق والأصح ، ولكن لرفض تدخل أو وساطة أحكام علمية تعسفية ومسبقة . إنه ليس هذا العرق أو ذاك ، هذا الدين أو ذاك الذي استفاد من انتخاب الطبيعة ، ولكنها ، فلسطين ، القطر ذاته ، الذي أخلى الشكل الخارجي في البحر المتوسط لمركز ثقافي مختار . فإلى غالبية

سكانه إنما يعود دور ناشري الفنون والعلوم .

لقد غدت الفباء فلسطين مع الأراضي الايجية جزراً ومحيطاً للتراكيب الدينية . فلم تخترع اليونان أو يهود شيئاً . وإنه البانتيون المصري ـ البابلي الذي سيصبح بواسطة من فلسطين والأناضول مجمع آلهة الإغريق والرومان ، فالآلهة الإغريق آسيويون كما كان العرب ، واليهودية والنصرانية والإسلام . إننا نلمس هنا سجلاً يحمل أفدح أنواع التزوير والتخريب وليس هناك أصعب من تصحيح مسلمات مسيرتنا العقلية التي جمدت في حقائق منيعة حصينة .

السيارات السبع

هناك عبارة غامضة ينبغي أن يزال ما فيها من شكوك . فأمام مذهب تعدد الآلهة الإغريقي ـ الروماني ، يضعون بالمقابل ، مذهب التوحيد الفلسطيني ، وأمام آلهة الحجر والخشب يوضع الإله الذي لا تدركه الأبصار والذي هو الواحد الأحد . وليست الأمور بهذه البساطة البسيطة . فأمام تعدد الآلهة الواضح والشعبي نما وارتفع دائماً توحيد خفي إلىٰ درجة تكثر أو تقل . فالتراتيل المصرية والبابلية تمجد الألوهية التي ظلت علىٰ أشكال متعددة . والألوهية واحدة كما أن السماء واحدة . والشعوب ، في الحق ، قد التجأت إلىٰ ملاذات عدة ، وطرق عديدة متعرجة قليلاً أو كثيراً للتوجه إلىٰ تلك الألوهية . ألا تملك المسيحية حوارييها ، وقديساتها وقديسيها ، وشُفَعاءها ، المصنفين حسب مهنهم ، لكي يجلبوا شفاء الأمراض ، وغفران الذنوب ، وتحقيق الأماني ؟ إن القديس بليز يعرض من أجل شفاء أمراض الحنجرة ، والقديس لونجين من أجل شفاء أمراض العيون ، والقديسة أوفيمية ضد الحيوانات الوحشية ، إننا نملك شفيع الصيادين ، والشعراء والجنود . وليس الأمر كذلك لأن للمسيحيين اثني عشريات من القديسين الذين يعبدون اثنتي عشريات من الآلهة . إن مراقي هذه الآلهة تحيط بها ولكنها لا تقوم مقامها أبداً ، والعقيدة الحقيقية لا تتضمن البتة صوراً . فالدين ليس شيئاً آخر سوىٰ تأكيد وجود الروح وانسها بالإله خالقها . والتمثال ليس الألوهية ، حتى في مصر ، أو في دلفي ، أو الأولمب ، إنه ليس معبوداً كما هو ، بل هو عابد ، إنه يمثل رجلاً ، أو حيواناً في حالة يتوجه فيها لعبادة الله ، أي أنه قد وصل إلىٰ درجة من الإجادة الطبيعية والساهرة القريبة من الإجادة التي يريدها الإله . إن

التمثال المعبود ، لا العابد ، يرمز إلىٰ المخلوق في حالة الصلاة ، أي أنه يجسد حركة التعلق الروحي بالله .

إن وضعية المتضرع الجامدة ، تعطي ، بشكل احتفالي ، درساً في الصيانة الدينية ، وفي الدعوة لسلوك مماثل . إنه إذاً ، ومبدئياً ، التعبير عن ثقافة وليس التعبير عن الألوهية « أنا في لحظة ما ، خالد أزلي ، وفي لحظة أخرىٰ أنا ، أحيا في الزمان » ، كذلك يقول بعض المتصوفة لترجمة تأرجح الإنسان بين الخشوع المطلق ، والتطبيق العملي ، إن الأفعال والصور تأخذ من التطبيق العادي ، بينما تتلاشىٰ الصور في تأمل الخشوع . وتكفينا مقارنة نشيد الشمس للفرعون أمينوفيس الرابع وترتيل الشمس للقديس فرانسوا الاسيزى ، لنرىٰ كيف تمحي ، أمام أعيننا ، الحدود الاصطناعية المحددة بين تعدد الآلهة والتوحيد . فليس هناك إذاً دين توحيدي أقل أو أكثر من دين آخر ، هناك إذاً مفاهيم جمالية مختلفة للعرض ، وللصياغة الإلهية . في قلب الدين لا توجد صورة بل اعتقاد ويقين . وعندما يطابق دين الصورة يموت في تراكب الوهم ، لأن خصوصية الوهم تكمن في كونه عقيماً . إن الحيوية المدهشة والمستمرة لأديان العصور القديمة تظهر أنها كانت شيئاً آخر غير مجموعة صور . والإسلام نفسه لم يغير شيئاً لقد أكمل ، لقد استولىٰ على قلب التراث العربي ليحاول التعبير عنه كاملاً .

وما هذا التراث ؟ لنتقدم هنا في خطوات محسوبة ، لأننا سنرتكب كثيراً من الخطأ حين نضع نظاماً في مكان لا وجود للنظام فيه . لقد كان الناس يتغيرون مع حياتهم وآلهتهم ، وكانوا يضمون إليها أخريات وآخرين ، ويتركون أحياناً فصلاً أو حياة ، وكانوا يتبادلونها ، ويحملونها معهم ، ويصورونها ، مقتنعين أن النجوم في السماء تبقىٰ ثابتة في مكان واحد ، بينما توجد الألوهية في كل مكان وتسود دنيانا . .

كيف يتقدم البانتيون المصري ـ البابلي في أصله ، ثم في النسخ الفلسطينية أو الأناضولية التي نعرفها ؟

إن المصريين هم مالكو العالم الآخر . والبعث أكد مشاغلهم . إنهم يريدون الحياة هناك وراء الوجود . إن مصر، المفتوحة بدون حساب علىٰ جميع قوىٰ الحياة ، وحتىٰ أكثرها استبعاداً تستقبل في بانتيونها جميع الآلهة والجن . وليس هناك أي إله هيليني ، افريقي أو آسيوي ، لا يملك معبداً علىٰ ضفاف النيل . إن البطالسة ، الأمناء علىٰ هذه العقلية ، والوارثين للاسكندر ، قد حيوا الدين اليهودي بنفس الاحترام ، وبنفس الارتياب الذي أدخل أجدادهم بموجبه العقائد الهندية ، وعقائد ما بين النهرين ، والديانات الأثيوبية . وما أهمية التفاصيل والانحراف ، وأخطاء تحويل البوصلة أو العقيدة ، ما دام المصري متأكداً ، وعيونه مثبتة علىٰ شمس البعث ، من أن كتاب العقل الذي نسميه كتاب الأموات يسمىٰ في الحقيقة كتاب (الخروج إلىٰ النهار) ، أو كتاب (مولد النهار) ؟ ولنلاحظ هنا أن السورة التي تقرأ علىٰ رأس المحتضر تحمل عنوان « الفجر » .

فكتاب الموت إذاً أغنية أبدية مستمرة للحياة موجهة إلىٰ الإله ، الواحد ، الذي يسود وسيسود تحت اسم رع أو آمون ، أو آتون ، ابن نوت (الليل) ، إلىٰ الأبد : إنه الإله الشمس . وها هو ذا نص مختار ذو مغزىٰ منه :

« إن قدسيتك أيتها الشمس ليس لها سيد البتة ، أنت الراحل الكبير في الفضاء ، وليست مئات الملايين ومئات الملايين من السنين بالنسبة إليك سوىٰ لحظة . إنك تغيبين ، ولكنك تبقين . إنك تضاعفين الساعات والأيام والليالي ، بصورة متساوية ، وتبقين حية حسب قوانينك الخاصة . إنك تضيئين الأرض بنورك القوي مقدمة إليها ، بيديك الخاصتين علىٰ شكل رع . إنك النجم المنبثق من الماء ، الكبير بروعته الخاصة المتفجرة ، الذي يصوغ أعضاءه ، ويخلق نفسه ، غير المخلوقة ، في الأفق . أنت ، أيها النور

العالي ، نور السموات امنحني الخلود في أعلىٰ السماوات » . إن تحليلاً قصيراً لهذا النص يظهر لنا كم يحوي من موضوعات عزيزة علىٰ الأديان التالية . إن هذا الإله الوحيد الأب الخالد ، والقادر علىٰ كل شيء ، ليس أقل انسجاماً من ثالوث يحتوي (أوزوريس) الذي ليس شيئاً آخر سوىٰ آمون رع نفسه في ساعة المساء وايزيس زوجته ، وحورس ابنه برأس الأرنب . وإنها لقصة أزلية ، فأزوريس سيقتله كل فجر أخوه سيت ، لتبكيه زوجته ، هو المجد كل فجر يبعثه . إن إلهاً واحداً في ثلاث شخصيات قتله أقرب أقاربه إليه ، ومبعوث من بين الأموات . . يا له درساً للتأمل المسيحي . إن الدراما الأوزرية ستنتشر في كل مكان في الشرق ، وجَهْوَرية المتصوفة ستمتح منها طويلاً ومن خلال موضوعات المجوس الروحية المتعددة ، ومن خلال أديان الوحي أو الأديان السرية . فحول الأب ، والأم ، والابن ، المجتمعين في تراجيديا نصر ستتكتل شخصيات مقدسة ، ومرافقة ، ومرسومة وكهان متعددون . بينها الثور العجيب آبيس الذي يحفظه الكهنة في معبد ممفيس ، إنه ولد من أم لقحتها الصاعقة . وعندما مات لبست مصر كلها عليه ثياب الحداد . وسيصبح متمثلاً في أوزيريس الإله ، أويزريس ـ آبيس ، الذي اختصره الإغريق في سيرابيس . .إن هيرودوت يؤكد لنا أن هذا الثور ليس إلاّ صورة رمزية ، يصفه علىٰ الشكل التالي « إن آبيس هذا عجل لا تحمل أمه سواه . ويقول المصريون أن صاعقة تهبط من السماء عليها ، وأن هذه الصاعقة تحمل معها الإله آبيس . إن العجل الأسود هذا يعرف ببضع إشارات . فجلده أسود ، وهو يحمل في جبهته علامة بيضاء مثلثة ، وعلىٰ ظهره رسم صقر ، وتحت اللسان رسم جعران » . إن رفاق الثالوث الإلهي المقدس يسمون تاهوت ، ورسوله وكاتبه ، عشتار الآلهة الكوكبية ، أما فتاح فممثل بصورة جعران ، وتوت بصورة الايبيس والكلبيات ، وأنوبيس بصورة الثعلب . ولكن هناك أيضاً العدو ، الأفعىٰ أباب ، صورة الشر المتجسد ، تطؤها أقدام الناس

الخيرين ، لذلك فهي دائماً مقتولة ، وهي دائماً مولودة من جديد . إنها ، وهي تلتف حول الأرض منتصرة علىٰ جميع ما يعترضها تقترب وتلتقي الحقائق المتعارضة ، بفعل اتحاد رأسها بذنبها . إنها وهي تلتف حول نفسها تغدو رمز الألفا والأوميغا (أول حروف الألفباء اليونانية وآخرها) ، والمبدأ الأسمىٰ الذي يعتمد عليه الجسم والعقل في إصلاح ذات البين بينهما وبين العدم ، إنه الموت إذاً ، لأن الوجود لا يستطيع أن يستمر في الحياة إلاّ بتأثير قوة التناقض بين القضية وضدها . إن هذه الأفعىٰ الكونية ممثلة علىٰ الأرض بحية المقابر السامة ذات الرؤوس الثلاثة ، لقد شيدوا لها معبداً قرب الكرنك ، حُيث تحكم ملكة « الغرب الأعلىٰ » ، وكان الشعب يميزها باسم ماريتساكرو « صديقة الصمت » ، إن رأس هذه الأفعىٰ رأس امرأة ، إذا لم ينته برأس حية مثلثة الرؤوس ، وكأنها كانت تعني أنه يتعارض مع ثالوث رع المقدس ، ثالوث الظلمات الشرير . ولنمسك بالاستعارات والرموز النيلية : الشمس ، والثور ، الأفعىٰ ، الأم التي لقحتها السماء ، دون أن نعد بينها الحمل . وسنجدها من بعد وسنتنبأ بصفاء بزويس ـ آمون ، بابولون والأفعىٰ ، بثور كريت ، بارتميس توروبولس ، بميترا ، أي بالموضوعات الأثيرة لدىٰ العهدين القديم والجديد وسيكون من السهل ، والمغري ، أن نفتش علىٰ طريق جدلي يقود إلىٰ تفسير المسيحية بالديانة المصرية الوحيدة ، وإن الأناجيل لتقدم لنا فرصة مثالية مع رحلة العائلة المقدسة إلىٰ مصر ، ثم أليس هناك دليل الصليب ذي العروة ، إشارة الحياة ، التي يتكرر فيها الموضوع علىٰ امتداد قبور وادي الملوك ؟.
أليس هنا الصليب الكلداني ، الذي استعارته مصر أيضاً ، والذي يمثل صليباً محاطاً بدائرة ، رمزاً لنصر الآفاق الأربعة وكمالها والتي تمسك خطاً مقوساً سماوياً ؟ إن التفسير الحديث الذي سيشهد الصليب بموجبه بعذاب خسيس دنيء ، وبألم المتواضعين لا يتصل أبداً بالتفسير الذي أعطته الشعوب الشرقية والذي يغدو الصليب بموجبه صورة القوة الكونية . ينبغي ألا ندخل في طرق

التفسيرات المتعارضة . إذ يكفينا حتىٰ الآن أن نشير كم تحتوي الديانةالمصرية في خطوطها الكبرىٰ علىٰ موضوعات تدعو إلىٰ تأمل التفسيرات التوراتية . لقد رأينا في مبادرة الفرعون اخناتون الذهولية ، السابقة لأمينوفيس الرابع ، ثورة دينية حقيقية ، وفي عاصمته العمارنة الفاتيكان الأول للتوحيد في معارضة لتعدد آلهة آمون . لا شيء يفرض هذه الترجمة التي تستمد أصلها من ذوق خيالي حالم لشعراء المصريات . إن اخناتون لم يبدل شيئاً ، وأنشودة شمس آتون ليست إلاَّ قطعة موسيقية تشرح كتاب الموتىٰ ، إنه لم يهز العقيدة المصرية لسبب بسيط وهو كونه مرتفعاً دفعة واحدة إلىٰ مستوىٰ الخلود ، منكراً (الأنا) في صفاء أزلي فنحن لا نرىٰ أبداً ما استطاعت الديانة المصرية أن تقطع أو تضيف إلىٰ صفائها الكامل . إنها قد مَسَحت في الحق ، المصير الإنساني المخيف ووضعته علىٰ « طريق الطمأنينة » .

إن وسواس السلام ، والثقة ، واللطف هذا ، قد بقي خاصاً بمصر حتىٰ الآن . إن الروح في تبريرها أمام المحكمة الإلهية المكلفة بوزن فضائل المتوفىٰ وذنوبه تدافع عن نفسها علىٰ الشكل التالي :

« أنا لم أُسِيءْ لإنسان ولم أخدع أحداً ولم أجعل من يحيطون بي تعساء ، ولم أجوّع إنساناً ، ولم أقتل ، ولم أدفع أحداً قط إلىٰ البكاء ، ولم أكذب قط ، ولم أبعد الحليب عن فم طفل صغير ، أنا لم أدفع بعيداً الماء في زمن الحر اللاهب ، ولم أطفئْ النار في ساعة الحاجة إليها . . . » .

وتكتفي المحكمة بالإجابة التالية : « ما فعله بنو البشر يعلن عن نفسه ، والآلهة يكتفون به ويسرون . لقد صالح الآلهة بحبه . لقد أعطىٰ خبزاً لمن كان جائعاً والماء لمن كان عطشان ، واللباس لمن كان عارياً . ولقد منح قارباً لمن يعوزه . . » (عن كتاب الموتىٰ الفصل الخامس والسبعين) .

ألا تصوّر هذه النصوص المشبعة تسامحاً ، الوصايا والعظات الانجيلية ، مع أنها متقدمة عليها بألف عام ؟ أما اللقاء مع الأزلية المتصورة ابتهالاً فنجد

صداه موثوقاً به ، يوجهه جلال الدين الرومي الصوفي الفارسي إلىٰ تلاميذه عندما كان يدخل مرحلة الاحتضار « جديرٌ بكم الآن أن تسعدوا وتسروا لأن اليوم ليلة زفافي إلىٰ الخلود » . ومن أقصىٰ الشرق إلىٰ أقصاه يبقىٰ الالتماس نفسه . وعلىٰ عتبة الموت يدعونا التسامح العربي إلىٰ أن نلقي كل حذر ، وإلىٰ أن نهيئ أنفسنا إلىٰ القيام بالرحلة مع الله ، كما نحن أموات ومبعوثون في أوزيريس ، نقوم بالرحلة الدائرية بين كوكبة نجوم . وإنها رحلة سيتناولها دانتي في كل كتاب من كتب كوميدياه الإلهية .

إن عبادة النجوم نفسها توجد لدىٰ الكلدانيين والآشوريين مصطبغة حقاً بحزن أكثر حدة ، وبإحساس أكثر مرارة من الصراع الرهيب الذي ينتظر الإنسان في صراعه علىٰ الأرض وما بعد الحياة . وإننا لمزودون بمئات الألوف من النصوص المسمارية ، وبدقة ، بالإيمان وبالآلهة الرافدية ، دون أن نحصي التفاصيل التي يزدونا بها العديد من المؤلفين اليونان كتيودور الصقلي : « إن الكلدانيين يعلمؤننا أن العالم من طبيعة خالدة ، لم يكن له أبداً بدء ، ولن يكون له نهاية . إن نظام المادة وتنظيمها ، حسب فلسفتهم ، مرتبان حسب القانون الإلهي ، فلا شيء مما يجري في السماء هو فعل القدر ، إن كل شيء يتم بإرادة الآلهة الثابتة والسامية » . وسيقول فيما بعد ، الاغريقي هيراقليط : « يوجد بالتأكيد قوانين للقدر » ، والرواقيون سيضيفون أن « كل شيء سيتم حسب إرادة المعلم الأعظم » . وهنا ، كما هو الحال عليه في مصر ، يوجد الإله السامي والكامل ، إنه يسمىٰ (ايل) أو (آل) ، جذر أساسي يقودنا دون جهد إلىٰ (الله) وإلىٰ الجذر اليوناني البدائي (هل) ، إلىٰ الجذر الإغريقي هيليوس ، الشمس .

وسنجد الجذر نفسه في الاسم القديم للامبراطورية الإيرانية (عيلام) حيث نقرأ فيه بشفافية كلمة « إسلام » . وأنهم حسب اثني عشر إلهاً كبيراً تشبه التقسيمات الفلكية ، المجتمعة في ثالوث ، ثالوث يتوافق مع النجوم الثابتة أو

مع العوامل . فحول إيل (الخالد) ، آنو ، وأيا ، تتشكل الإدارة السامية مثل هاديس وبوزيدون حول زويس ، المالك فوق ممالك الأرض والبحر . وتسود بين الآلهة الأخرىٰ ثلاثة : مردوخ ابن ايا وشمش ، الشمس ، وعشتار ، ابن نجمة السماء ونجمة الصباح ، الأم والخبيبة ، الإلٰهة ثنائية الجنس بامتياز ، والذي يذكر اسمه السينسكريتي ستار ، والإغريقي أستير ، بالنجم .

ها هن أولاء محركات الكون . ولن ينقطعن عن الكلام في الأساطير هن اللائي سيغمرن شيئاً فشيئاً الغرب كله . وعلم الفلك البابلي ليُس أقل إثارة للاهتمام ، إنه دراما من ثلاثة فصول : خلق العالم ، والطوفان ، وسلام الإنسانية ، وسنجد الموضوعات الأكثر إدهاشاً في سفر التكوين ، في نسب الحقه الشاعر اليوناني هيزيود الذي كان أبوه من آسيا الصغرىٰ ، ونجده أيضاً في القرآن الذي قال إنه كان قد تبنىٰ علم الفلك كما وضعته الرقم المسمارية التي تعود إلىٰ الألف الثالث والثاني والأول قبل الميلاد ، وكذلك المؤلفات التاريخية التي تركها الراهب بحيرىٰ . في البدء كان سديم خواء انبثق منه زوجان من الآلهة من الزوج الثاني ولد آنو إله الأرض والسماء وأيا إله المحيط ، لقد انتصر مردوخ ابن أيا علىٰ السديم ، وخلق الإنسان من فرع من الدم والطين . ولقد علم هذا الإنسان البدائي العلوم مخلوق غير طبيعي ، إنه (أونيس) المنبثق من البحر ، سمكة برأس إنسان ذات طبيعة حيوانية برمائية ، خبير بأمور البذار والصناعة ، والعمارة ، والقواعد . وهو نفسه الذي نصب الملوك الذين كان أولهم ، الوروس ، الذي ملك ثلاثة آلآف وستمائة سنة . ولقد فتحت أبواب السماء . وأفلت الفيضان من عقاله فغمر الأرض ، ولم ينج إلاّ الملك العاشر آدم نابيشتي وزوجه ، اللذان حملا إلىٰ منطقة مختارة من الأرض ، حيث رزقا بأولاد عدة . ينبغي ألا نلح علىٰ القرابة الظاهرة بين يوحنا التوراتي وأونيس السومري ، علىٰ تلاحق الأصول الإنسانية الدرامي وعلىٰ قائمة الملوك وآباء العائلات التي استمدها العهد القديم من ذاكرة بلاد ما بين

النهرين كما يظهر . وينبغي كذلك ألا نهمل تسجيل أنه كان يؤمر الراهب بيروز في العهد أو السلالة السلوقية بأن يكتب باليونانية الكتب التاريخية الأسطورية ، وفي الوقت نفسه الذي كانوا يرممون فيه المكتبات المسمارية ، كان البطالسة يطلبون بدورهمْ إلىٰ علمائهم أن يجمعوا الروايات التوراتية . إنه اتفاق في الزمان ، واتفاق في الإرادات ، واتفاق في إصلاح المعتقدات .

وتتفق عشتار ما بين النهرين مع أنوثة ايزيس المبكرة ، إنها تمثل مثلها البركة ، والأمومة أي قدرة الزمن الخالقة ، أي شعر الحياة المصنوع ، والعودة الأزلية ، لأنها مثل ايزيس ، الباكية التي تقترب من الموت وتفهمه ، التي تحب الإنسانية ، أنها تلمح بخاصة في كل مخلوق حي الموت الذي يكبر في نفس الوقت الذي تكبر فيه هي ، وهو يتغذىٰ من جوهرها الكلي ، المتضمن ملذاتها . إنها ، وهي إلهة الموت ، وإلهة الشفقة السامية ، إنها كذلك هي التي تغري وتوزع الحب الطبيعي دون احتراس ، لتحاول أن تصنع منه دون وهم ، فيضاً جديراً بأن يختلس الموت . عشتار إذاً الآلهة الغامضة المبهمة . ولن ننتهي ، مهما فعلنا ، من تعداد ، أدوارها وصفاتها . إنها حاضرة في كل مكان . وليس هناك من دراما لا تكون فيها المحرك الكائن أو الماجد . إنها ، وهي قوة الالتحام والصلة ، إلهة الرغبات المتناقضة المشبعة . إنها قسم الموت الذي يكمن في كل مخلوق لكي تلون بالتراجيديا بهجتها الأكثر تحمساً . هذه هي عشتار . إنها صفة افروديت وفينوس رد عليها . . إنها ، وهي الصلة بين الروح والجسم ، تلخص إذاً ، الزوجين ، إنها الزوجان . فكيف تعرف قلبياً الحب إذا لم تكن تملك في آن واحد التجربة المؤنثة والمذكرة ؟ هذه التجربة الهامة ، إنها تملكها . إنها في ذلك ، التناقض ، والتأليف ، إنها في ذلك أسمىٰ من جميع الآلهة الذكور . وستصبح أيضاً ، وهي إلهة بنات السرور ، شفيعة قيصر روما ، لأنها النجمة التي تؤذن بالصباح ، وتظهر مع المساء ، إن الظلمات بها تستنير ، والصمت بها يتكلم .

إن ديانة ما بين النهرين ، كما تشهد الأنشودة التالية قد أوصلت للكمال صفة عشتار وعبادتها :

« إن النجمة الأنثىٰ هي عشتار النجمة السيّارة ، إنها الأنثىٰ عند مغيب الشمس ، والنجمة الذكر هي النجم السيّار عشتار ، إنها الذكر عند ظهور الشمس ، إن الشمس عند بزوغ الشمس هي سيد وابن في نفس الوقت .. إنها عند بزوغ الشمس إلهة أكاديس . إنها عند المغيب إلهة أوروك . إن لها عند بزوغ الشمس اسم عشتار بين النجوم . أما عند مغيب الشمس فتحمل اسم بيليت بين الاثنين » .

إن ثنائية الطبيعة ، كما نرىٰ ، تتدثر بأغنية مبهمة ومعماة لا يفهم معناها إلاّ الخبيرون . لأن عشتار تبقىٰ طريقاً سرياً . والحب ، تحت جميع أشكاله ، يحتفظ بصفة لا تحس . لقد سجل هيرودوت ملاحظة هامة جداً في هذا المجال ، مشيراً إلىٰ استمرار العادات الآشورية : « عندما يتصل بابلي بزوجته ، يحرق بخوراً ويجلس بجانبها . وتفعل عروسه الشيء ذاته . إنهما يغتسلان من بعد هدا ، في مطلع الشمس ، لأنه لن يسمح لهما بممارسة أي شيء إذا لم يغتسلا أولاً » . وهو يضيف : « إن العرب يفعلون الشيء نفسه » وبين الروايات البابلية تعد واحدة من أجملها ، إنها تروي مغامرات عشتار الهابطة إلىٰ الجحيم لتجربة انتشال ابنها (وحبيبها) تموز ، وتستقبلها ملكة البلاد المنتحبة عابسة ، سيئة المزاج ، ولا تفهم هذه الزيادة الملعونة لدىٰ الأموات .

« الذين هم كالعشب المقطوع ، بينما الأحياء هم من البرونز ، الذين هم كالنبات الذابل ، بينما الأحياء هم الشجرة المزهرة » . ولقد كان علىٰ عشتار أن تجتاز سبعة أبواب ، تاركة على كل عتبة قطعة من زينتها أو ملابسها ، حتىٰ إنها تجتاز الباب السابع عارية . وعندما تغدو في أعماق الجحيم يرمي بها في السجن ، وتبتلىٰ بأمراض رهيبة . وما دامت الأرض قد حرمت من السرور

فإنها تنغمس في الحداد ، وتموت المواسم ، ويرفض الناس والحيوانات التزواج . ويسرع إله المحيط ايا ، لإنقاذ الكون ، بإرسال رسالة إلىٰ ملكة الظلمات يأمرها فيها بإطلاق سراح عشتار . وتنفذ مضمون الرسالة مرغمة ، غير راضية ، وفيما يلي الأمر الذي أعطته لوزيرها :

« إذهب إلىٰ مقام الأزلية ، خبئ مناضد علم المستقبل ، إسق عشتار مياه الحياة ، واقتلعها من وجودي » . وهكذا ينفذ مضمون الأمر ، وتخضر الأرض من جديد ، وتزهر الأشجار مرة ثانية ، ويشكل الأزواج أزواجاً من جديد . وتجد عشتار ملابسها وشكلها القديم ، ولكن القصة لا تروي ماذا حدث لابنها تموز . . .

وسيمسك اليونان من جديد بالخيط في أنشودة ترفع إلىٰ ديميترا التي تقوم بالمغامرة نفسها ، ولكن هذه الإلهة لا تذهب مفتشة عن ابنها ، ولكن عن ابنتها بيرسيفون . يضاف إلىٰ ذلك أن أسطورة النزول إلىٰ الجحيم تحتوي ، في آن علىٰ صورة ومعنىٰ صوفيّ سيوحيان شيئاً فشيئاً لعمل دانتي ، بعد أن يأخذ مكاناً في ديانات ما بين النهرين وفنه . إن الفرس ، حسبما يرىٰ هيرودوت ، قد أعطوا عشتار اسم ميترا ، فإذا كان هذا صحيحاً ، فإن منظوراً جديداً سيفتح في دراسة أسرار الديانات القديمة الخفية . علىٰ أننا ، علىٰ كل حال ، نعرف حتىٰ قبل ارتقاء سيروس عرشه ، إن جميع آلهة ما بين النهرين كانت ممثلة في البانتيون الفارسي ، كما كانت هذه الآلهة ممثلة من قبل في البانتيون المصري .

وهناك مصدر لمعان إغريقية رومانية عديدة ، توراتية وإسلامية : إنها أسطورة جلجامش التي عرفناها من نصوص تعود إلىٰ القرن السابع والرابع عشر ، والثامن عشر قبل الميلاد ، والتي اكتشف بعضها في بلاد آشور ، وبعضها في الأناضول أو في مصر ، مما يؤكد سعة انتشارها . إنها قصة ملحمية في اثني عشر نشيداً (هناك اثنتا عشرة علامة من علامات البروج) ، حيث تفسد صلوات ، وقصص ووقائع ، ورموز دينية ، الأسطورة التي تروي

أعمال البطل جلجامش ، ملك أوروك ، الذي يقوم بها وحده حيناً ، وحيناً بحضور صديقه ، ورفيق سلاحه ، انكيدو فلنلخص منها ، بسرعة ، الفصولَ الخمسة الأساسية ، لأن الأسطورة معروفة من جمهورنا العريض : الفصل الأول : جلجامش الصياد العظيم ومطهر الإنسانية من شرورها ، يرحل مصحوباً بانكيدو إلىٰ جميع بلاد الأرز (لبنان) ؟ حيث يقطع رأس وحش كان يهدد السكان .

الفصل الثاني : يقتل الثور السماوي الذي أرسلته الآلهة لاضطهاد البشر وتعذيبهم ، إنه ينتزع قلبه ويقدمه هدية للشمس . ونتيجة لأمر تلقته عشتار تحصل من السماء علىٰ إذن بقتل انكيدو .

الفصل الثالث : يرحل جلجامش ليفتش عن « شجرة الحياة الأزلية » عند جده آدم نابيشتي (نوح التوراة ؟) الذي يسكن في بلاد « مصب الأنهر » ، منذ نجا من الفيضان . لقد اجتاز جبل ماشو حيث تسهر ، العقارب ، ويصل إلىٰ بستان حورية سابيتو الرائعة التي ترغب في الاحتفاظ به : « إن الحياة التي تفتش عنها لن تجدها أبداً ، لأن الآلهة قد خلقوا البشر وجعلوهم زائلين . . . استفد إذاً من الحياة التي أعطوك إياها ، ولا تفكر إلاَّ في إسعاد نفسك نهاراً وليلاً » . وكما تخلص أوليس من كاليبسو استطاع جلجامش أن يصرف النظر عن هذا الإغراء ، وبنىٰ لنفسه طوفاً ، وهبط نحو مصب الأنهار .

الفصل الرابع : وبعد أن اجتاز مسافة خطرة وصل عند جده الخالد أدم ـ نابيشتي الذي يحاول أن يرده عن غايته ، ولكن دون جدوىٰ . فأشار إليه نحو الحديقة في أعماق البحر حيث رأىٰ « شجرة الخلود » ، ونزل بطلنا فيها مثقل الرجلين بصخرتين ، واقتطع من شجرة الحياة طوفاً عاد به أخيراً سعيداً جداً .

الفصل الخامس : وكانت العودة لأوروك سيئة جداً ، إذ أنه بينما كان يطفئ عطشه من نبع ماء سرقت الحية التي راقبته الطوف وذهبت به بعيداً . أما وقد عرف

أن الموت يتهدده ، ولأنه غيور من الأفعىٰ التي عرفت الشباب الخالد ، فإن جلجامش استسلم للحزن . . .

إن كل شرح لهذه الأسطورة لا لزوم له ، فكل ما استعير منها كان مشاهداً ، ومعروفاً جداً منذ وقت مبكر في بلاد اليونان ، فالكهان ، والشعراء والقصاص ، قد أفادوا منه . وإنها لكثيرة تلكم العبارات والألفاظ التي تؤلف النص الآشوري ـ البابلي . فلاسم الآلهة سابيتو جرس عربي معاصر ، وأميش لا يزال اسماً دارجاً في العراق اليوم .

إن التوهج المزدكي الكبير الذي تلألأ طويلاً في فارس منذ أيام زرادشت البعيدة ، لم يحجم عن إنارة بلاد ما بين النهرين . إننا نعني هنا ديانة صافية ، مجردة ، آخذة بعين الاعتبار عبادة إله واحد ، هو أهورا مازدا أو أورموزد ، المسمىٰ أيضاً بالخالد ، والذي ليس له معبد ولا صورة خالق الكون الموجود في كل مكان ، القادر علىٰ كل شيء ، الذي تمكن تسميته آمون رع ، أوال ، أو الله ، أو يهوه . ويقف في مواجهته الشيطان اكرار مانيوس ، أو اهريمان . والصراع بينهما مستمر .

إن هذه الثنوية التي ستتطور في القرن الثالث الميلادي ، إلىٰ المانوية تذكر بالصراع الخالد بين رع وسيت ، في أرض مصر وتؤثر في فكر ما بين النهرين . ومع المزدكية ، اعتُمدت عبادةُ النار .

أيتها النار ، أيتها السيدة السامية التي ترتفع في هذه البلاد .

أنت البطلة ، ابنة المحيط ، التي ترتفع في هذه البلاد .

أيتها النار التي تحملين ، بتألُّق ، شعلتَك النور في دنيا الظلام . . .

كذلك تعلن انشودة آشورية ، بينما تصنع أنشودة أخرىٰ أكثر طاعة من إقامة الصلاة ، وتهمس بشقاء الإنسان المنحني أمام نور الله الذي يغفر له وحده ذنوبه :

(فليهدأ غضب قلبك يا مولاي .

وليهدأ هذا الإله الذي لا أعرفه .

دون أن أعرف أني أغذي قلبي بمخالفتك يا إلهي .

دون أن أعرف أني أمشي ضد إلهي .

يا سيدي ومولاي ، كثيرة أخطائي ، وكبيرة ذنوبي . . .)

❊ ❊ ❊

(فلترفع الريح ، الأخطاء التي ارتكبتها .
ولتمزق يا إلهي ، الشتائم التي تلفظت بها كما تمزق خمارا)
(فلتغفر لي ، فذنوبي ، يا إلهي ، كثيرة ، إنها سبعة في سبعة .
وأخطائي اعف عنها ، وسامحني من أجلها ، وقدني أنا الذي خضعت لك .
وليهدأ قلبك ، كما يهدأ قلب أم قرب ابنها) .

❊ ❊ ❊

أيمكن أن نضع هذه الصلاة بمعزل عن كتاب أيوب أو مزامير الزبور ؟ وإنها لأكثر اضطراباً أيضاً هذه الشكوىٰ التي يرفعها الملك تابي ـ أوتول ـ أو ليل من بلاد نيبور ، كما نقلتها لنا رقم مدينة نينوىٰ : « إن عينيّ قد أظلمتا ، وكأنهما أغلقتا بمزلاج ، إنني أقضي الليل في بيتي كثور ، واختلط ببرازي كخروف » . وما يكون رأينا بهذا الشكل الآخر الإبراهيمي أو المسيحي المنتزع هو نفسه من رقم نينوىٰ : « لقد حل الحمل محل الإنسان ، وأعطىٰ حياته بدلاً عنه » . ولقب تموز ، الضحية والذي يبعث بعد الموت ، لقب بالمضمخ عطراً ، ومسيح الإله المدهون ، وإن علينا أن نبحث ، أبعد من المسيحية واليهودية ، عن أصول عقليتنا العربية ، في منابع الصوفية العربية نفسها .

ففي فلسطين الكنعانية تلاقت من بابل وسوريا ومصر بحيرات من القصائد التي شكلت ، عبر العصور ، من رواسب إلىٰ رواسب ، هضبة ثقافية ، انطلاقاً منها تفرقت في هضابٍ مستعمرات ، ورسل ، وجنود ، وخطباء ، ومغنون ،

وأبطال حملت أسماء ، وآلهة ، وبحارة ، ومهندسين ، ورجال مصارف ، وتجار . ولقد بلغت سفن فلسطين من صور وصيدا ، كورنواليس ، حيث جلبت من هناك القصدير ، وقوافل العنبر ، المنطلقة من شواطئ البلطيق تتبع شواطئ نهري الرين والرونْ ، لتبلغ المرافئ البروفنسية أو الايطالية . وتصعد قوافل أخرىٰ أواسط افريقيا نحو المخازن الفلسطينية الليبية والتونسية . وتركض خلال هذه الطرق الحضارة الكنعانية . لقد أكد فرانز كومون في كتابه « الديانات الشرقية في الوثنية الرومانية » أنه « من الجبال الأوسترية حتىٰ أفواه الدانوب نشر السوريون عبادات أدونيس ، وآتيس ، وبعل ، وسيبيل » . حتىٰ إن سويسرا نفسها تلقت آثاراً عديدة من هذا التأثر . وعرفت بلاد الغال واسبانيا وهولاندا وأفريقيا ايزيس وعشتار ويهوه وايل ، أولاد الله ، وعقيدة البعث في عهد سبق الانتشار اليوناني أو الروماني . فلم تكن هناك حاجة البتة إلىٰ تقويض معبد هيرود لجلب استقرار الجماعات الأوزيريسية ، واليهودية ، أو المردوخية إلىٰ الغرب . إننا في كل يوم نكتشف قرابات غريبة بين الديانات السلتية والفلسطينية ، بين ديانات الكهان الغاليين وديانات ومزارات العاصي أو جبال فلسطين . فالإله الغالي باليم ليس إلهاً آخر غير بعل ؟ والشرق واليونان قد أنشأا مدرسةً وأدخلا إلىٰ الغرب قوميات كاملة . فلم يجئ أقوام من فلسطين ، لأنْ هناك ديناً لبعل ويهوه والمسيح والإسلام في بلاد الغال الشمالية أو في ايطاليا . إن هناك تلاميذ كثر لأفلاطون ، عبر العالم ، سيستندون علىٰ قسم أكبر من القسم الأثيني . إن الغموض بين القومية والدين الذي أفسح مكاناً في أوربا لكثير من النظريات ناتجٌ إما عن جهل الحقائق الأساسية من التاريخ ، وإما عن غشٍ متعمَّد . إن ادعاء ألماني أو فرنسي إلىٰ فلسطين ، لأنه يعتنق ديانة ولدت علىٰ أرضه ، عمل لا معنىٰ له ، لأن معظم دياناتنا قد تطورت في فلسطين . كذلك فإن إعادة جميع مسلمي العالم إلىٰ مكة يفرض مسائل لا حل لها .

إن التشابك الديني الفلسطيني القديم يتجاوز ـ في الحقيقة ـ الخيال ، إنه

يتضاعف من ركام عرقي يتحاذى فيه يونانيون ، وأناضوليون ، وأفريقيون ، وسكان ما بين النهرين ، يتكلمون لغة مشتركة ، هي الآرامية ، ثم هم يتابعون الحديث بلهجاتهم ، أو لغاتهم الإقليمية . بعضهم يعرف بعضاً ، أما نحن فلا . إن سير الأحداث والزمن قد أكمل خلط الزمن ، حفريات بعلبك وآراد وعمريت وصور ، تكشف لنا عن ايزيسات ، وحورس ، وأوزيريسات ، وعشتارات بخاصة ، ودلائل عن وجود ديانة مركبة ومعقدة جداً ، نصل منها إلى استخلاص موضوعات أساسية بفضل رقم رأس الشمرا . إن علم نشأة الكون مماثل لعلم الآشوريين البابليين ، ومتجانس بالطريقة نفسها مع ملحمة جلجامش . ويبقى الإله السامي آيل أو آل (يعبد في جميع الأماكن وبخاصة في الأحجار المنصوبة أو بيتيل : بيت ايل ، منزل ايل) ، الذي أناط سلطاته بثلاثة آلهة هي دانيل وكاريت وبعل : دانيل يحكم الزراعة وشعب رافائيم ، ومن هم هؤلاء شعوب رافائيم ؟ أهم عمالقة ؟ أم ملائكة ؟ أم خدم ؟ فهم ليسوا معروفين في العهد القديم . يضاف إلى هذا أن الجذر (راف) يوجد في رافا ـ ئيل ـ ورافا بعل . فإذا ما عدنا إلى اللغة العربية عنى هذا الجذر « ارتفع نحو السماء » ، « أعلى » ، « مجد الله » ، فلغة رافائيل أو رافابعل ، تقدم المعنى نفسه تقريباً : عابد ايل ، أي عابد بعل . أما كيريت فهو نصف إله ، إنه ابن ايل وعشتار ، لقد تزوج من ابنة ملك الأدوميين ، وقد وصفت رقم رأس الشمرة حفل زواجه الذي يذكرنا بشكل ملفت للنظر بمشاهد في العهد القديم تصف حياة أرباب العائلة فيه . إن بعل سيد جميع النشاطات الأرضية إنه يعبد في كل مكان ، وكل مدينة تتخذه سيداً تحت اسم بعل حرمون ، وبعل فيكور ، وبعل تسورو (صور) وبعل سيدونو (صيدا) وبعلبك الخ . . .

إنهم يبتهلون إليه تحت اسم آدوني « سيد » ، رب « آب » ، مالك « ملك ، سيد ملك » ، التي هي أسماء عربية قديمة وليست كلمات عبرية ولن نعود أبداً إلى إيضاح هذا الأمر . إن بعل ليس إلهاً يعيش في راحة ، إنه يحارب

دون انقطاع ، ضد أمير البحر زابل ـ يام . الذي يملك حليفاً نهار (النهر) ، وهو نزاع يحكم في ايل نفسه وملائكته أو « ايليم » ، إن لبعل « مماثلاً » نسوياً يحضر حروبه ويحبه ، وهو اخته عانات الجميلة التي استمدت اسمها من كلمة « عين » أي النبع . وإنها صورة خاصة عانات هذه ، التي تعرف باسم عشتارته ، نسخة مطابقة لعشتار ما بين النهرين . ويوصف رمسيس الثاني في مصر أحياناً بـ « مولود عانات ـ عشتارته » ، وهي ابنة هذا الفرعون نفسه التي تسمىٰ « ابنة عانات » .

وللإلٰهة أخ هو بعل الذي كان نفوراً ومحارباً ، إنهم يقارنونه طائعين بسخميت ، وهي الهة مصرية أخرىٰ رأسها رأس أسد . وسنرىٰ عانات عشتار تبيد جميع الشعوب لأنهم خانوا دين أخيها المحبوب ، وإنها لتغسل يديها بدمائهم . إنها تمدح نفسها « لأنها أنهكت الحية ذات الرؤوس الأربعة ، ليتان » ، والتي نجد مثيلاً لها في ليفياتان « لأنه أنهك التنين » ، « ولأنه كم كلبة إلٰهة النار » . إنها تبكي مثل ايزيس ، وتهبط إلىٰ الجحيم لتستعيد أخاها بعلاً المقتول في كمين . وإنها لتطلق سراحه بمعونة الشمس ، في معركة ضارية ضد موت ، إله الموت ، وتنهي المعركة بالقضاء ، بضربة منجل ، علىٰ قاتل أخيها ، الذي يصبح بعثه حينذاك ممكناً . إن عانات ـ عشتارته ترمز إذاً إلىٰ استمرار الحياة ، وإلىٰ القوة المؤهلة لدفع الظلمات بعيداً ، وإلىٰ الطهارة والتطهير ، مفتاح البعث .

إن الصليب ، المحاط بدائرة ، رمزها . ففي بعل وعانات تعيش أساطير ايزيس واوزوريس ، عشتار وتموز . إنها المرأة التي تتغلب علىٰ الموت ، وتسحق الأفعىٰ وتشفي المرضىٰ والتي يظهر أنها ستكون الصورة المركزية للديانة العربية الشرقية . « كن غباراً تحت أقدام أمك » بهذا ينصح المثل العربي الحديث في صيغة تلخص خلق مجتمع نسوي حتىٰ الأعماق ، مجتمع حاول علماء الاجتماع ، متناقضين ، رسمه من خلال صورة أخوية مذكرة .

إن تمجيد المرأة سيصبح من الموضوعات العزيزة علىٰ قلب المسيحية ، إنه واحد من هذه الموضوعات التي ستتميز بواسطتها أساساً اليهودية للإجابة علىٰ واحد من أعمق وأبعد دعوات الشرق ، ها هو ذا مختار من صلاة دانتي كما لو أن عابداً لايزيس أو عشتار ، قد تصورها :

« أيتها الشمس ، وأنت في علاك ظهراً ، أيتها العذراء الأم ، يا ابنة ولدك . . أنت تحرقيننا بتسامحك ، بمحبتك ، أنت بالنسبة للزائلين منبع أمل حي . أنت أيتها المرأة ، أنت كبيرة جداً ، أنت قوية جداً إلىٰ حدٍ أن أي إنسان يريد تسامحاً لا يركض أبداً إليك بدون أن تطير رغبته من غير أجنحة . إن طيبتك لا تستجيب فقط لهذا الذي يتضرع إليك ، إنها تذهب إلىٰ من يطلبونها لتغمرهم بكرمها ، فيك الرحمة ، فيك اللطف ، فيك الروعة ، فيك تجتمع فضائل جميع الكائنات » . (جنة الكوميديا الإلهية ، النشيد ٣٣) ، بين القديسين ، وأنصاف الآلهة والرفاق الذين يؤلفون موكب الشرف للآلهة الفلسطينيين أو يعيشون حولها ، بينهما ملفتاً للنظر : ميلكا رتك ، مخترع الخط ومروض الأسود ، الذي يذكرنا بجلجامش الذي نجد في قسماته هيراكليس ، الذي استطاع أن يبعد بقوة ذراعيه أعمدة مضيق جبل طارق لكي يفتح الطريق أمام السفن الفلسطينية ، أن يافا في العربية الفصحىٰ جاهوا « ياهو » ، كاشير « مهندس معماري عظيم » كان إلىٰ حد ما إله العلاقات الخارجية لأن له موطناً كبيراً ، أي كافتور (اسم يعطي لكريت في العهد القديم) ، وهبتر الذي يعني ممفيس ، ومصر كلها من ورائه .

إن من المضجر أن نحاول تعداد العقائد ، والآلهة ، والسحر ، والتأملات السامية التي استعارها الإغريق من التراث العربي ، ومعها من أسهموا في تخيل أرض يقتسمونها فيما بينهم ، أرض تؤلف القسم الفلسطيني ـ الايجي . وسيصبح الأمر مبتذلاً أن نذكر بالتفصيل آلاف التشابهات القريبة الواضحة بين الديانات الفلسطينية والموضوعات الأساسية لليهودية المستعارة بوضوح من

الموضوعات العربية . وهذا هو ما يقوله غوستاف لوبون ، هذا المعلم المملوء حساً سليماً أكثر من هؤلاء الشراح الذين استطاعوا ابعاده ولكنهم لم يستطيعوا أن يقوموا مقامه :

« إن جميع سفر التكوين التوراتي ، ذلك السديم البدائي مع روح الإله المرفرف علىٰ الظلمات الرطبة ، وافتراق المياه التي في الأسفل عن المياه التي في الأعلىٰ ، إن ذلك قد سبق خلق العالم مع وجود الحيوانات التي سبقت ظهور الإنسان ، والطوفان ، والسفينة ، وبرج بابل واختلاط اللغات الخ . . . هذه الأمور كلها قصص نجدها متماثلة بصورة مطلقة مع أقدم النصوص المسمارية . إن الاسم الذي أعطاه اليهود للإله كاسم الله الذي يتضرع به المسلمون هما اسمان بابليان بجذرهما آل ، أو ايل ، الذي يعني بالكلدانية الكائن الأسمىٰ » . (الحضارات الأولىٰ ، منشورات فلا ماريون ١٨٨٩ ، ص٥٥٥) .

وإنه ليقع علىٰ عاتقنا وبمزيد من الدقة أن نعمل علىٰ تنظيم الموضوعات الأسطورية الكبرىٰ التي التقت فيها العروبة بالهيلينية . ولنتكلم ، بادئ ذي بدء باعتبار أننا لم نترك موضوعها بعد ، لنتكلم عن عشتار ـ عانات ـ عشتارته ـ افروديت . ترد إلىٰ ذهننا أولاً أسطورة أدونيس ، البطل الفلسطيني ، الذي اشتهرت عبادته في لبنان في نبع افقا ، حيث ينبع نهر أدونيس .

ففي الزمن القديم كان هناك معبد لأفروديت الأفقية . والواقع أن آدونيس بطل غامض ، لأنه ولد في اثنتي عشرة ليلة ارتكبت فيها المحارم (إن العدد اثني عشر كان عدداً سحرياً في بابل) ، القوىٰ السومرية ميسرا أو (سميرنا) مع أبيها ، ثم قسم بقرار من زويس بين بيرسيفون وافروديت ، شأنه في ذلك شأن أوزوريس بين ايزيس والليل، أو، إذا شئنا ، مثل تموز بين عشتار وموت . ويجعل آدونيس ، لأنه بطل العودة الخالدة والربيع الحي ، يجعل من أفروديت حيناً والدة تبكي فقده (الأسطورة الإغريقية تعطيه حينئذ الاسم البابليّ

سالامبو) ، وحيناً آخر المرأة المحولة عن شكلها أثناء العودة . إن أدباً غنياً قد تطور في كل مكان في المتوسط للاحتفال بعيده الأسطوري ، في اسبانيا ، وصقلية ، والبروفنس ، في ايطاليا ، وأثينا ، وانطاكية والقدس (حسب حزقيال) ، في بيت لحم (حسب القديس جيروم) حيث كان يدور تطواف علىٰ شرف موت آدونيس كما يحتفل بعيد الاسكندر . ولنسجل أثناء بحثنا أن آدنيس ليس إلاّ الاسم (أدوناي) الذي بوساطته نتجه نحو الآلهة . ولنسجل أيضاً السمة العربية الملفوظة للبطل الذي تنتهي أمه ، المولودة في سورية ، بأن تلتجئ إلىٰ « الجزيرة العربية » . لكن دور أفرديت ليس بعيداً عن هنا ، دورها الحبيس في مصير آدونيس . فلقد أعطاها الإغريق إياه لأنها من البحر ، بعد أن نقلها الفلسطينيون إلىٰ قبرص ، وسيتمير واريكس في صقلية أسماء سيبيريس ، سيتييرة ، ابريسينا . إنها لا تملك كعشتار الصفة المزدوجة المؤنثة والمذكرة ، لأن روما قد عرفت فينوس ، ولكن لأنها رزقت من زواج موقت بهيرمس الصفة المزدوجة الجنس لهيرما ـ أفروديت ، وأنه ليوجد في هذه الكلمة شيء آخر أكثر من مجرد شعوذة لفظية . فأفروديت إلهٰة طروادية ، إنها أم اينية وهي شخصية ليس لها علاقة بآدونيس . ولأن أفروديت لا تستطيع إنقاذ مدينتها العزيزة طروادة من التدمير ، فإنها وهي تتبع الأساطيل الفلسطينية ، قد قادت اينية وأقاربه إلىٰ تراقيا ، ثم إلىٰ ايبير عند الفلسطينية اليسا (ديدون) ، وإلىٰ قرطاجة ، ثم إلىٰ صقلية ، ومن هناك إلىٰ موطن الاتروسكيين في قومس تقودها سيبيل إلىٰ الجحيم ، بعد أن تبصرها بالمستقبل الذي ستصل إليه علىٰ ضفاف التيبر حيث تؤسس لافينيوم ، المدينة العزيزة علىٰ روما . أما وقد ماتت ، فإن أمها أفروديت تحملها إلىٰ السماء حيث يحتفل بها الرومان تحت اسم جوبيتر الرب الروماني المحلي . تلك من حيث الأصل قصة اينيد فيرجيل . لكن المدينة الخالدة لم تكن لترىٰ في هذا الآسيوي ابن الآلهة الأسيوية الجد الخالق . وإن من المثير للغرابة أنهم في بلاد الغال ، يعتبرونه

جَدّاً ، مثلما يفعل ذلك الأدونيون من أوتون أيضاً أثناء فترة طويلة من الزمن كانت المدن الثلاث ، في الامبراطورية المفروض عليها الضرائب ، أوتون ، وروما وطروادة : الخط الآسيوي الذي لم يكن أسطورياً فقط .

وأمر آخر مثير للاستغراب : أن أم أفروديت ، أم اينية ، كانت الأم والإلهة السيدة أيضاً ، انها فينوس « ابنة آل جوليا » المولودة من أسرة يوليوس قيصر . أليس مثيراً للاهتمام أن قيصر هذا نفسه قد عينه آل أوتون ، اخوتهم في الإله ، ليقوم معهم بفتح بلاد الغال ؟

إن الميثولوجيا الإغريقية كانت تعرف باكية أخرىٰ « عاشقة وباكية أخرىٰ » إنها ديمترا إلٰهة الخبز والفواكه ، إن مغامرتها تقترب من مغامرة عشتار : فابنتها هي بيرسيفون التي اختطفها ملك الموت عندما كانت تقطف الزهور في السهل الاسطوري نيسا في اليمن ، حيث تنمو شجيرة العنب الأسطورية ، وبعد تسعة أيام من البكاء تصل الأم أوليزيس ، إلى مكان غير بعيد عن أثينا حيث تهدد بضرب العالم بالجوع إذا لم تسلم إليها ابنتها . عندئذ يجبر زويس القلق أخاه هاديس سيد الموت القوي علىٰ إحقاق الحق في قضية ديمترا .

لكن هاديس الذي تحب بيرسيفون أطعم بيرسوفون حبة رمان لكي تتعلق به نهائياً . وتعود بيرسوفون إلىٰ أمها الأرض كل ربيع ولكنها تعود عند زوجها طوال فترة الفصل الميت . ولكي تحتفل بما هو مؤلم ومفرح ، تطلع ديمترا أهل ايلوزيس علىٰ أسرار الحياة والبعث . ولكن هناك إلماعاً في كل النصوص القديمة الكلاسيكية ، ذات الكلمات الغامضة ، إلىٰ غموض ايلزويس مع التأكيد أحياناً بأنها ترجع إلىٰ « كشف آسيوي » .

وإنها لآسيوية أيضاً سيبيل تلك ، ملكة القوىٰ الأرضية المبجلة في آسيا الصغرىٰ ، والتي هي مؤثرة جداً ومخيفة جداً ، إلىٰ حد أنه ، في العام ٢٠٤ قبل الميلاد ، اضطر مجلس الشيوخ في روما إلىٰ إصدار أمر بتغيير مكان « الحجر الأسود » ونقله من بيسينونتسا إلىٰ بالاتينا ، ذلك الحجر الذي يرمز

إلىٰ الإلٰهة . لقد انقلب حبيبها آتيس المجنون حباً إلىٰ خصي ضعيف : إن أسطورة الخنثىٰ خاصة بدين عشتار وافروديت الذي يعلم الطريق بصوى من بابل إلىٰ روما . إن هيرا الأم سيدة الاحتفالات بالأعراس والأرض الخصبة ، وأخت زويس وزوجه ، قد تزوجت في فيرجي ، في قمة جبل ايدا . ولقد وُلدت أثينا العذراء في ليبيا علىٰ ساحل بحيرة تريتون . وتملك أرتميس ، أخت الشمس أجمل مزار لها في أفسوس ، وهي واحدة من المدن الآسيوية المشهورة ، حيث عاش الحواريُّ يوحنا بعد عيد العنصرة ، وأول كنيسة وجه منها رؤياه .

وإنه لتركيب عجيب للموت والحياة ، فامرأة الدين الإغريقي في صورها الثلاث ، العذراء ، والأم والحبيبة ، وبصفاتها الثلاث الرصانة ، والألم ، واللذة، المرأة الإغريقية هي الصورة الدقيقة لأمرأة آسيا. وقد جعلت المسيحية المسيح ابن المرأة والروح القدس . كذلك فعل القرآن الشيءَ ذاته .

وإننا لنستطيع القول : كم هي عميقة وبالغة أعماق إيمان الإنسان الشرقي ، فكرة الخلق النسوي هذه . فالثالوث المقدس الإغريقي زويس ، وهاديس ، وبوزيدون يبقىٰ بالتأكيد مذكراً نظرياً ، ولكن ثالوث روما يتضمن إلهين : فإلىٰ جانب جوبيتر ترتقي العرش جينون وفيرفا .

إن سيدين كبيرين ، موثوقاً بهما شرقياً ، يلتمعان في سماء البانتيون الهيليني : أبولون وديونيزوس . الأول يكتفي وحده بتلخيص مجموعة الأديان ، والأساطير والطقوس المولودة في مصر وفي فلسطين ، وفي بلاد الآشوريين وما بين النهرين . إن امير الشمس الذي هو في وقت واحد أوزيريس ، وأورموزد ، وعانو هو فوق ذلك معروف باسم آل ـ ايوس ، وهو أقرب الأقارب من الإله الخالد البابلي ايل ، الذي أصبح في العربية آل ـ لاه الله . وأنه يملك الرقم سبعة ، الذي هو رقم النجوم السيارة . ولأنه مولود في اليوم السابع من الشهر ، وتحييه في مولده سبع بجعات بخفقات طيرانهن ،

مصورات بذلك أيام خلق الكون السبعة ، وهو الذي دعاه اسخيلوس « سباعياً » في تراجيدياه « سبعة ضد طيبة » . وسيعطي الأطفال اليونانيون والرومانيون اسم « سباعي » الذي سيحمله كثير من الأباطرة الرومان . إن أبولون هو ابن الاله لأن أمه هي ليتو ولكي تهرب من غيرة هيرا ، التجأت ليتو إلىٰ الوحدة في جزيرة ديلوس حيث تشكو ، طوال تسعة أيام وتسع ليال ، من آلام الولادة في ظل شجرة نخيل . وماذا يروي القرآن إذاً ؟ تقول الآية : « واذكر في الكتاب مريم إذ إنتبذت من أهلها مكاناً شرقياً . . . فحملته فانتبذت به مكاناً قصياً . فأجأها المخاض إلىٰ جذع النخلة ، قالت يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسياً منسيا . . . » ثم وضعت يسوع المسيح . . .

ليس هناك توافق يشابه هذا التوافق بين الولادة الإلهية ونخلة الصحراء . وهناك توافق آخر ، ولكنه هذه المرة مع أصول روما التي كانت الذئبة والدتها وسيدتها . ولقد اقتيدت ليتو ، بعد ولادة أبولون ، إلىٰ آسيا الصغرىٰ حيث غدت إلهة ـ ذئبة ، تحكم قطيعاً من الذئاب . ولقد كان التاج بين أوائل الهدايا التي تلقاها الطفل أبولون . ولقد كان أول أعماله السفيهة ، قتله الأفعىٰ بيتون التي كانت تعيث فساداً في أرض دلفي . فلذكرىٰ أي شيء تصبح دلفىٰ ، قرة عين العالم ، واحدة من عواصم المتوسط الإلهية ، مع المشهورة بيتي التي تستشار كاهناتها من جميع الشعوب . وفي أية لغة عالمية كانت بيتي تعبر عما في نفسها ؟ لم تتكلم بأية لغة ، كما يقولون ، بل كانت تتنبأ بأصوات تنقل بعد ذلك إلىٰ اللغة التي استشيرت بها من قبل تراجمة مرتبطين بالمعبد . إن الإله المميت المطهر ، الشافي أبولون ، كان المبشر أيضاً ، أي الملاك طبقاً للاشتقاق اللغوي . وهكذا يأخذ دوراً هاماً في التقليد الأورفي ، فهو يملك علىٰ الجنة الفيثاغورية في جزيرة السعداء ، حيث يعيش بعض الناس المطوبين بين الخالدين ، يعيش بينهم أمثال أخيل وهيلين الجميلة . إنه إله الحب الذي يتزوج بالحورية ، ويقدم لها هدية مقاطعة ليبيا الشرقية ، إنه يتزوج هيكيب ،

امرأة بيريام ليعطيها أبناً يؤسس مدينة ميليا . إن روح القدس الأبولنيوني يتزوج أخيراً من عذراء فيثاغورث ، الذي هو ابن إله وعذراء ، فهو معجزة تنبأت بها بيتي دلفي نفسها .

وإذا كان أبولون إله الموسيقىٰ فلأنه يعرف أسرار الأعداد ، إنه أيضاً مهندس أنغام ، أكثر منه شاعر ألحان ، وهو يقود موكب ربات الفنون بعلم دقيق .

وإذا كانت ديمترا إلهة الخبز ، فإن ديونيزوس إله الخمر ، وتغدو أسرار الخبز ، وأسرار النبيذ مفاتيح ديانات الأسرار ، التي تلتقي في آسيا أولاً ، ثم في اليونان وروما بعد ذلك في المسيحية إن غنائية فريدريك نيتشه قد لونت بالتعظيم ديانة ديونيزوس معارضة بها هدوء أبولون الشاعري ، لقد نسجنا هنا فلسفة استعمل فيها الجنون الآسيوي لوضع أحسن بالنسبة للوضوح الأوربي . إنه كلام قديم معاد عادي ، ولكنه لم يقنع أحداً . لأن أبولون وديونيزوس كلاهما آسيوي ، ثم لأن طقوس العربدة الديونيزيسية فجور أكثر منها وليمة عامة ، فكل احتفال إلهي يمكن أن يفسح مجالاً لولائم طقسية .

إن كلمة ديونيزوس تعني اشتقاقياً « ابن الإله » ، وهو في الحقيقة زويس الذي تزوج من الفلسطينية سيميليه ، التي هي بالعربية (شملا) ، ابنة قدموس ، ملك صيدا ، ومؤسس مدينة طيبة في بيوتيا ، إن ديونيزوس الفلسطيني الأم ، عربي برحلاته وإقاماته في مصر وسوريا وفيرجيا ، حيث عرف وأحب سيبيل علىٰ شاطئ نهر السند حيث كان فاتحاً ، ومشرعاً . وإنه في اليمن ، في أرض نيزا ، منتجة العنب ، حيث وجب أن يقضي طفولته ، مختبئاً من غيرة هيرا زوجة ملك الآلهة الطائشة . لأن دويونيزوس هو أولاً إله مختف وهو من ثم الإله المسافر ، وهو أخيراً إله الوجد وإله زيارة الجحيم . إنه سيعيش في نيزا وقد حوله زويس إلىٰ جدي ، أو جدي صوفه مستعار من حمل ، وكلتا الصيغتين مقبولة . وسيطوف ، بعد أن غدا

بالغاً العالم الآسيوي ، لكي يكرس الفرح الذي لا يوصف ، فليس هناك مكان ما من الأرض لا يذكر مرور ديونيزوس . وإذا لم يكن هذا العالم السفلي قد توحد روحياً عن طريق بعل أو أوزوريس ، فإنه قد غدا كذلك علىٰ يديه .

ولم تكن رحلاته جميعاً سلمية . ففي تراقيا كانت له قضية مع ملك ليكوروك الذي حاول منعه من اجتياز مضيق الدرنديل ليعبر من آسيا إلىٰ أوربا ، ولكن ديونيزوس ينتصر عليه ، ويفقأ عينه ويضعه علىٰ الصليب

إن هذا المشهد الدرامي بالنسبة لبعض المؤلفين يجري في اليمن ، في مضيق باب المندب ، إن الوجد ، أي امّحاء الذات ، وسقوط الشخصية في هوة الرقص الإلهية ، مع المجموع ، بواسطة « النبيذ الإلهي » هذا ما يعلمه ديونيزوس للميناديين ، أو إلى الكاهنات اللائي يعبدنه ، فكيف يصل ببعض التمارين الطبيعية إلى تحرير الروح التي هي مطلب مشترك للفئات الصوفية أو مطلب الدراويش الدوَّارين ، إن من الممكن أن نتخيل ماذا كانت عليه المعابد الديونيزيكية الذين يعتبرون هم ورثتها . فبالوجد نذهب إلى الإله ، وبالوجد نصل إلى الله ، وبالوجد نرتفع أحياء من عالم الموتى .

لقد هبطت عشتار إلى الجحيم لتنقذ ولدها ، وديونيزوس يهبط لكي ينقذ أمه ، فيعيدها هاديس إليه لقاء غصن ريحان . كذلك يضم مؤيدو عبادة ديمترا في (الوزيس) ديونيزوسَ إلى حفلاتهم الطقسية ، إن الطواف الليل الذي يقود في كل سنة الأثينيين إلى الوزيس محروس بإلٰهات مخصصات لابن سميليه . وهن في كل سنة يذهبن في موكب في شهر تشرين الثاني ، يوقظن الإله قرب جبل البرناس للاحتفال بموته بعد ثلاثة أشهر . إنهن كذلك إلهات أبولون ويرقصن له ، بينما يشارك المؤمنون في اليزيس بأكل الخبز وشرب النبيذ ، وفي دلفي في طواف الشمس ورقصة باخوس ـ ديونيزوس حاملات عابديهم في حبور كوني . إن « الظلمات ، وضوحي » يقول سوفوكليس في أجاكس . وتعبير الدهشة يلخص اتفاق أبولون ـ ديونيزوس . والمشاعل التي

تنير أعياد كاهنات باخوس وثابة ، تنيرها احتراماً رائعاً لأبولون أي لايل (ايوس) .

فإلى ديونيزوس ، ابن زويس وحفيد قدموس الفلسطيني ، يدين اليونان بمسرحهم ، هذا المسرح الذي لا صلة له بمسرحنا .

إنه لن يفعل شيئاً ، هو لن يفعل شيئاً بواسطة أسرة بيزيستراليس في أثينا في القرن السادس قبل المسيح ، فهو لن يفعل سوى استئناف الشكل الرسمي الشعري لقداس عام متجانس بالطواف ، مثله مثل الكاهنات اللائي يحتفلن به بصخب وهرج على شرف السيد الحاكم . إن أسرار العصور الوسطى الأوربية كانت مشابهة للوحات آلام المسيح الحية . ولقد ولد المسرح الإيراني الرافدي الحديث نفسه من احتفالات الحداد الشعبي التي تقام على شرف الشهيد المسلم الحسين بن علي ، الذي قتل في قرية كربلاء على الفرات . إن المسرح الاغريقي كان إذاً في أصله وكما سيبقى على الرغم من بعض تغييرات خارجية ، بصورة أساسية (أورتوريو) ، أي تأليفاً موسيقياً درامياً لموضوع ديني : أي قداس ديونيزوس . وكل منا يعرف أن التعبير « تراجيدياً » الذي يميز هذا المسرح مؤلف من « تراغوس » أي الجدي و« أدد » أي الأنشودة ، أي اللحن الواضح جداً في طفولة إله يعيش مختبئاً في العربية السعيدة ، على شكل جدي . إنها تراجيدياً يمكن أن تترجم بـ « أغنية جدي » أو « أغنية من أجل جدي » لأن التراجيديا الاغريقية كانت أولاً أنشودة ، توجهاً نحو السماء من قبل إنسانية تشعر بأنها محكومة بقدر كوني . وعلى المسرح يقوم الممثلون بأدوارهم قليلاً قليلاً ، إنهم عوضاً عن ذلك ، يلقون الشعر القاء . وفي الأوركسترا ينشد ويرقص رجال الكورس ، بينما يقوم رئيس الجوقة مقام رئيس الأوركسترا المشارك للممثلين .

إن الموسيقى شرقية ، لقد أكد سوفوكليس ذلك في كتابه ، عن توقيع الرقص الذي كتبه في شبابه ، ارتفاع النغم الفريجي . بطء ، وصلاة وغنائية

وملحمة ، ومشاركة جماعية ، هذه هي الحدود الجديرة بتعريف جيد للتراجيديا الاغريقية . فليس هناك ضغط عقلي في هذا النوع من التراجيديا ، وليس هناك حبكة أو فائدة درامية ، تستدعي بالمقابل ضغطاً عصبياً كبيراً ، أي حماسة طبيعية . إن المشهد موجه نحو دمج كل من حضر المسرحية في دراما عالمية وليس لمنحه تسلية ، لأنه ، على كل حال ، يعرف عن ظهر قلب الموضوعات التي يقدمونها له . هل ينشد مشاهدو مسرحيات اسخيلوس وسوفوكليس مع الجوقة ؟ أهم يرقصون مع الممثلين ؟ ربما كان الأمر كذلك . وهم على كل حال يشاركون باللعبة ، أي في الطقوس وفي الوقت نفسه فإن العيد العربي المعاصر لا يضم ممثلين من جهة ، ومشاهدين من جهة ثانية ، فالجميع هنا ممثلون . فالعيد تظاهرة عواطف متقاسمة . إنها ليست مشهداً ، بل هي بالأحرى مشهد مدفوع الأجرة . فالمجانية فضل والمشاركة ضرورة . إن العيد العربي كالمسرح الاغريقي الكلاسيكي لا يقدم مشاهد ، بل يقدم احتفالاً ، إنه لا يسلي ، بل يستخدم ، لا يجمد ، بل يحرك .

إنه الاحتفال الممتاز حيث يقوم كل بدوره بلباقة دقيقة . إنه ، بمجموعه ، ومن جهة أخرى مناقض للمشهد التلفزيوني : صورة نائمة لعيون نائمة . فالعيد العربي والمسرح الديونيسيزي هما ، من هذه النقطة ، حفلات عامة لا يكون مسموحاً للممثل فيهما بأن يتسم أو يتميز بهيئة خاصة أو حركة متميزة .

إن الممثل في مسرح اسخيلوس ، ليس له وجه ولا اسم إنه يصعد إليه منتعلاً خفاً مسرحياً ، حاملاً قناعاً ثابتاً من الخشب أو المعدن ، وثياباً واسعة كهنوتية ، إنه الإنسان أو الإله ، ممثل سيد هذا العالم وشخصيته .

إن الجوقة اليونانية المنكرة لوحدة الإنسان ، هي دائماً وفي كل مكان حاضرة ، وحتى حين لا تتكلم فهي موجودة هناك لتتفحص ، لتسترق السمع ، ولتحكم . أنها تتبع بتمعن الممثلين ، دون أن تفتقدهم لحظة واحدة ، تتبعهم بسمعها أو بصرها . ذلك أنها حدقة العين ، والشاهد ، والضمير المشترك

عندما تكون الشخصيات بامرتها والمؤلف محكوم عليه بالتواضع . كل شيء للعمل ، وليس هناك من شيء للفنان ، كذلك تظهر جيداً كلمة أمر النظام الفني . في مسرحنا الأوربي نعتبر عواطف هملت وهرميون مغامرات شخصية مصحوبة بالنجاوى الغنائية بينما شكاوى انتيغون أو بروميثيوس جماعية ، وتعبير عن التراجيديا العالمية . إنهن لسن إلاّ الوتر الذي من وظيفته العمل على هز جميع الأوتار الأخرى ، وآلتهن الجوقة أي المدينة بكليتها . لقد رأى فيكتور هيغو في عمل اسخيلوس « توراة اغريقية » ، وفي عمله بروميثيوس « أنواراً مسيحية » ، ولنصغ من ثم لأسخيلوس :

« فليخرب إلهك العالم ، وليهزه ، فليرسل طيور ثلجه ، ورعوده الأرضية المحطمة ، فلن يمنع شيء سقوطه . لا شيء ، لا شيء البتة سيجبرني على كشف اسم هذا الذي سيأتي يوماً لتقويض سيادته » .

إن أصل اسخيلوس من ايليوزيس ، وهو مذكور في أسرار ديونيزوس ديمترا ، صحيح أن القوة الدينية التي يستمدها من المسرح الاغريقي ، لعدة اعتبارات ، هي أكثر مسيحية ، وأكثر اقناعاً من غالبية نصوصنا الدنيوية المستوحاة من مسيحيتنا الأوربية لكنْ يجب أن نرى فيها البرهان على أن الإيمان لايكتسب البتة بعقيدة، وأنه يوجد بالتأكيد في العقليات الفلسطينية واليونانية للعهود القديمة ، ترتيب خاص بأخذ المسيحية الحقيقية لأنها إنما تستمد منها . ولنضف أن فكرة الثالوث السحري يتابع طويلاً بطلب البناء الدرامي الاغريقي ، لأن المشهد سيبقى مؤلفاً من عرض ثلاث قطع لا من قطعة واحدة ، فالمسرح الاغريقي مستند إلى المسرح ذي المآسي الثلاث ، إنه بمحاذاته المناسبات ينشر الاسطورة من أبعادها الثلاثة : التاريخية والشعرية واسطورة ما وراء الطبيعة ، أبعاد ثلاثة توافق ثلاثية طبيعة الوجود كما كانت تعيشها وتحياها المدن القديمة

إن الأسطورة الفلسطينية ـ الطبيعية لا تتحدد البتة في تبشير ديونيزوس

التائه . ولقد كانت سبباً في دورة بطولية مع حرب طروادة والدورة الأورفية ، الأكثر أهمية في الميثولوجيا الاغريقية وأعلاماً مع أسماء أوربا ونيوبه ، وأوديب ، وانتيجونه ، وتيريسياس ، واتيوكل ، وبيوليس ، ومع هيراكليس خاصةً ، المخلص الذي كان تقليداً لديونيزوس ، محارباً ، ومبرهناً على صحة التنبؤات ، ومخترقاً حرمة الجحيم ومسافراً ، تتفق تحركاته من أحد طرفي العالم إلى طرفه الآخر مع سفر ديونيزوس . إنه يجمع ، لكونه ابن طيبة وزويس ، ملامح قامة جلجامش ذاتها وقوته الطبيعية والخلقية ، وقوة ملقارت الأسطورية ، ذي التقاليد البابلية الفلسطينية ، المسمى سلمان أيضاً ، المنقذ ، الذي له اسم (سالامبو) النسوي ، الاسم الآخر لعشتارته ـ عشتار .

ويكفي أن نجمع الكلمات العربية سلام ، وسلمان ، والكلمات الاغريقية واللاتينية سوتروسلاف ، لكي يقفز أمام أعيننا بطلانُ التقسيم التعسفي بين اللغات المسماة سامية واللغات المسماة هندية ـ أوربية . إن هيراكليس إذاً السلام كما أن طيبة المدينة المقدسة ، إنها مدينة تجمع الحيوانات الثلاثة الرمزية ، للتقاليد الشرقية : أبو الهول المصري ، الذي سيكون لأوديب معه أمر ما والتنين الذي قتله قدموس المؤسس الفينيقي لطيبة ، وأخو هيدرا من ليرنا الذي قتله هيراكليس ، والثور بعل أخيراً الذي اختطف أوربا ، اخت قدموس لينقلها إلى كريت ، والتي ستولد في مينوتور ، لسلالة مينوس ، ديانة الثور الذي قتله هيراكليس . كانت كنوسوس عاصمة كريت ومينوس ، (وينبغي ألا ننسى ذلك) واحدةً من عواصم ديونيزوس ، وشاهدة أيضاً لأنها اضطلعت بادخال تسلسل الأفكار الفلسطينية إلى أوربا : أي الثور ، وديونيزوس ، وهيراكليس .

إن الأعمال الاثني عشر والتي أتمها البطل الطيبي ، التي تطابق الاثنى عشر قسماً لفلك البروج البابلي ، هي براهين ينبغي أن ترفع الروح قبل أن تبلغ التأليه . وفي ليبيا ومصر وفيرجيا وجزيرة العرب ، لم يتوقف الناس عن

الحرب ، وعن التآمر ضد الشياطين ، على صورة القديس جورج عند المسيحيين . وقبل أن ينزل إلى الجحيم لكي يجلب منها تيسبسوس وآيسستا ، سيكون ، بحذر ، على اطلاع على أسرار ايليسيوس . إن نهايته الشنيعة مدينة للحذر من زوجته الأخيرة جانير ، ابنة ديونيزيوس ، باسمه العربي النموذجي ، وجسمه يضنيه جلباب نسسوس الذي أهداها إياه هيراكليس ، في سذاجته اللاشعورية ، هيراكليس الذي سيقيم بنفسه كومة حطبه على جبل أوثيا ، وسينام فوقها ، ثم يشعل النار ليموت بعد نزاع رهيب .

إن جسمه سيرفع بسرعة ، في فترة تأليه ، إلى السماء وسط أصوات فرقعات الرعد . إن زويس يعتبر أنه بواسطة تجاربه وفضائله وآلامه قد استحق السماء . وبشخصيته التصفت فكرة الألم المنقذ المزدوج للإيمان ببعث موقوف على الأرواح التي استشهدت . وسنجد صورته في لوحات جدران الكهوف المسيحية .

إن الإله الأعمى تيريسياس المضموم عن قرب بالدورة الطبيعية قد عرف مصيراً لا يشق له غبار ، لقد أثرت أفاعٍ في خط سير حياته ، فلقد كان رجلاً وامرأة ، وقد تلقى أخيراً ، بفضل ديونيزوس ، من زويس مزية الاستمرار في التنبؤ بما بعد الموت . . . إنه بين أنبياء الإنسانية الوحيد الذي يملك الخيار ، ذلك أنه « الأعمى الذي يرى » . إن أوليس رغبة في استشارته قد غامر بالذهاب حتى بلاد السيميرين الباردة ، وطلب إليه استشارة تريباسيس العظمى .

إن الأسطورة الطيبية تستمر في التفجر هنا وهناك في الشرق وفي الغرب ، سائرة على شواطىء البحر المتوسط ومتغلغلة في المعتقدات الشعبية وكذلك في المذهب الباطني الفلسفي . إن عدداً قليلاً من الناس يعرفون مع ذلك أنَّ للفلسطيني قدموس أصلاً نجم عن زواج بوزيدون بالحورية ، ليبيا التي تنحدر هي نفسها من زويس أبيه ، ومن النيل ، أمه ممفيس .

فشجرة نسب الاغريق مزودة بشبكة لا تنفصم من الجذور العربية . ولنتفق

على أنه شاذ وغريب أمر شراح الأديان التوحيدية الثلاثة ، فهم مقصرون في النظر بجدية إلى أشجار النسب التوراتية لكي يأخذوا منها خلاصات قابلة للنقاش ، فاعتبروا إنه من قبيل الخرافة دخول الأساطير الاغريقية المنظمة ، التي هي مع ذلك ، تعادل جيداً أساطير صامويل ، وهو من ملوك انجيل القديس ماتيو .

إننا مع أورفية نغادر مجال الآلهة إلى مجال كبار الكهان واللاهوتيين الباطنيين . فاورفيه هي في آن فلسطين الأحياء والأموات ، والحامية والعابدة العظمى للأديرة الكبرى . أما وقد تلقت المسارة في مصر ، فإنها مع ديونيزوس مؤسسة أسرار ايلوزيس . ونجد إلى جانبها هيراكليس خلافاً لديونيزوس ، والكابيرات المسماة بتعبير آخر النجوم السبعة السيارات البابلية ، والنجمة القطبية الشمون ، ميديا الساحرة ، والأفعى والحمل المقدس الذي كانت ديانته عامة في وادي النيل ، فَحَوْلَ اسمها وُلِدَ تقليد قديم جداً في عصور تاريخية استمد منها أدب مزور من أغزر الآداب ، وأناشيد ، ونذور شعبية ، وأشكال معجزة مصاحبة لأشياء مقدسة ، ولرفات القديسين ولتعاويذ ، على شكل ما يباع في لوردة ، وإنها لمثيرة للاهتمام هذه الأمور المتعلقة بعلم نشأة الكون التي تستند إلى استيحاءات وكذلك هي القصائد الطويلة « المغامرات » التي تروي بالتفصيل الرحلات الصوفية من القوقاز إلى كامباني والتي ألفها أبولودور وأبو لونيوس من رودس ، وهما نفساهما مذكوران في ديانتيهما . وسنكون مضحكين إن نحن شرحنا الأورفيه . ذلك أنها ، شأن جميع الديانات القديمة ، بئر لا قرار له . لأنها الفاتحة الهامة ، والوحيدة التي صنعها في الحقيقة الفيلسوف المشائي أوديم الذي قدم لنا في مؤلفاته الأساس في علم نشأة الكون الأورفي . وعلى النقيض من هيزيود الذي كانت السماء والأرض بالنسبة إليه الزوج الأصيل ، فإن تلامذة أورفيه يعتقدون « أن الليل كان سابق النهار » ، وإنه مع الفراغ الممثل في المحيط أم لجميع الأشياء ولكل حياة .

وإذا كان أبولون يعظم النور ، فإن أورفيه نوع من ظلمات مرسومة ، والملاحم والأناشيد التي تتغنى به هي إذاً وفي آن ليلية وبحرية . إن مغامرته السفلية ليلية ، للتفتيش عن أوريديس الذي قتلته الأفعى ، ولقد وصل بفضل قيثارته وصوتها إلى غواية الوحوش الضخمة والآلهة الأرضية ، إن المنكل بهم يتنفسون ، فتانتال تنسى أنها جائعة وعطشى ، واكسيون يقف عن الدوران على عجلة أفعاه . لقد كان على أهبة إعادة زوجه إلى الأرض عندما عاد ، بعد أن خان الوعد الذي قطعه على نفسه تجاه هاديس ، عاد لينظر إليها ، فلقد كانت كبيرة جداً عاطفته المتطلعة لايجاد وجهها المحبوب ، إن أوريدُيس الذي فقد آنذاك هذه المرة وإلى الأبد . كان ليليا يواصلُ البحث عن هذا الحب المفقود . وبحرية كانت تلك الملحمة التي سيرويها تاريخ المحاربين الذاهبين على السفينة آرغو نحو السماوات المظلمة والباردة في بلاد القوقاز لاصطياد عجل الذهب ... إن أورفيه كانت تعطي بينهم الايقاع للمجدفين وتطرد الأرواح الشريرة على الطريق إنها تبعد العوائق ، آخذة قرب رئيسهم جاسون ، دور بياتريس قرب دانتي ، ودور سيبيل قرب اينيس . ولكن لنتبعه عن قرب في رحلته الاسطورية التي حفظت ذاكرة الشعوب دينياً ذكراها . فالسفينة آرغو مصنوعة من خشب مقدس ، خشب أثينا الذي سيرعى أوليس ، إنه يرحل من أجل مهمة سرية ، إنه يتكلم لأن أثينا أعطته منحة التنبؤ . وإنه يستسلم ، قبل رحلته البحرية ، إلى ساما طراس ، وهو مكان مقدس يوجد فيه مزار الكابيرات السرية . ومن هن هؤلاء الكابيرات ؟ إن اسمهن « كبير » وهو اسم عربي صاف يعني كبيراً . إن ذلك يعني برهاناً مزدوجاً ، الأول فيه أن المفردات العربية كانت حاضرة بالكمال في اللغة الاغريقية ، والثاني أن الفرق بين العربية والآرامية بالنسبة لعربية اليوم لا يكاد يشعر به . ولنشر أثناء بحثنا إلى أن حكمة كبيرة توجد في الكلمة الطقسية كيبور (وهي الكلمة نفسها التي لها لفظان متميزان) ، فلفظ (يوم كيبور) يعني اليوم الكبير . وآداب الاغريق واللاتين

حذرة جداً فيما يتصل باستحضار هذه الآلهة . إنها آلهة بابلية ـ فلسطينية ذوات أهمية بالغة ، وأبوها صادق ، الفلسطيني الذي يحمل اسمه العربي معنى « الذي يقول الحقيقة » ، إنها قوى الكواكب السيارة والفلكية ، التي تحكم من أعالي السماء الأقدار . . . إنها سادة البحار، لأنها تسيطر على النيل وعلى الماء ، وهذا العنصر الأخير يعكس الشاخصات اللامعات في سماء ليلية ، والمراكب التي تحملها السماء من أسفلها وتنيرها السماء من أعلاها محمية من قبل الآلهات الكبيرات ، وأورفيه واحد من كهانها ، مع الديوسقيريين . إن لهذه الآلهات الكبيرات معابد في كل مكان ، في مصر ، وفيما بين النهرين ، وفي فيرجيا ، وفي فلسطين ، وعلى الشاطيء وعلى الجزر اليونانية ، ان اينيا والاتروسكيين قد أدخلوا إلى روما هذه الآلهة الواقية التي رموزها مثلث قائم الزاوية وأشجار صنوبر . ان احترام الأشياء المقدسة ، والهلع الذي ينشرنه أمران لا يرد إليهما إلاّ بنصف كلمة والإصبع على الفم ، دون أن يتجرأ بتسميتها ، يقال فقط « الآلهة الكبيرة » . إن « كبير » ليس إلاّ الترجمة العربية للكلمة « كبير » . وهؤلاء هم أولاد صادق ، اسم نتعرف فيه دون مشقة ، كلمة عربية نموذجية توجد في أيامنا تحت أشكال مختلفة « صدوق ، صدقة الخ » ومن الأطلنطي إلى نهر السند . إن توسيديد من جهته ، يذكر ملكاً من تراقيا يدعى صادقوس .

إن بحارة السفينة أرغو وهم في الطريق إلى البحر الأسود ، يعبرون الدرنديل ، ويقفون في فيرجيا حيث يقدمون الاحترام إلى سيدتنا سيبيل . ثم يرحلون عن ذلك المكان ليبلغوا ، بعد أخطار عديدة ، منطقة كوليشيد في شمالي الظلمات القوقازية . وإنها لبلاد غريبة : يسكنها جنود سيزوستريس وهو رمسيس الثاني المشهور ؛ ولقد توضع هناك حمل طائر ، جزة صوفه من الذهب ، وضع في قصر ملكي بعد أن ضحى به كحيوان مقدس معجز . وعندما تحاذي تلك البلاد جماعة من الأرغونوت ، كان يحكمها الملك

ايتيس ، الذي لم يكن سوى أخٍ لباسيفي زوجة مينوس ملك كريت وحفيد آجينور ملك فلسطين . وفي جاسون ، حيث تلتمس جزة صوف ايتوس الذهبية تفرض محنة الثور والتنين . ويخرج جاسون منتصراً بفضل عشق وحماية الأميرة ميديا له ، لأنها ابنة الملك ، ويغادر البلد منتصراً حاملاً معه الجزة وميديا الضالع معها . وتبدأ عند ذاك رحلة العودة على طريق أنهار الدانوب والرون والبو ، أنهار وشواطىء اتروسكية من كامبانيا ، على بحر الحوريات ، وهن مغنيات محترفات تهرب منهن السفينة آرغو بفضل تجسد أورفيه وتآنسه . وإنها لمرحلة تمضي في جزيرة الفياسيين ثم في ليبيا قرب بحيرة تريتوني . وتوجد بواسطة هذه الجغرافيا الثقافية ما يجب تسميته بالشرق، بمقابل عالم جرماني يكشف عن عقلية أخرى وتتجه السفينة آرغو أخيراً نحو اليونان المميزة بمغامرة الليل الغريبة على كريت . وعلى شاطىء السفينة تسقط الظلمات ، شاملة آرغو وطاقمها . ولا يأمل البحارة بالخروج من هذا الجحيم البحريّ إلا عندما يظهر أبولون مستسلماً لصلوات أورفيه وميديا ابنة الشمس المجتمعة ، « لينقذ السفينة ويبدد الظلمات . وإنهم يستطيعون القاء مراسيهم قرب جزيرة سبوراديس التي تسميها النصوص الأورفية ، تذكرة للتدخل الإلهي ، انافيا » « جزيرة الكشف أو بالأحرى كشف القناع » . وإنه لاتفاق غريب لأن السفينة لم تبتعد عن جزيرة باتموس ، وهي الجزيرة نفسها التي يكشف فيها القديس يوحنا حقيقة رؤياه . ولقد أنهت السفينة آرغو رحلتها في كورنثه . وهناك ينتهي حب جاسون وميديه . أما وقد غضبت الساحرة ؛ فإنها تقتل أولادها وتهرب إلى أثينا حيث تتزوج ايجيه قبل أن تعود إلى آسيا حيث تنهي حياتها . ولقد عرف أورفيه مصيراً أكثر تراجيدية . فبعد صعوده من الجحيم تغدو أرمل أوريديس إلى الأبد ، ويبدأ في الفرار من كل علاقة نسوية ، ويؤسس لأنصاره مزارات للتأمل محرمة على النساء ، يجب أن نرى هنا أصل الرهبنات أن ضيوف هذه المزارات يمتنعون عن أكل اللحم والبيض . ويتساءلون فيما إذا

كان عليهم أن يتعهدوا بالعزوبية . وعلى كل حال فإن أورفيه هو البطل الوحيد الميثولوجي الذي لم يخلف بعده أولاداً . وسيبقى الرجل في عزلته وسيثير سلوكه نقمة النساء ، بعد أن يعود إلى تراقيا موطن طفولته ، إنهن النساء اللائي سيقتلنه ، وسيجزئن جسمه ويقذفن في البحر رأسه وقيثارته ، اللذين يصلان وهما يغنيان للموج أسف أوريسيد ، يصلان من موجة إلى موجة حتى جزيرة ليسبوس ، حيث تدفن الأيدي التقية الرأس بينما ترتفع القيثارة إلى السماء لتصبح مجموعة نجوم . وتبلغ روح مؤلف الأناشيد (الشانيزيلزية) حيث لا تنقطع عن إقامة الفرح الزبوري ، وهي تلبس بياضاً ، ملاكاً بين الملائكة . وسيكون على أورفيه وهو جد الشعراء أن يكون ملهم هوميروس وهيزيود . ولن تنقطع الرسائل البابوية الأورفية خلال ألفي سنة على الأقل عن التسلط على عالم البحر المتوسط .

وفي القوقاز ، تبعاً لأسطورة الطوفان يرتبط بروميثيوس الجبار ، وهو نسخة ثانية دقيقة من بطل ما بين النهرين بالآداب التي تروي مغامرته نصوص مكتبة نينوى المسمارية . أن أيا تُكشَف له باعتباره خادم إله البحر العلمَ حتى إنه يتجرأ على مواجهة إله السماء والادعاء بالخلود . وإنه قد أنهى أيامه ، مندفعاً من السماء ، بصفة عامل متواضع على الأرض . على أن بروميثيوس ، يلقى مصيراً أسوأ لأنه سيقيد في القوقاز تنفيذاً لأمر زويس الغاضب . وعلينا أن نسجل أن أم بروميثيوس تسمى آسيا ، وإن ابنها دوقلايون يتوصل ، مثل نوح وما بين النهرية أم نابيشتى ، إلى إنقاذ الإنسانية من الطوفان بفضل النصائح التي تلقاها من أبيه . وهناك شخصية أخرى هي ايكارا ، وهي بطلة جناحاها من الشمع ، ولها جد من ما بين النهرين هو ، ايتانا . وسيحاول هذا الأخير وهو يريد الحصول على عشب الخلق السحري الذي ينبت في أعلى السماوات . . . سيحاول أن يجلبه متعلقاً بريش صديقه النسر ، لقد وصل إلى السماء الأولى عندما أصابته عشتار بالدوار ، وتترك ايتانا ما تتمسك به ، وتهبط مسرعة إلى

أرض الدنيا الزائلة . وهكذا ينتهي ، كما نعرف ، ايكارا ابن ديدال . ومن هو ديدال ؟ إنه أمير من أسرة سيكروبس مؤسس أثينا ، وهو نفسه ابن المصري ايريكتيه أول حاكم لأتيكا .

وماذا تقول هيلينا طروادة ، زوجة الملك ميليناس ، وأخت كليمنسترا وكاستور ودبوليكس حلفاء الكبيرات ؟ إن قصتها لا تنتهي بسقوط طروادة . فلقد عرفت هي الأخرى هروباً في مصر . وستلجأ ، في طريق عودتها إلى اسبارطة ، مفلتة من مراقبة ميليناس ، ستلجأ إلى شاطىء النيل لتقوم بمغامرات عجيبة ، لقدرتها على سحق الأفاعي ، بواسطة حبها للملاح فاروس الذي أعطى اسمه لمبنى منارة الاسكندرية الشهير . ولقد أحبت ملاحاً آخر يدعى كانوبوس ، وهو بطل أعطى اسمه لإحدى مدن الدلتا . ثم نراها في برقة ، على طول شاطىء سيرتا ، ونراها في طرابلس ، ونراها بعد ذلك على شاطىء الدانوب . فهل هناك مكان لا نراها فيه ؟ وكم يلزمنا من وقت لنقص حكاية هيكيب زوجة بريام ؟ ولنحتفظ بهذا الفضول . فهي ، بعد أن حملت من باريس ، حلمت بأنها قد ولدت شعلة ، وهذا الحلم ـ حسب الأسطورة ـ يشبه الحلم الذي رأته دورا ، والدة القديس دومينيك : فقبل ولادة هذا الابن الشهير « رأت في الحلم أنها تحمل في بطنها كلباً صغيراً يحمل بين شدقيه شعلة ملتهبة تحرق بواسطتها العالم كله » .

يضاف إلى هذا أننا نلاحظ أن الزمان والمكان لا ينقسمان البتة حسب حدود اختيارنا المتعسف وثقافة فكرنا المعاصر المصطنعة . وإننا لنستطيع أن نتكلم عن دانائيدات ، بنات ليبيا الصغيرات ، من شيرشة أخت باسيفائيه ، من بيليروفون الذي قتل شيمر (الحيوان الخرافي) قرب انطاكية وحارب شعب سوليم في آسون (أو أسوان) ، وغيره من الشعوب .

وفي بحر ايجة ، وبتأثير فلسطين ، أنشىء البانتيون الاغريقي ـ الروماني في أغلب أقسامه ، وآلهته وأبطاله الآتون من ليبيا وصقلية ومصر والأناضول

والجزيرة العربية ، وبابل . إنه تراث لم تنقطع اليونان عن تمجيده والتسبيح بحمده . وهو في الحق تراث جميع الديانات وجميع الفلاسفة وعلماء الجمال في العالم المسمى العالم الغربي . وفي الفصل السابع عشر من الكتاب التوراتي المسمى حزقيال ، نستطيع أن نتأكد من الاحترام المقدم لفلسطين التي يتغنى باحترامها أدبياً مؤلف الفصل ، وإننا لن نجد في مكان آخر ، في النصوص التوراتية ، نصاً تظهر فيه مثل هذه الحماسة الدنيوية .

« يا صور ، لقد قلت : أنا كاملة في الجمال . حدودك في قلب البحر ، والذين بنوك قد جعلوك كاملة في جمالك . وأنت تمجدين الغنى والسعادة لبلد يتعاطى صلات مربحة مع جزر ايجة وبلد اليونان ، وتراقيا وسوريا ، وجزيرة العرب ، والهند وكلدان وآشور (حران ، وهادن وآشور) ، أثيوبيا الخ . . .

« لقد كفيت ببضاعتك التي توزعين في أسواق ما وراء البحر ، شعوباً عديدة ، وأغنيت ملوك الأرض بتجارتك وبثرواتك المكدسة » . كما لو أننا نقول ما تمثله فلسطين في عيون الاغريق ، لأن كتاب ايزيشيل (حزقيال بالعربية) مفهوم باللغة الاغريقية ، مثله مثل جميع النصوص التوراتية التي هي جميعاً بالاغريقية .

هذا على الرغم من أن التقاليد الجمالية ، والتزيينية ، والثيابية ، والدينية الشرقية (فالختان مثلاً كان يمارس في مصر منذ عهود موغلة في القدم) قد حفظتها ونقلتها كنائس جميع الطوائف ، الأكثر حذراً من عموم الزائلين في حفظ شارتهم الأصيلة ، وعلى الرغم من أن القصص والأساطير الشعبية قد حفظن ذكرى أزمان خرافية . ثم انتظر بدون صبر أن تحصي تقاليد المدن والأرياف الشفهية في الشرق المتوسطي ، في نفس الوقت الذي تعد فيه تقاليد افريقيا الشمالية وصقلية وشبها جزيرتي ايطاليا وايبريا ؟ وإنها لدلالات هامة في براءتها : هذه الدلالة التي تدعي مثلاً أن العذراء مريم قد استعملت دراهم المجوس لدفع تكاليف إقامتها سبع سنوات في مصر ، وهذه الدلالة الأخرى

التي تصنف أفلاطون وفيرجيل بين الأنبياء المبشرين بالمسيح ، إلى جانب عيسو . إن شرحاً جاداً للنصوص ، وللرسوم الجدارية ، ولتماثيل الكهوف المسيحية قرب روما قد كشفت بالتأكيد تأثيراً عربياً هاماً . إننا في الحقيقة نجد فيها كرمة ديونيزوس اليمني ، وحمامة عشتار ، وسمكة أوانيس ، وقارب ايزيس ، وشمس ايل أو حورس ، ولقد مثلت مريم العذراء في صورة ديمترا في بلواها ، كذلك نجد في هذه الرسوم ، الآلهة الاغريقية ـ الفلسطينية ، مع حملها على كتفها ، ومعها الراعي الطيب . وكل شيء مؤثر في لائحة معلمي المسيحية الذين هم من أسر عربية : تيرتوليان القرطاجني ، وكذلك القديس سيربريان ، والقديس أوغسطين النومودي ؛ وكذلك كان أوريجين ، والقديس أتاناز مصريين ، وهؤلاء من فلسطين وسورية : القديس باسيل من قيصريه ، والقديس أفرام والقديس يوحنا من كريريسوستوم ، ومن ليبيا لاسينسياس الشهير وهو من برقة . وليست هذه الأسماء التي عددناها إلاّ أسماء جمعناها بسرعة ، إن كاسيدور يشير في تاريخه عن القوط إلى أن أحدهم المسمى اتيلا ، مشرب بتقاليد عربية ـ اغريقية . ونحن نعرف أن النشيد الغريغوري قد ولد من لقاء أنشودة دورية بمأساة اغريقية (حتى إنه نفسه موشّى بذوق أناضولي) ، وبأغنيات فلسطينية كان الباباغريغوار الكبير قد أمر بتأليفها في القرن السادس بعد الميلاد في كتاب ألحان القداس ، وهو كتاب مخصص لاستيحاء الطقس الروماني . وإنه لصحيح أن الشكل النهائي والحديث للغريغوري هو نتيجة ايضاح طويل درستة كنائس فرانسا ، وكنائس كومبيين ومتز وسينليس ، أي وادي نهر اللوار بخاصة . لكن العناصر المنسقة والمنقولة قد استمدت من الجوقات العربية القديمة التي كان اليونانيون صداها . وإننا دون أن ندخل في تفاصيل علماء تثير في النهاية كثيراً من المشاكل التي لا تحل فإن من المفيد أن نعرف أن النصوص الدينية التي تستعملها الجماعات اليهودية ، والإسلامية والمسيحية ، لا تمثل إلاّ قسماً ضئيلاً من مجموعة ضخمة من الكتابات الأسطورية

أو الطقسية التي نملكها . إنها نتيجة تأليف مركب ، ولكنه أيضاً توضيح لم يحتفظ إلاَّ بالجوهر والجوهري . وإنها لتعد بالآلاف هذه الكتابات الشرقية ، باللغة الاغريقية أو بغيرها من اللغات (فاللغة الاغريقية تستعمل غالباً الكتابة الصوتية في نقل نص فلسطيني أو حتى بابلي أو مصري) وهي كتابات تعالج أسراراً إلهية واستشارات سيبيلية ، ودخول أورفيه ، ورقم ميترا ، وصيغ سحرية ، ورؤى سحرية . . . إن هذه الأشياء كلها تملك أموراً جديرة بالملاحظة فهي تمزج بين سفر التكوين التوراتي، وعلم الكون البابلي ـ الفلسطيني ـ وخلاص بَشَرٍ ديو نيزي ، وبعث مسيحي ، وموسى وهرقل . ولقد جمع في الاسكندرية حول القرن الثالث بعد الميلاد عناصر معرفة روحية لم يكن حلها دائماً سهلاً ، تحت شكل حكم ، وأفكار أقدم مما نسميه الديانات السماوية ، كما لو أن الآخرين لم يوجدوا أبداً . . . وإنه ليوجد فيها سؤال بين أسئلة أخرى ، عن نهاية العالم . فنحن المسيحيين ، نملك هذه النهاية التي يعطيها القديس يوحنا في رؤياه ، وهي رؤيا مشابهة تقريباً لما يعرض الإسلام . أما اليهودية فليس فيها البتة إشارة لرؤيا . فالإسلام والمسيحية هما إذاً حول هذه النقطة قريبان متقاربان .

وهكذا فهم قريبون جداً من كنيسة روما ، وقدروا أن تكون الرؤيا بدون شك شرقية جداً بالنسبة للذوق الأوربي ، الذي يبقيها بعيداً عنه ، ويفضل عليها الأناجيل أو رسائل القديس بولص ، بينما تتعلق المسيحية الشرقية برؤيا القديس يوحنا .

فرؤيا الإسلام ، والحالة هذه ، وحسب الرأي العام الدارج ليست أبداً مستمدة من القديس يوحنا ، ولكن من تقليد أقدم نجد أثراً أكيداً عنها في كتب المعرفة اللاهوتية . وهكذا يظهر إذاً أن من اليقيني هنا أن الاغريق والعرب ، مؤمني الاسكندرية ، وفلسطين ، واليونان ، وأماكن أخرى ، وانطلاقاً من فهم ديني مشترك . . . نجد أن هؤلاء جميعاً قد انقسموا بين أناس يرون نهاية العالم ، وبين آخرين لا يرونها . إن مشعل الرؤيا الغنوصية التي نعطيها فيما يلي والتي ترجمها روبير برازيلاخ في مختار له عن الشعر الاغريقي ، يعود

مبدئياً إلى القرن الثالث بعد الميلاد ، ولكنه يحتوي صيغاً واستحضارات ، توجد في نصوص مسمارية ، لمصريين أو اغريق يرتقون إلى ما قبل القرن الخامس قبل الميلاد .

. . . عندما تظهر الإشارة فوق الأمم .

ويولد الأطفال بشعر أبيض .

فَشَرٌّ سينزل بكم أنتم الذين تترقبون هذا اليوم . . .

ومن كل مكان في السماء ستهبط النجوم إلى البحر . .

وسيرتجف البشر على اختلاف أجناسهم . . .

وعند ذاك سيظهر وزراء الإله الأربعة الخالدون .

ميكائيل وجبرائيل ورافائيل وأورييل .

إن لهؤلاء الملائكة الثلاثة الأخرين مكاناً في الجنة المفقودة لميلتون ، وفي موشحة هايدن « الخلق » حيث يبدأ إنشاد التهديد التالي :

عندما تدير وجهك ،

يرتجف كل شيء ويجمد ،

إنك تنزع النفس .

فيسقطون هباء وغباراً .

وإنها لأكثر من تأملات ، وأدعية تتضوع منها لعنات الأزمنة الأصلية حيث يبدو الشرق المتوسطي في سمائه ، وبحره وأرضه مشبعاً بإله حاضر تحت شكل قديسين ، وكائنات فوق طبيعية وأبطال كلهم أقارب بعضهم من بعضهم الآخر .

« كل شيء مملوء آلهة » كذلك كان يؤكد الفيلسوف الاغريقي تاليس إنهن كن يقطعن العالم كما تقطعه اليوم موجات الراديو والتلفزيون إنهن كن يثرن

الحياة ، ويصدرن الأوامر ، ويعزين الناس . لقد كانت تلكم الأوقات ، تعريفاً ، أزمنة ديناميكية محمولة على تيارات كانت القيم الفكرية فيها معدومة ، ولكن القوى المبادرة خلاقة جداً . إن الإنسانية يجب أن تتعرف فيها عهد الحنين الذهبي ، وأن تؤمن بأنه بمقدار ما كنا نبتعد في تلكم الأزمان ، عن الاتقان الروحي ، فإن حياة المجتمعات كانت تتعقد وتفسد في خليط رؤيوي هدام ومجدد في آن واحد . إن الدمار يدعو حسب الاعتقادات الدينية ، عودة الأزمان الأولية كما يدعو الموت الحياة .

فالوجود الكوني ، كما كان العصر القديم المتوسطي يتصوره ، كان إذاً ، بالضرورة ، دائرياً وكل بدء يفرض نهاية بالتبادل . وفكرة البعث متضمنة هنا كما يوجد الجو في الجو . وكل تقدم محكوم بالقانون الرياضي للعودة الأزلية ، قانون يحكمه تطور الكواكب . وهذا ما يجعل صحيحاً تعليم أورفيه وحوارييها ، وتعليم ايزيس واوزيريس ، والمعتقدات الأساسية لشرق يمكن أن يعرف بأنه مدينة أورفيه ، أو مدينة ايزيس . إن أورفيه بالتأكيد هي الصورة الأكثر تمثيلاً للتدين الشرقي في الغرب ، إنها تجذب إليها كل ما يستدعي المرأة ، والنقاء ، والبعث واليوم الأخير ، والجنة والنار ، من ايزيس حتى ديونيزوس .

ويستمر هذا التيار الحي جيداً في حمل حضارتنا وفي إثارة حج تأملي إلى ينابيع أملنا . إن قلب الفلسفة الاغريقية هو قلب أورفيه ، وهو أيضاً قلب ايزيس ، والفعل ، والكلمة الإسلامية ، أو النبوة اليهودية ، كل شيء يتماسك ، يفسر نفسه ، إذا وافقنا على النظر في مضمون هذا الحدس .

إن شعر فرجيل هو أجود ملخص يمكن تقديمه عن التنظيم الإلهي والأسطوري للمجتمعات المتوسطية ، والبرهان الأكثر اقناعاً عن نقل عبادات الشرق إلى الغرب . والاينيادة هي القصة الدقيقة الظرفية لهذا النقل ، ومعلوماتها الزراعية هي إقامة قداس الأرض الأم المستوحاة من دائرة المعارف الزراعية القرطاجية المكتوبة باللغة الآرامية ، والتي كانت قد ترجمت على التعاقب إلى

اللغتين الاغريقية واللاتينية ، في هذه الرعويات تتنفس التقاليد الاغريقية العربية للاسكندرية وصقلية . إن طبع فرجيل الخفي والشرقي هذا لم يغب عن بال قراء عصورنا الوسطى ، ولا عن بال فيكتور هيغو الذي كان إلهاماً له واضحاً .

. . . في فيرجيل الله قريب جداً من أن يغدو ملاكاً .

وبيت الشعر يحمل إلى ذروته شعاعاً غريباً . . .

لأنه في جهله نفسه ، توجد واحدة من هذه الأرواح .

وإن الشرق البعيد كان يصبغ بشعل غامضة .

لأنه واحد من تلك القلوب التي كانت تحت السماوات .

تذهب يوم الوليد المسيح المكتنف بالأسرار .

والشاعر الرومانتيكي يفكر ، دون شك ، في القصيدة الرعوية الرابعة المشهورة والمشربة حقاً بورع فلسطيني ، وبالنشيد الغريغوري الرابع (لماذا هذا الرقم أربعة نفسه ؟) حيث تلتقي مغامرة اريستية ، ابن سيرين الليبية ، ورحلة أورفيه إلى الجحيم . إن القصيدة الرابعة الرعوية هي منذ الاستهلال موضوعة تحت إشارة الالهات الصقليات . إنها تتنبأ بـ « نهاية الأزمان التي تعلنها سيبيل من قومس ، وبولادة عصور جديدة ستبدأ من الصفر » . ثم هي تتنبأ « بعودة العذارء » وبزحل العصر الذهبي ، في الوقت نفسه الذي يتنزل فيه من أعالي السماوات مولود جديد . بفضل هذا المولود الجديد سيعفى عن الخطايا ، وسيسود السلام إلى الأبد على العالم . وسيوجه الشاعر إلى هذا الطفل صلاة وأماني : « لأجلك أيها الطفل ، من أجل ابتسامتك ستنتشر الهدايا على الأرض ، ويتمدد اللبلاب مختلطاً بالأقنثة[1] وستعود العنزات إلى الحظيرة ، ضروعها حفل بالحلب ، ولن تخشى القطعان من الأسد شيئاً . إن

---

(١) نوع من النبات يعيش طويلاً .

مهدك يزهر زهراً يداعبك ، وستهلك الأفعى نفسها ، وسيذوي العشب السام الخادع ، وينمو لبان آشور في كل مكان » . وستتبع القصيدة نمو الطفل بين الزروع المستحصدة ، والبساتين المثقلة أشجارها بالثمار الناضجة ، وسيردون غزوة جديدة للارغونوت ، ويدحرون غزوة جديدة ضد طروادة ، وسينتهي ذلك كله بالسلام بين البشر المتصالحين مع الأرض ، والبحر والحيوانات . « اصعد إذاً نحو الإلهات العظيمات ، لأن الزمن قريب يا بن الآلهة العزيز يا ولد أبيه القوي . انظر تأرجح الكون بخطه المقوس ، وتأرجح القارات والبحار المتحركة ، والسماء العميقة . وانظر كيف ترقص الأرض حبوراً معلنة الأزمنة التي تستعد » . وإن فرجيل ليتمنى بأن يحتفظ بحياته أكبر مدة ممكنة وبنفحته الشعرية حتى يمجد معجزات ذلكم الطفل ، وسيفعل ذلك عن طيب خاطر ، بحيث إنه يتجاوز أورفيه ، وليتنوس ، على الرغم من أن كاليوب وأبولون سيشهدان ذلك ، وإن (بان) نفسه سيعترف بأنه مهزوم . « فابتسم لأمك ، أيها الطفل الصغير » .

ليس هناك من شارح أو مفسر لم يكشف عن التشابه الصارخ بين النشيد الرعوي الرابع والآيات الحادية عشرة والسادسة والستين من الكتاب التوراتي لعيسو . وماذا نستنتج من ذلك ؟ أن هناك كثيرين من المثقفين ، بأمر من ديانة الدولة الرومانية الشكلية ، كانوا خبراء في الديانات السماوية التي هي أكثر صوفية واتصالاً بتقليد أقل أهمية . وليس من الضروري أن يكون فرجيل قد قلد كتاب عيسو ، أيمكن أن يكون قد عرفه ؟ ليس هناك ما يؤكد ذلك . فالتغييرات العديدة والتفسيرات ، واللمسات الأخيرة ، والتحريفات المحمولة إلى النص التوراتي طوال تغير الأزمنة لا تجبرنا أبداً على الاختيار . والثقافة الدينية التي كان فيرجيل يمتلكها خاصة به ، مضافة إلى الكتابات والطقوس المستقدمة من الشرق العربي ، ومن اليونان أو صقلية ، كانت تكفي بشكل واسع لاستيحاء قصائد مشابهة للنشيد الرعوي الرابع وإنه ليجب الاعتقاد بأن انتشار أمثال ذلك

لا يعتبر البتة أمراً مخالفاً للمألوف ، لأن قراء فيرجيل ، العديدين في ايطاليا في القرن الأول قبل الميلاد ، قد وافقوا عليها عن طيب خاطر . وإن من المفيد تذكر أن أصل فيرجيل من مانتو ، وهي مدينة اتروسكية متصلة اتصالاً وثيقاً بالهجرات الليدية ، وموجودة في ايطاليا الشرقية هذه التي ستأخذ عبر القرون مع رافينا والبندقية ، وجهاً عربياً . ويبقى اليوم أيضاً القصر (المانتوني) الغريب لآل كونزاك ومنذ القرن الثالث عشر ، البناء الرمزي الأوسع لعصر النهضة بألغازه المعمارية ، وهندسته الرقمية ، فيعكس العاكس للرموز الغنوصية .

إن المركيزة ايزابيلا ، زوجة فرانسوا لايشي ، قد ضاعفت فيه اللمسات الشرقية ، ايزابيل هذه التي كانت محاطة بالسحره والمفسرين اليهود ، أو المسلمين الذين علموها قراءة الخارطات ، واستفسار الكواكب والقديسين . وهي أيضاً كانت تتملكها وساوس الخوف من البعث ، ويلاحظ بين الرموز التي ملىء بها القصر ، عدد من الشمعدانات المثلثة المستندة إلى غصن يوحي بقداس الفصح في الأيام الخالية : فهو شمعدان مماثل موضوع قرب المذبح ، كان يحمل خمس عشرة شمعة عسلية كانوا يطفئونها الواحدة بعد الأخرى كلما كان القداس يتقدم ، باستثناء شمعة واحدة موضوعة في قمة المثلث ، إن هذه الشمعة المشتعلة دائماً كانت مخبأة وراء المذبح بينما كان المؤمنون ينشدون الشكوى ، ثم إنهم كانوا يضعونها بعد ذلك على الشمعدان ، وينفجر حذل الجمهور مع ظهور إشارة بعث المسيح هذه .

وثمة سؤال هام يرد إلى الفكر : هل كان اليونانيون يعرفون الحرم المكي ، أي الكعبة ؟ إن إنشاء هذا المزار يضيع في ليل العصور ، لأن الكعبة حسب الروايات المتواترة قد حملتها الملائكة من السماء قبل ولادة آدم ، وقد أعاد إبراهيم بناءها بعد الطوفان وقد ساعده في ذلك ابنه إسماعيل والملاك جبريل الذي حمل إليهما من عند الله الحجر الأسود المشهور الذي رصعها .

وربما كان هذا الحجر واحداً من أحجار العبادة ، أو بيت ايل (بيت ـ ايل تعني بيت الله) ، وكذلك هو أمر الحجر الأسود المخصص لعبادة سيبيل ، أو حجر حمص الذي سنجده في روما الامبراطورية وفي الكعبة يعلق قرنا الحمل الذي ضحى به إبراهيم بدلاً عن ابنه . الكعبة هذه التي أفسدتها الفيضانات عدة مرات ، ورممها أهل مكة ورممها معهم نهائياً قبطان يوناني ، كان معماراً ونجاراً في آن ، وقد استعمل خشب سفينته مادة ترميم . هذا على الأقل ما ينتزع من الروايات الكثيرة التي تتصل بهذه البنية وبالموقع المقدس الذي تشغله في جوار جبل أبي قبيس الذي سيدفن فيه آدم . فاليونانيون يستطيعون إضافة شيء إلى ذلك على الأقل . فهذا الحرم المكي قد كان يسكنه آلهة عظام ، بابليون ومصريون ، قبل أن يصبح على صورة كثير من معابد العصر ، نوعاً من بانتيون توجد فيه تماثيل مريم والمسيح . إن كلمة مكة توجد في اللغة الاغريقية الكلاسيكية ، ويظهر أنها تعني حسب رأي المؤرخ سترابون مدينة شبه الجزيرة العربية ، ولا نعرف عنها أكثر من ذلك . ولكن لنكرر ، أن الدراسة الأثرية لشبه الجزيرة لم تكد تبدأ ، وإن فحص الوثائق ، المتجهة ، حتى اليوم وبدقة ، وجهة أوربية ، بينما يتجه اللفظ لحسن الحظ ، اتجاهاً يأخذ فيه شكلاً أقل تحيزاً .

فإذا ما وصلنا إلى هذا الحد من هذه الغزوة العابرة القصيرة في التقاليد الدينية الأسطورية اليونانية ـ الفلسطينية ، بدأت خاتمة أكيدة تفرض نفسها علينا : وهي أن الديانة الاغريقية ـ الرومانية مشبعة حتى أعماق قلبها بالشرق النيلي ـ الرافدي ، وأن اليهودية والمسيحية والإسلام أيضاً تجمع وتلخص كل ما يرغب ويريد ، التدين الجمعي للشعوب التي تستعمل اللغة نفسها ، والعادات نفسها ، والطقوس نفسها . إن الإسلام وهو آخر الأديان الثلاثة الكبرى كان متنبَأً به منذ القديم ، مثله مثل المسيح الذي كان متنبأً به لدى أسلاف إبراهيم . وإن من الضروري هنا أن نسقط مفاهيمنا العادية عن النقد

والتاريخ ، لأن فكرة التنبؤ راسخة في عقلية الشرق الدينية ، وفي هذه الرغبة العارمة في الاعتراف بالبعث ، بعيداً عن الفروق المتضادة بالوحدة الأساسية والأبدية أي اتحاد الإنسان بالله ، إن بضع آيات من القرآن ، تروى في هذا الصدد ، أغنى من الشروح :

﴿ وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت أن لا تشرك بي شيئاً وطهر بيتي للطائفين والقائمين والركع السجود ﴾ .

سورة الحج الآية ٢٥

﴿ وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون ﴾ .

سورة البقرة الآية ١٣٥

﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب لعلهم يهتدون . وجعلنا ابن مريم وأمه آية وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين ﴾ .

سورة المؤمنون الآية ٤٩

﴿ إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين ﴾ .

سورة البقرة الآية ١٣٠

أما الأمل بالبعث العزيز جداً على إنسانية الشرق والذي حمل تدريجياً إلى أقصى الحدود القصوى للغرب ، فإن القرآن يتناوله دون أن يخفف فيه الحرف أو الروح . ﴿ وإن الساعة آتية لا ريب فيها وإن الله يبعث من في القبور ﴾ .

سورة الحج الآية ٦

ولقد لاحظ القديس أوغسطين أن « هذه الحقيقة التي تسمى ديانة مسيحية كانت توجد لدى القدماء ، ولم تنقطع أبداً عن الوجود منذ أصل النوع البشري حتى أتى المسيح نفسه ، وعند ذاك بدأنا بتسمية الدين الحقيقي بالمسيحية التي كانت توجد من قبل » .

الدروس الإلهية

« إن الإنسان بالطبع مسلوب العقل »
هيراقليط

الدين يساوي الفلسفة . والتعبيران يتوافقان . والفلسفة الاغريقية قسم تام من الفكر الديني الذي هو جزء تام من الفكر الشرقي . إن مهدها كان في المدينة الآسيوية ميليه حيث تلتقي التيارات الفلسطينية والأناضولية والبابلية الفارسية . وما دمنا قد أقصينا اللغة الداخلية ، فالفلسفة تجهل الأدب ولأنها معنية بالفضيلة الشعبية الخالصة التي لا تفقد الصلة مع السماء والأرض . إنها ليست مما وراء الطبيعة بل أمر طبيعي وسحر وعقل . لا أثر في الفلسفة الاغريقية لما هو بحث عقلي ، فلا رأس هنا يطرق أبواب الوهم . فالفلسفة ترمي إلى حذف الفكر الفردي لتقود الإنسان إلى الالتصاق كلياً بما هو حقيقي ، غير تارك بينه وبين الكون ، فجوة ، ولا تأملاً ، ولا وقتاً ميتاً . إن الأفكار ، بالمعنى الذي نفهمه منها ، غريبة عن الفلسفة الاغريقية . لأنها غريبة عن الوجود . « إنني أفكر فأنا موجود » صيغة متناقضة ومعارضة للفكر القديم ، الذي يميل إلى القول « أنا أفكر فأنا لست موجوداً » لأن (الهو) بالنسبة للشرق الكلاسيكي عدم صاف . إننا اعتمدنا ـ ونحن نفتش عن نص جدير بأن يلخص في بضعة أسطر فكر الفلسفة الهيلينية ـ ما يلي : « التفكير قبل كل شيء فيما لا يجب أن ينتهي . اطفاء الرغبة فيما هو زائل ، الإيمان بالقدرة الإلهية ، عدم إرادة ما تريد ، كما تريد وعندما تريد ، هذا هو طريق السلام الوحيد والأساس

القوي للأمل في الساعة الأخيرة » . وإنه لتفكير يمكن أن يكون إسلامياً ورواقياً ، وأفلاطونياً ، ومسيحياً : إنه مسيحي في الواقع ومستمد من تقليد المسيح ، وعمل فرنسيسكاني من أيام النهضة . إن هناك إلهاً ، ثم لا يوجد شيء ، كذلك يقدر الاغريقي ، فليس هناك فضاء إلا وهو كوني ، ولا زمن إلا ما هو أبدي . . ومن واجب الفلسفة ألا تراعي أهواء نفوس الأفراد بل أن تبرز روعة ما هو قوي ورائع في الإنسانية ، ومن هنا جاء أسلوبها ورؤيتها العليا السامية ، ومن هنا أيضاً جاء جهلها غير المحدود بعلم النفس ، وعلم الاجتماع وعلم الاقتصاد وهذا يعني كم كانت بعيدة عن اهتماماتنا المعاصرة ، ذلك لأنها كانت طريقاً للسلام ولم تكن تمارين مذهبية . . ولكنها مع الأسف قد وقعت بين أيدي علماء أعلام رتبوها حسب أذواقهم وقدموا لها وجهاً مشوهاً . إن الفيلسوف الاغريقي لم يكن أستاذاً يعلم من أعلى المنبر وفلسفته عقل أو فكر ديني لا يعبر عنه ولا يتداول في الشارع فحسب بل ينتزع أفكاره أيضاً من الشارع الذي يختلط به كل يوم . فأفلاطون وأرسطو رجلان كسائر الناس ، كانا يفهمان مجتمعهما ، وكان مجتمعهما يفهمهما ، وإن ما لهما من قيمة إنما مصدره سلوكهما في الحياة ، وصلاتهما مع مواطنيهما ، أكثر مما لكتبهما أو تأملاتهما . . وإننا لنفهم ذلك بصعوبة لأن مجتمعاتنا الغربية ، منذ تقدمت الكتابة والقراءة والمهن الجامعية ، قد انتهت إلى تقسيم نفسها إلى « طبقات جاهلة » و« طبقات متعلمة » ولقد كفت كل طبقة عملياً عن الالتقاء بالأخرى لأنها تجهل لغتها ، والشعب يعيش بمعزل عما يجري حوله ، بينما تمطر عليه مواعظ هؤلاء الذين شكلوا طائفة المتدبين عليه . أما الثقافة القديمة فشيء آخر تماماً فهي باعتبارها جماعية ، كانت ملكاً لكل إنسان ، وكل إنسان يمكنه أن يشمل بلمحة واحدة مجموعة الديانات والفنون والمعرفة التي كانت ملكه .

فليس هنالك موسيقى لمعلم ، ولا فلسفة لمختصين ، ولا لغة لعلماء ، ولم يكن يعرض أي عمل فني قديم في أمكنة مغلقة حتى ما هو أرستقراطي

أيضاً كان شعبياً . . إن المثقفين بيننا اليوم يمتهنون حرفة تعليم الشعب ، بينما كان الشعب ، من قبل ، هو الذي يعلم المثقفين ويفتح أعينهم . لم يكن الفنان الأعظم شيئاً آخر سوى صانع مكلف نقل الصور ، والأفكار ، والانطباعات التي تلقاها من الشعب الذي يستمد منه امتلاء وحبوراً . إن مجده يستمد من رضى مواطنيه ولطفهم .

وكانت العزلة تعني الإخفاق ولو كانت عبقرية . وإذا كانت أسماء امبيدوقليس وأفلاطون وأرسطو قد عاشت واستمرت باستثناء فئة كبيرة من الفلاسفة مجهولي الأسماء كانوا يملؤون الزمن القديم الكلاسيكي ، فيجب أن نرى في ذلك مصادفة وليس نوعاً من اختيار الرأي العام .

ليس هناك فيلسوف اغريقي لم يكن يحدث عن الشرق ، ويقول إنه تلميذه : ليس هناك واحد منهم لم يولد في الشرق او يسافر إليه طلباً لاكتشاف الماضي ، أو لم يُفِدْ من العودة خاصّةً إلى زرادشت وجعله مصدراً ، كما فعل أفلاطون في أسطورة بامفيليان في نهاية كتابه الجمهورية . إن « الماجيكوس » ، حسب الحوار المزيف ، مجوسي سوري جاء عمداً إلى أثينا لكي يتنبأ بموت سقراط . ولقد رأى الشارح نيمينيوس في القرن الثاني الميلادي في أفلاطون موسى يتكلم الاغريقية . إن الفيلسوف الشهير سقراط ، في دفاعه عن نفسه الذي ألفه أكزينوفون ، يعدد الأبطال الذين يرغب في لقائهم بعد موته ، فيذكر أورفيه بين أوائلهم .

وستأخذ الفلسفة المسماة اغريقية منذ القرن السادس قبل الميلاد ، كياناً وقالباً خارج حدود شبه الجزيرة الهيلينية ، في آسيا وفي المدن الفلسطينية وفي ايطاليا الجنوبية .

وفي رأس من يمثلون ذلك فيثاغورس من ساموس ، وهيراقليط من أفسسوس ، وبارمينميد من ايليا . ونحن لا نعرف أياً من الثلاثة كان يتحمس

أكثر لأجداده ، ولكن من المؤكد أنهم رفعوا دفعة واحدة التفكير الاغريقي إلى أعلى مستوياته ، ولقد تم لهم ذلك لأنهم كانوا الأوائل الذين متحوا بصورة مباشرة من المنابع الأصلية . وإن المرء ليتساءل لماذا ولدت الفلسفة الهيلينية متأخرة ، بينما كان الاغريق على صلة وثيقة مع أنظمة مصر والأناضول وبابل القوية منذ ما يقرب من ألف سنة أو تزيد ؟ ولماذا أتت هذه الولادة متفقة زمنياً مع تأسيس مركزية دولية لسيروس أو قمبيز اللذين حكما العالم العربي كلياً ؟ إنه لسؤال يبقى من دون جواب .

ويمكن أن يكون علينا انتظار تقدم اللغة الاغريقية ، وذلك أمر ينقل المشكلة بعيداً من دون أن يحلها . وإنه لمن المنطقي التفكير أن فلسفة ذات تعبير آرامي قد وجدت لدى الهيلينيين قبل أن تستعير طريقها الاغريقي ، فمن الأصح عوضاً عن الحديث عن « فلسفة اغريقية » أن يقال « فلسفة ذات تعبير اغريقي » . إن ذلك ليجنبنا سذاجات من نوع هذه (التي نروي نصها حرفياً) : « إننا لا نعني بالتأكيد خلق شيء من العدم ، لأن الفكر الاغريقي قد وجد في التفكير الشرقي مادة واسعة موجودة من قبل ، . . . ولكن هنا خلقاً ، وظهورَ مبدأٍ جديد هو العقل . فالفكر الاغريقي هو ولادة العقل . لقد استمد الاغريق من الروح القاتمة العميقة التي وجدت في الشرق . . . لقد استمدوا العقل ، العقل كوجدان في نفسه ، وكتأكيد على طبيعته الأبدية ، العقل كوجدان في استقلاله تجاه جميع الأشياء الخارجية ، كتأكيد على حريته . الحرية ! هذا ما ولد في بلاد اليونان ، ما دافع اليونانيون عنه ضد الشرق »[١] . وليس هناك تعليم جامعي لا يكون عندنا محملاً بنوايا تبشيرية ديمقراطية ، أخلاقية ، وطائفية . فليس الفكر الاغريقي شيئاً آخر سوى درس مستمدٍ من الشرق ، أو عالم صغير وصدًى لآسيا ، فالتجربة فيه محكومة بفعل أن آسيا لم تستعر شيئاً

(١) شارل ورنر : الفلسفة الاغريقية ، مايو ١٩٦٢ .

من الهيلينية ، إنها على العكس من ذلك قد أعطتها كل شيء .

لقد أخصبت أثينا روما ، ولكنها لم تقدم شيئاً للاسكندرية أو بابل أو مكة . وأفلاطون لم يقدم شيئاً للعالم العربي أكثر مما قدم أرسطو . ولم يقدم الاغريق لليهودية ولا للإسلام ولا للمسيحية سوى طراز في التعبير والنشر . والشرق يعمل على مستوى أعلى من مستوى بلاد هيلياد الصغيرة . فلقد كان أفلاطون وبيركليس والاسكندر فيها واعين ومدركين لمسؤولياتهم تماماً ، ونحن ، وليسوا هم ، الذين جعلوا من اليونان مصدر المعرفة العالمية . فلقد كان أفلاطون يقدم نفسه ببساطة تلميذاً وديعاً ، وهو بذلك يضع ، في تيماوس على فم كاهن مصري متوجهاً بحديثه إلى صولون ، هذه الكلمةَ الأبويةَ : « أنتم أيها اليونان ، لستم إلاّ أطفالاً » .

لنأخذ الحقيقة إذاً بالمقياس الصحيح للأشياء ، ولا نكونن ملكيين أكثر من الملك فالحقيقة إنما هي ببساطة على الشكل التالي :

إننا ، بوساطة الاغريق ، مبسطي أسرار الشرق ، قد زودنا التلاميذ بالتعليم ، الذي كان في مصر وفي آسيا مقتصراً على الكهان ، والجمهور بشكل عام ، كان ، كما كان الأمر في عصر جلال الدين الرومي ، أو في جامعاتنا في القرون الوسطى .

إن أفلاطون ، وأشباهه من المنظمين والجمّاعين ، لم يؤلفوا كتباً إلاّ على « طراز من سبقهم » لقد كانوا شارحي عبقريات أمثال توماس الأكويني أو الغزالي . ولقد استخدمنا مع الأسف مجدهم لكي نحجب منظر آفاق الشرق التي لم تكن سوى اللسان الناطق المبجل .

إننا ، ونحن ندرس فيثاغورث مثلاً ، سنكون معرضين بسرعة لفقدان الرؤية الدقيقة ، لأننا لا نعرف تقريباً شيئاً عنه ، ولا نملك ، هنا وهناك ، إلاّ بضعة نصوص ، قدمها لنا كل من انبادوقليس وفيلالاوس ، وأفلاطون

وأرسطو ، أو ديوجين ، ولآيرت . إن أفلاطون لقب يعني الصارخ البيثاري[1] ، أو « صحفي بيتون » ، أو الأحسن محامي أبولون « وهذا ما يفسر لنا التقليد الشعبي الذي يحكي ـ حسب هذا التقليد ـ أنه سيولد من عذراء تنيرها الشمس » . ولأنه آسيوي ، وربما من أصل فلسطيني ، كان له ألقاب تقدير بأنه ابن الإله ، وكاهن الأورفيه ورئيس مدرسة . لقد التقى خلال عشرين سنة أساتذة طيبة وممفيس . وماذا كان يعلّم ؟ لا شيء سوى الإنسانية الشرقية . يعرف منذ مدّة طويلة : أن « الإله ليس له جسم ولا رأس بشري ولكنه فكر مقدس يفوق الوصف » . ذلك أن الجسم عرضة للهلاك والروح خالدة ، وإن المرئي يحمل معه اللامرئي ؛ وإن تناغم الكون واحدٌ لا يتبدل ، أي أن ممالك المعادن والنباتات والحيوانات تتداخل ، وهي محمولة في حركة العناصر الأربعة الأبدية الماء والهواء والتراب والنار ، وإن هذه الحركة لأنها أبدية ، فإن الموت والولادة يمتزجان بالضرورة أحدُهما بالآخر ، وفي ظل هذه العقيدة راحوا يؤمنون بتناسخ رومانسي لقط يصبح طائراً بعد موته ، أو بتحول وردة إلى سمكة . إن فيثاغورث لا يقول شيئاً مشابهاً لهذا ، إنه يكتفي بالتأكيد على أن الجسم ، وهو يتلاشى ، يحرر مبدأ خلوده الذي يعود إلى الكون الواسع الذي لم ينقطع عن أن يكون على صلة قليلة أو كثيرة به . إن صعود الروح إلى الجنة اللامحدودة سيكون أكثر سرعة وسعادة من كون الروح « داخلة في الرحم » منذ حياتها الأرضية . ويجب أن تكون الروح قد شربت ، على الإجمال ، قبل موت الجسم ، سِرَّ الموت الذي بدونه لا وجود لحياة أزلية ، ذلك أن الحياة الأزلية رقم . وأي رقم ؟ إنه رقم السماء بالطبع ، الرقم الذي يعطي القانون لحركات الكواكب والشمس ، إن هذا الرقم الثابت ، الحاد ، الوحيد ، موزع الأعداد المكلفة تنظيم سير الكائنات والأشياء ؛ . . . إن هذا

---

(١) الالعاب البيثارية : مهرجان اغريقي كان يقام في دلف مرة كل أربع سنوات تكريماً للإله أبولو .

الرقم هو النتيجة الإلهية المعادلة للتوازن بين جميع قوىٰ الكون الفاعلة . إن فلسفة فيثاغورث لكونها ديناً كوكبياً ، وعلماً رياضياً ، وفلسفةً ، تعرض إذاً على شكل صورة هندسية تحركها قوانين أزلية . أما الروحُ فعليها أن تغدو هندسية إذا أرادت أن تتحول دفعة واحدة إلى صورة سماوية . وما إن تتحرر من الجسم ، حتىٰ تصبح غير موزونة ، مسؤولةً عن أعمالها البيض أو السود ، ولكنها تغدو مقيسةً بمثلث أو فرجار ، قبل أن تملك الحق في سكون الفضاء المطلق . إن الخطيئةَ تعرّف بأنها فقدان توازن أو انحراف في الخطوط . إن مفهوماً مجرداً عن الماديات كهذا المفهوم عن الوجود لا يمكنه بالتأكيد أن يمنح أقلَّ مكان لعلم النفس ، أو إلىٰ العلوم المسماة بالعقلية التي يعتمد عليها عصرنا . إنه في صفائه هذا يلتقي مع الرؤية المعمارية ، والأهرامية التي كان المصريون يستمدون منها نظامهم الحياتي . فلقد كانوا يدفعونَ بعيداً جداً ، وهم سادةُ الأعداد والهندسة السماوية والأرضية ، فنَ الحساب الذي كانوا قد جعلوا منه علم التنبؤ . إننا نجد في المثل العربي : « يجب أن تشرب الروحُ الموتَ قبل الموت » ، صيغة لم ينكرها فيثاغورث الساموسي ، الذي كان الجمهور ينتظره « إنه الكلمة المنقذة » كما أعاد ذلك تلميذه أنبا دوقليدس من أغريجانتا في موجز (التطهيرات) :

إنني أحييكم يا أصدقائي . ها أنذا : لقد أتيتُ مخلِّصاً إلى الأبد ،

من الموت ، هذا الإله الخالد .

فليبجلني الجميعُ كما ينبغي لي أن أُبَجَّل ،

ولتتوجني الشرائط ولتفتح

الأكاليلُ أزهارَها من أجلي .

وعندما يرافقني عبادي ، أدخلُ ،

المدن المزدهرة ،

ويغمرني الرجالُ والنساء بالشرف .

وهم يسيرون في إثْري .

وهؤلاء الذين أغمدوا في أنفسهم .

مُدىٰ الألم ،

يريدون معرفةَ كلمتي .

التي تُنقذهم من جميع الأمراض .

إن الفلسفة الاغريقية لن تتخلص أبداً من الهندسة ومن تمجيد الرقم . ففي ظل نظرية الحَدْسِ استطاع العلم المماثل أن يبحث عن طريق مماثل . مع فرق جدير بالاعتبار . ففي رده السلبي على تعليم فيثاغورث ، كان العدد بالنسبة إليه ، مفتاح التعويذة بمعناها الصحيح ، أي أن العلم الحديث بمروره تحت قبة السماوات ، يريد أن يهتدي ويرى في العدد نهايةً في حد ذاتها ، وفي المؤقت العابر الأرضي أمراً عقلياً مطلقاً ، وهذا تناقض في التعبير . وإذا كان تفكير فيثاغورث ومعماريي الأهرامات قد تجاوز مهندسينا ومربينا فلأنه يؤكد على النظام الفني ، وعندما يختبىء تحت التحرر الظاهري لمعلمين فوضويين ، فإنه يلتجىء دائماً إلى المثلثات ، وإلى الأقواس ، وإلى الدائرة ، وإلى القسم الذهبي ، إننا نعرف التقدير الذي كانت العصور الوسطى تحمله للمخمس ، صورةً تامة ، وجوهراً إلهياً ، أليس هو الصورة الثانية لنجمة المجوس ذات الفضائل الخمس المنطلقة في أغصانها الخمسة ، التي هي « المادية ، والعقلية ، والفكرية ، والعقلية ، وفوق الجوهرية » ؟

وسيكونُ الرياضيُّ الشهير من القرن الثالث عشر كامبانوسُ من نافار ، شارحَ اقليدس ، الموحي لدليلين في عصر النهضة ، البيرتي ، والأسقف الفرنسيكاني لوقا باتشيمولي . لقد أهدىٰ هذا الأخير مؤلفه الشهير « النسبة

الإلهية » إلى لودفيك المراكشي وأخذ ، لحسابه ، نظرياتِ فيثاغورث المعروضة في تيماوس أفلاطون .

إنه سيسمي فنَّ البناء النسبة الذهبية مرقمة في معادلة تحقق هذه النسبة مقترنةً ، عنده ، بأمر خفيٍّ ، ثابت وغير معقول . إنه على صورة الثالوث المقدس ، كما يقول ، وأنها وحيدة وتنتمد من « العلم السري » وإننا لنأسف لأن هذا المؤلف الفيثاغورثي ، والمنشط بالإيمان الفرنسيكاني ، لم يترجم بعد إلى اللغة الفرنسية ، أنه يشهدُ ببلاغة على استمرار ثقافتنا بتقليد لم ينقطع ابداً فيه اجتماعُ الألوهيةِ والمعرفة . لقد كان على ليوناردو دوفانشيُ ، بعيداً عن توفيقاته الرياضية المسدسة السطوح ، ومجسماته المربعة السطوح ومرتسمات مخروطاته . . . كان عليه بالتأكيد أن يميِّزَ في صفاء وجه الله . إنه هو أيضاً تلميذُ الرقم ، والمعلمُ من ساموس .

وإذا كان لفيثاغورث أبٌ روحيٌّ هو أبولون وهيراقليط الافسوسي ، فإن ثاني أخوته سيخصص لهيراكليس ، كما يدل على ذلك اسمه . لقد تلقى كل منهما تعليم زرداشت ومدارسه الفلسطينية .

إن السلالة الروحية لا تتنكب الطريق . والمدينة التي ولد فيها لم تكن مدينة آسيوية من آسيا الصغرى فقط ، بل كان لديها منذ وقت مبكر « ملوكٌ من ايونيا الذين كانوا يحتفظون بألقابهم حتى في عصر المسيح » .

ولأنهم كانوا أولاً أعداء فلسطينيّ صور وصيدا ، والحثيين ، والبابليين ، فإنهم كانوا في عصر هيراقليط الحلفاءَ المخلصين لملك فارس الكبير . لقد كان لهم الحق في معطف أرجواني اللون ، وفي عصا الملك ، وفي رئاسة أسرار ايلوزيس . فقبل الإسلام بألف عام كانت فلسفة هيراقليط تعبيراً عما يسمى (المكتوب) .

إن مفتاح وحدة الكون يوجد في اللوغوس ، « العقل » . إن هذا العقل يسود ويطبع كل شيء وكل مخلوق بقانونه الحاد ، وهو يستثني كل حرية ،

وكل إمكانية للمصادفة : « هناك بالتأكيد قوانين للقدر » . « إن الشمس لا تستطيع أن تتجاوز المقايس إذا لم تستطع الايرينيس ، خادمات الحقيقة ، الوصولَ إليها » . وإنه لباطلٌ الادعاءُ أن الإنسان يمتلك موهبة خاصة تسمح له بفهم مصيره أو على الأقل بتعديله ، « فالإنسان محروم بالطبع من عقله » . والفكر والسلام هما من نظام عالمي وليسا من نظام فردي . وإن حكمهما ، وشخصيتهما ، وأصالتهما ، وتفكيرهما الخاص أمور كلها وهم ، لأنه كلام أدق في « نحن ليس لنا وجود » . والإنسان له وجود وحده دون معرفة ولا جدارة ، إنه النار وهي وحدها التي ، في تقدمها ، ستحكم وتحمل معها كل شيء « فحيث يوجد الإنسان لا توجد المعرفة محبوسة فهي موجودة حيث يوجد الله » . وقلائل هم الفلاسفة الذين عبروا بأكثر من سخرية وكراهية لخيلاء الإنسان . إن باسكال وحده هو الجدير بالمقارنة بهيراقليط في تعجبه المشهور « يا الله ، كم هو مفرّغ ومملوء بالقذارة قلب الإنسان » . والافسوسي لا ينفك يصب اللعنة : « إن أعقل الناس ، إذا قيس ، إلى الألوهية ، بدا قرداً . ومعتقدات الإنسان : تسلية الأطفال » يبقى للإنسان إذاً أن يخضع ، أن يستسلم للإله ، أي ـ باختصار ـ أن ينام لأنه لا يستطيع أن يحمل تحدي ما لا مفرَّ منه . ولكي نكون أكثر دقة ينبغي أن نقول إن الفكر في نظر هيراقليط غريب تماماً عن الوجود وعندما يكون أمام الافسوسي محاور يفتح فمه ليندفع في الطريق العقلي ، ويقول لنفسه بأنه على صلة بإنسان تافه ، أو بإنسان مخادع . « إن الناس في نومهم يحلمون بأخوة من أجل مستقبل العالم » .

إن الإله ، لكونه مولجاً بتنظيم وترتيب متناقضات المكان والزمان ، يستوعبها في طبيعته التي هي في الوقت نفسه ، متحركة وتعارضية .

إن الإله نار لأنه وجدان سرمدي ، والإله معركة كما هو في معتقدات آنو وايبا حيث يكون كل خلق نتيجة نزاع شامل ، إن الإله لا يدركه العقل لأنه مطلق . إن أفروديت مثل عشتار وعشتارته ، ظلام ونور ، مثل اوزيريس وإله

هيراقليط « وحدة التناقضات » ، إن ما يتناقض ، وهو يتكون أزلياً ، يثبت . « فلا الظلمة ولا النور ، لا الشر ولا الخير لا يختلفان ، إن طبيعتهما واحدة ومتجانسة » . « فالحياة من الموت ، والموت من الحياة » هذه هي صيغة هيراقليط الشعرية التي سيأخذها ، من جديد ، القديسُ يوحنا من الصليب . ومن المؤكد أن الخوف من الشيء غير المشروح قد أفقر وجود الناس . إنه يزمع تغيير هذا الخوف إلى عبادة ، وتعليم الناس محبة القدر المحتوم واعتبار أشد المهمات قسوة أمراً عادلاً أي باختصار تفضيل المعركة على النصر ، لأن « الإنسان سينجو على كل حال من النار المحسوسة ، ولكن لن ينجو البتة من النار المعقولة » .

إن هيراقليط حسبما يروي صولون ، قد تأثر باسطورة إيزيس واوزيريس ، فالقمر والشمس معروضان لديه في الحقيقة رمزياً بقاربين ، كما هو الأمر عليه في مصر . أما ديانة النار الزرداشتية ، وهي نظرية المتعارضات العزيزة على الفكر المصري ـ الرافدي ، والتي محاها الإسلام بإيمانه بالله الكبير فتفتش عن الانسجام الكامن والمخبأ ، الذي يتجاوز التناغم المرئي ، الارتيابي المؤكد للإيمان ، تلك الديانة التي يتماسك فيها كل شيء ويكتمل لدى هيراقليط الافسوسي . وإنه لمن المؤسف أن مؤلَّفَه قد وصلنا مزقاً متفرقة ، يرويها قارىء ثان ، وترميها في الظلمات انقاطعات مفاجئة توقظها هنا وهناك صرخة من أعماق العصور : « إن الإلهة سيبيل التي تهذيء بفمها الهاذي ، وبكلمات حادة بفجاجتها الحريفة ، تجتاز بصوتها آلاف السنين بوساطة فضيلة يبعث الإله فيها الحياة » . فالشمس أبدياً ، تعود إلى عقل هيراقليط ، منبعاً وسيدة ، وآمرة . « الشمس سيدة ، وحارسة الثورات الدورية ، تحدد وتوجه ، تظهر وتكشف التحولات » إننا نظن أننا نستمع هنا إلى فيثاغورث . « الشمس جديدة كل يوم لأنها توزع السلطة الديونيزية » . لكأننا نسمع تلاوة قصيدة أورفية . وآسيا حاضرة هنا بشكل جيد وليست اليونان إلاّ في الكتابة . إن تلاميذ

هيراقليط المعاصرين . ولنبدأ بهيغل المستفيد من تقديم هيراقليط لعمله . . . إن هؤلاء التلاميذ قد ذهبوا يصطادون هنا وهناك بضع صيغ قوية خاصة لخدمة قضية الماركسية ، والاشتراكية ، والجدلية الأكثر عقلانية . وإن من التعسف الاعتقاد بان هيراقليط هو أولاً مؤمن ، إنه على العكس من ذلك مفكر .

إن تأكيداته تصدر عن حقائق حساسة متجانسة ، مع رفض أقل عمومية من كل مسعى عقلي ، إنها تتجاوز القيمة عنده مع الصفر . إنه على الأصح مسلم ، قبل الرسالة أكثر مما هو سلف للينين .

والفيلسوف الثالث بين الفلاسفة السابقين لأرسطو ، ليس بالطبع آسيوياً ، ولكن أسرته تنتمي إلى مدينة ايليا في مقاطعة لوكانيا ، في الأرض الاغريقية الفلسطينية ذاتها التي اجتازتها مؤثرات أوتروسكية . ولأنه معاصر لهيراقليط ، فإن فرضية تعاليمه تعتمد على هذه البديهة : « الكائن موجود ، أما غير الكائن فغير موجود » . فالكائن ، منذ اللخظة التي يوجد فيها ، ولأنه لم يكن مخلوقاً من قبل إنَّ هذا يعني أن المخلوق لا يدوم لأن المخلوقات لا تعقل . ولأن الله ثابت لا يتغير ، كامل غير ناقص ، ومنيع يتعذر انتهاكه ، فإنه مكون في رأي بارمينيد ، من قِبَل فلك رمزي ثابت ثباتاً مطلقاً . وبما أن الثبات واضح ، فالحركة ليست إلاَّ تسلية ولهواً . وبينما يعرّف فيثاغورث الحقيقة الشاملة بأنها قوة جبرية ، فإن هيراقليط يعرفها بأنها إرادة ، وبارمينيد يعرفها بانها رؤية ميكانيكية : فالعالم مؤلف من عجلات مهتزة . ولقد عارضنا نظريته عن الكائن المحدود في صيرورة هيراقليط . وذلك لعب على الألفاظ ، لأن كل شيء يتغير بالنسبة ليهراقليط إلاَّ التغيير فإنه لا يتغير ، فليس هناك بالنسبة له حركة إلاَّ في داخل تماسك تام لا يمكن أن يتحرك في أية حال ليصبح غير متجانس . إن مبدأ المبادىء عند أحدهم ، كما هو عند الآخرين ، مبدأ يبقى نار زرادشت ، أما فيما يتصل بالكرة الأرضية لدى بارمينيو فإنها تتشابه مثل شقيقة في صورة

سماوية لفيثاغورث نفسها مستوحاة من البيضة أو رفيه ، والخط المنحني التام والخلاق .

وتلتقي الأطراف أيضاً عند بارمينيد ، وتتنافى التناقضات في مركز حلقات النار هذه ، وهي رموز ديناميكية للكون . وتمكث « الإلٰهة الملكة » ايروس أو افرديت ، عنصراً مذكراً ومؤنثاً في آن ، نوراً وظلمات ، على مثال عشتار :

ويوجد تحتَ الأرض طريقُ الخوف ،

عميقٌ ، وَحِل ، يقود أحسن من أي طريق آخر ،

إلىٰ امبراطورية أفروديت الساحرة بألف قربان .

وهو نفسه قد لاحظ أيضاً أن نجمة الصباح ونجمة المساء هما نجمة واحدة هما النجمة نفسها . وإذا ما تركنا طرف الثوب الشاعري الذي يلبسه الفلاسفة الثلاثة الذين سبقوا سقراط ، سنرى بوضوح أن الثلاثة يتعلقون بالشمس ، وبالخلود ، وبالتجريد الأعظم ، وبالحياة السرمدية ، وبالمفهوم غير المجازي للكون ، الذي جوهره مصعّد حرفياً في أمر لا يعبر عنه .

وإذا كانوا يدعُونَ ، على الرغم من كل شيء ، لصور تشرح هذه الحقيقة الاستعلائية ، فكما يفعل موسيقي يستعمل صوتاً لكي يضع علامات لحن للسكوت ، أو كما يفعل شاعر يعرض كلماتٍ بعضُها فوق بعضها الآخر ، بهدف الايحاء بما يمكن التعبير عنه . فلكي تدخل فلسفة قلب شعب وإدراكه ، يجب أن يجعلها حساسة وبصورة مبسطة ، وبخاصة عندما يكون على صلة بها ، كما هو شأن الفلاسفة الفيزيائيين الذين هم أيضاً موسيقيون وشعراء .

والحقيقة ان الشرح الأكثر جدية في تفكير فيثاغورث ، وهيراقليط وبارمينيد يجب أن يبحث عنه في منبع أفكارهما : في كتاب الموتى المصري ، في نصوص فلسطين المقدسة وفي نصوص ما بين النهرين . ذلك ان الطبيعة

الحقيقية لمنهجهم باعتبارها ذات طبيعة غنائية ، تهرّب من منطقنا المتعقل إلى أكبر حد ، وأكثر من السريالية بالنسبة للتنظيم الكلاسيكي . إن لغتنا تسجننا ، وقلقنا في الشرح يقودنا إلى التحليل بافراط حتى نكشف الفروق ، والنظريات الصوفية ـ الفلسفية التي تُتَناولُ عن قرب ، ولا تستمد ميزتها الخاصة من تفاصيل صغرى . إن شراح العهود القديمة ليسوا أكثر تدقيقاً منا ، إن أحدهم ، وهو هيبوليت ، اسقف أوستي ، في القرن الثالث ، يكتب مثلاً : « إن بارمينيد نفسه أيضاً ، يؤكد أن الكل واحد ، وخالد ، وغير مولود ، وكرويّ ، ولا يشاطر توزيع معتقدات غالبية الفلاسفة الخاطئة ، فلاسفة هذا الزمن ، حين يجعل من النار والتراب أصل كل شيء ، فالأرض مادة ، والنار سببُ الخلق ، والفاعل فيه »[1] . إن الحوار الذي أعطاه أفلاطون العنوان التالي « البارمينيد » والذي يجمع في قصة خيالية أدبية سقراط ، وبارمينيد وتلميذه زينون ، ينتهي باتفاق عام بين جميع المتحادثين ، بين ثرثرة باهرة ، مملوءة سخرية (بوجود ما ليس موجوداً) ولا وجود لكائن ، وكل يعترف بأن خصمه على حق . . . فكل شيء قد كان في كل شيء ، والعكس بالعكس .

والحق أن ابتسامة دائمة تسري من طرف إلى آخر في مؤلف افلاطون . أمن الممكن أن نأخذ أفلاطون بجدية أكثر مما يأخذ نفسه بنفسه ؟ ألا نفتضح في طرح مثل هذا السؤال ؟ وماذا تخبىء الواجهة المسرحية لهذا الصوفي المذهل ؟ إنه ليوجد شيء من هاملت في سقراطه ، أو شيء من دجال مشعوذ ، أليس للدجل عبقرياته ؟ والتيارات التي أخصبت الشرق والغرب لا تدعي الأفلاطونية أو الأرسطالية أو الرواقية ، ولكنها تدعي أسطورة ايزيس وبعل ، عبادات الشمس ، الأورفية ، الاخفائية الرؤيوية[2] الفلسطينية ـ

---

(١) إن مختارات بارمينيد وهيراقليط مأخوذة من مؤلف ايف باتيستيني : (ثلاثة معاصرون) المطبوع لدى غاليمار عام ١٩٥٥ .

(٢) المتعلقة برؤيا القديس يوحنا التي تتميز بوصف مذهل لنهاية العالم .

الأناضولية ، اليهودية ، المسيحية ، الإسلام وبعضها يفسد البعض الآخر في تقليد عفوي غريب . إن الأفلاطونية ، كشراع حملته التيارات الدافعة القوية ، قد تبعتها ، ولكنها لم تفحصها . إنها لم تخلق شيئاً ما ، لأن عمل الخلق قد تم في الأعماق من قبل الآلاف السابقين . ففي أعمال السكوت والتأمل في الديانات الكبرى ألف عمل سياسي ، جمالي ، وصناعي أو روحي ، تكنيكي أو خلقي ، ولكن لم لا يوجد البتة على سطح التأملات الفلسفية ، أشياءُ أفلاطونية .

إن وجود أفلاطون هو دون شك أكثر اهتماماً من رسالته الفلسفية التي تشكل ، إذا أمكننا القول ، تراكيب صنعتها رسالات ما قبل سقراط . ولأنه تلميذ هيراقليط ، والأورفيه وفيثاغورث انطلق يكمل تعليمه في مصر حيث أقام طويلاً ، وفي ليبيا حيث تعلم في سيرانايكا على الفيثاغورثي تيودور ، وفي صقيلية (صقلية هذه التي ستلازمه طوال حياته) ، وفي ايطاليا المتوسطية بالإضافة إلى البلاد العربية التي كانت متأثرة كثيراً بالسياسة وبالفكر الفلسطينيين . ولقد اشتراه وحرره ليبي بعد أن بيع عبداً خلال الحرب بين ايجين وأثينا وأسس بعد عودته إلى وطنه ، الأكاديمية وأنهى حياته في التبشير بالفلسفة في شوارع أثينا ، مشاركاً في المنازعات السياسية التي أثرت في اليونان كثيراً في مفتتح القرن الرابع . لقد كان عمله الفلسفي ، المنشور في وقت متأخر ، وفي أساسه ، مؤلفاً حول شخصية خيالية أو نصف خيالية تدعى سقراط ، وهو نسخة دقيقة من الأبطال الكبار الأسطوريين أمثال هيراقليط ، وجاسون ، وصولون ، وتيرسياس . إن تراث أفلاطون ، في مجمله ، مأثرة سقراط كما كانت الأوديسة مأثرة أوليس . أو بشكل آخر ينبغي القول أن فكر معلم الأكاديمة هو صيغة ملحمية ، وشعبية وأسطورية . إن المحادثة الفلسفية لديه دائماً مسرحية ، وهي تجمع زعماء قضايا من نوعية مثالية تبقى طبيعتهم مجردة ورمزية لأنهم أشخاص يحملون أرقاماً على طريقة الآلهة ،

ويشاركون في لعبه أشباح هادئة ، وفي قوانين سينكية ديونيزية كما كان قد فهمها واحتواها اسخيلوس أو سوفوكليس ، إنَّ بطال أفلاطون يتكلمون ويحركون فكرهم على مسارح زاد الشعر من ارتفاعها . إنها تشهر طقساً وعادة . ولا شيء يشركها بدروسنا في الفلسفة المجهزة في إناء مغلق ، وتحت غطاء عقلانية غنوصية . إننا هنا ، على العكس ، في غمار قداس . فإلى جانب هؤلاء الذين يتناقشون أو يتأملون عالياً ، يقف أفلاطون ، وديونيزوس ، وديمترا ، وافروديت و« الآلهة العظام » ومينوس ، وأورفيه . إن الأقوال الملفوظة تحمل في الغالب ، معنيين أو ثلاثة معان ، فأبواب المعرفة مفتوحة فقط تحت أشكال موحى بها ، ولكنها ليست واضحة بجلاء ساطع ، ونحن نعبر عن أنفسنا بوساطة تعداد تقريبي متجانس ، بالتصحيح بعد التصحيح ، والعبادة أحياناً خفية ، لأنها تظل في الفضاء ، خوفاً من أن تفشي سراً . وهي طريقة سقراط التهكمية فالتعبير الاغريقي (التهكم) يعني أسطورياً (التشابك) أو التركيب الرقمي وهو يأتي من الفعل « جدل ، ضَفَر عقداً ، شبّك » ، لأن ذلك يعني إثارة اهتمام التلميذ إلى المعرفة لا إنارة عقله ؟ ولنذكّر هنا برمز الإنجيل . فالحوار الأفلاطوني يريد بصورة مماثلة أن يكون معمّى لئلا يتمكن من فهمه سوى الذين فهموا الترجمة . « لا تدل السماء من لا يراها » ، كذلك تقول الحكمة القديمة . إن سعي أفلاطون يبقى دينياً ، وهو نفسه يشرح ، في رسائله ، كم هما ضروريان السر والصبر الطويل بالنسبة للحدس . وهو ينصح أيضاً بأن يحترس الإنسان من ألاَّ يثبت كتابة ، حتى لا يحتاج إلى تفسير خاطىء . لقد كتب إلى دينيس السيراقوزي : « احترس من أن تندم يوماً على شيء تتركه اليوم مذاعاً بلا جدارة . إن أعظم احتراس لن يكون بعدم الكتابة ولكن في التعلم عن ظهر قلب ، لأن من المستحيل ألا تنتهي الكتابات في السقوط في الميدان العام . كذلك لم أعالج أنا نفسي ، كتابةً ، أمثال هذه الموضوعات . ليس هناك أثر مكتوب لأفلاطون ، ولن يكون هناك أثر في

المستقبل ، وهذه النصوص التي يقال اليوم أنها لسقراط هي من الزمن الذي كان فيه جميلاً وشاباً . وداعاً وأطعني : أحرق هذه الرسالة متى قرأتها ، وأعدت قراءتها » . إننا نرى إذاً ماذا ينفع سقراط ، في توثيق إخفاء اسم المؤلف مع اعطاء الحوار سعة أسطورية . فصورة إنسان ما تحمل غيابه ووجوده . والصورة في النيّر ـ المعتم لسقراط تبدو جواباً على هذا التعريف .

إن أفلاطون يقدم عروضاً متناقضة ، ويلهو ليصدم الأفكار بشكل مبلبل إلى حد يتساءل الإنسان معه دائماً إلى أين يريد أن يصل به ؟ إنه لا يستطيع أن يكون سؤالاً يلخص عملاً ، وهو يفر بشكل خاطىء ، وينقطع بالأوهام مسافات إلى احتفالات سرية مصرية أو بابلية . وإنه فعل إيمان يتخلص مع هذا منه ، ويبدو لنا الفكر الآسيوي فيه معتاداً عليه . ولعل أول ما يبدو فيه هذا التأكيد على أن الحقيقة المحسوسة ليست إلاّ صدى فكرة ما والفكرة خالدة مثل الألوهية التي تنبثق عنها ومثل الروح المتصلة صميمياً بالألوهية . ويتبع ذلك أن النفس المخلوقة على صورة الإله تعتبر أزلية ، هذه الروح المسجونة مؤقتاً في جسم زائل ، ستتنفس الصعداء بعد الموت الذي سيحررها ، كما ينشد البجع ، قبل أن يموت ، قربَه من الله الذي يستعد للقائه .

والاستنتاج الثاني يعني أن الروح تملك بطبيعتها العلم الحقيقي الذي هو معرفة الأفكار ، ويكفي إذاً أن تضع جهداً وتأملاً وتذكراً لكي تعيد ، إلى وجدانها ، المعرفةَ التي هي معرفتها الخاصة بكل خلودها ، تلك المعرفة التي إن ضلت عنها فقدت نفسها . فالروح ليست بحاجة إلى التعلم . إنها تعرف ، لأن العلم الحقيقي كائن في الأخلاق وليس في الدراسة التي يسميها باسكال « الأشياء الخارجية » . فالروح إذاً يعوقها الجسم عن الفهم . وهي كلما تخلصت من سلطان الجسم ، صعدت إلى الأعلى في سماء المعرفة حيث ستنتهي بالفناء في الله .

فالله في الحقيقة ، وهذا هو التأكيد الثالث والأخير ، ملك الكون ،

ومؤلف الانسجام والتناغم ، ونهاية سامية وعقل وحيد متعذر بلوغه بالفهم ، ومستحيل على فرد زائل أن يتأمله . إن أفلاطون ، وهو ينهي عبادته فائقة الوصف يبلغ هيراقليط وبارمينيد عن طريق فيثاغورث ، مستشهداً بوضوح بالثلاثة جميعاً . إنه في محاورة (خارميد) يعلمنا أن سقراط (وهو أفلاطون نفسه) قد كان له في الجيش كرفيق سلاح طبيب من تراقيا ، طبيب كان قد علمه تبادل الرسائل بين الجسم والروح ، ولنذكر أنفسنا إذاً ، أن أورفيه في نصوص الفلسفة القديمة كانت تسمى طبيب الأرواح أو « طبيب تراقيا » . وإنها لمرات عديدة ترد في الحوار الأفلاطوني فكرة الكرة السماوية العزيزة في آن على فيثاغورث وعلى بارمينيد ، إنها الكرة التي تحوي الثالوث المقدس « حول ملك الكون تدور جميع الكائنات ، إنه هو ، نفسه ، نهاية كل شيء وسبب كل جمال . وحول (الثاني) توجد الأشياء الثانوية . وحول (الثالث) توجد الأشياء الثلاثية » . وها نحن أولاء في قلب التقليد المصري ـ البابلي الذي نتابع أثره على مدى تاريخ الديانات الشرقية ، ثلاثية مآس ، ثالوث ، الثالوث المقدس ، المثلث . وإن أفلاطون ليعود إليه في غالب الأحيان . وهو يقسم الروح ثلاث طبقات : الرغبة الجسدية العميقة ، والشجاعة الأخلاقية ، والفكر المثالي . وإنه ليرى أيضاً الحقيقة الشاملة في ثلاث : « إن الله أول الخيرات ، والثاني الفكر المتولد عنه ، والثالث هو روح العالم ، الصلة بين الأب والابن » . ولنمسك بهذه الكلمات الأخيرة ، إنها تزن وزناً ثقيلاً في تعليم المسيحية السكو لاستيكي . وستكون عودة ، بعد أكثر من خمسمائة سنة على وفاة أفلاطون ، إن هذا الثالوث الشهير الموجود في البارمينيد تحت شكل « الواحد السامي ، الواحد المتضاعف ، والواحد والمتضاعف » ، ولقد كان أفلاطون يؤمن ، هو أيضاً ، بالنظرية المسيحية ذات الطبيعة الثلاثية : « الأولى تكشف عن أمر يجل عن الوصف ، والثانية عن الفكر ، والثالثة هي الروح » . إن الإيمان بثالوث مقدس لم يكن جديداً في عصر أفلاطون ، ولم

يجد أية صعوبة في تفسير معناه الخفي ، وهذا لن يكون إلا في أسرار ايليزوس . وإنه ليس مفاجئاً البتة أن المسيحية قد ورثت المفتاح . ولأن الثالوث مجهول بالنسبة لليهودية وللإسلام ، فإننا نستطيع أن نزعم أن كل واحدة من هذه الديانات الثلاث وهي تعود إلى نبع مشترك ، قد بقيت متعلقة بتراث خاص ومتميز من تيارات متجاورة وعوضاً عن متابعة طريق الفكر الطبيعي وشرح أفلاطون انطلاقاً من علم نشأة الكون والديانات المصرية ـ الفلسطينية ، أخذت الأمور بصورة عامة ، بالعكس ، وحاولوا البرهان بوساطة أفلاطون على المسيحية وأصولها ، وليس علينا إلاَّ أن نذكر بأن كل معبد مصري مهدى إلى ثلاثية من ثلاثة أهلة : الأول هو المبدأ المذكُر ، . والثاني مؤنث ، والثالث هو نتاج الاثنين . ولكن هؤلاء الآلهة الثلاثة ليسوا إلاَّ واحداً . الأب ينسل في الواقع نفسه في رحم الأم ويصبح في آن أباً وابناً . وهكذا يعبر عن اللاخلق والأزلية ، عن الكائن الأعلى .

ولعل أرسطو قد كان أكثر من أفلاطون ، موضوع الاستفادة المستمرة من قسم من المتمسكين بعقائد الكنيسة الكاثوليكية الرومانية المهتمة بمعاضدة آرائها العقائدية بطبيعة منطقية وبنظريةٍ في نشأة الكون تعود إلى معطيات مكتوبة . إن فلسفة أرسطو المقلدة في نظام متكلّف مموَّه قد فرغت من جوهرها الحي لتشكل هيكلاً مقدساً للسكولاستيك .

لقد أراد باسكال في واحدة من أفكاره الرئيسية أن يجعل الكنيسة ماء الحياة للإيمان ، فطرد أرسطو لكي يحل المسيح محله . على أن باسكال مع الأسف ، قد غلب في النهاية بمذهب ديكارت وبالفلسفة المدرسية . فلقد كان أرسطو ، المُعاد النظر فيه ، والمصحح من قبل الجامعة ، قد جُرِّد من ثقافته الآسيوية ، وعُزل عن مجتمعه الخاص ، ثم وضعت صورته ، كمادة زخرفية ـ في مدخل معبد الأفكار التراثية . . إنه لأرسطو مزيّف . . وإنّ واحداً من المسؤولين (النابغين عن هذا التزوير) لم يكن بسوى توماس الأكويني الذي

كان موقفه المعارض كلياً لما هو وثني ، وعقيدته اللاهوتية ، يشهدان على انكفاء الفكر هذا ، الذي نستطيع أن نسجل له ، وفي عصره بالذات ، تاريخ التحريف القاطع للطبقات المسماة (مفكِّرة) . وإذا كانت القيم الأكثر غنى للإنسان قد استطاعت ـ مع هذا ـ أن تدوم وتزهر في الفن العظيم للنهج الرومانسي ، فلسببٍ واحدٍ ، وهو أن الشعب ، والشعب وحده ، قد توصل ، وبواسطة الإيمان البدائي الذي كان يحياه ، إلى انقاذ الجوهريّ في الإرث العربي ـ المتوسطي ، حين وقف ضدَ رياح التفكير المدمر ومستنقعاته . . إن الشعوبَ في الحقيقة تتحدى بغريزتها الأنظمة العقلانية المتطرفة لأن جهنم في نظرها هي عالم التعقيد ، ولأن السلام عالم المسلّمات البديهية : أليس التفوُّق الجريء للجاهل على العالم مؤكداً ألف مرة بحكمة الشعوب ؟ ففي رد الفعل الملائم على التعاليم المدّعية المفردة لعقلانيةٍ متفحمةٍ تمهد للموت العقلي ، تعود الشعوب إلى الطبيعة التي يلجأ أساتذتها إلى التفكير في التحرر منها . . . إن هؤلاء الأساتذة لم يكونوا يريدون أن يحتفظوا من أرسطو بأكثر من منهج صارم معرضين عما كان في لب حياته ولب نتاجه : أي عبادة الطبيعة والمخلوق في تمجيد الألوهية .

لقد أعاد أرسطو في احتفاظه القاسي ضد التجريد المفرط ، إن لم يكن لدى أفلاطون فعلى الأقل لدى تلاميذه ، أعاد أرسطو الإنسان إلى الأرض مجسداً في فلسفة ذات طبيعة حادة جداً ، طبيعةً تتمثل فيها القوى الحيوانية والنباتية والمعدنية سادة الإنسان ، وليس موضوعات تأمل طيّع . ذلك أن الفكرة والغريزة لدى أرسطو مصونان ومشاركان بقوة في توازن طبيعي متماسك . فلا تعرف سعادة بالنسبة إليه في مجتمع يرفض القانون الطبيعي ، لا يصبح حساساً لديه ومتواقتاً وجود السماء والأرض والبحر والناس والحيوانات والأشجار . وها نحن أولاء عائدون مع أرسطو إلى جنة الديانات النباتية والحيوانية للديانات المصرية ، والفلسطينية والاغريقية ، هناك حيث

كل حيوان إله لأنه ينبثق عن الله ، وحيث كل حجرة جديرة بعبادة ، لأنها دليل الخالق وشاهد عليه . إن قدر الإنسان هو في هذا التزاوج مع الطبيعة ، وهو الشكل الوحيد لإعادة تنظيم الخلق . فالحياة أخذ متعة الحياة وسط الكائنات التي نعرف قوانينها الداخلية . ينبغي إذاً أن نتعلم لكي نعرف ، ولكن لنتجاوزها في الفلسفة أي في معرفة السبب والغاية النهائية . إن العلم يدرس الكائنات . أما الفلسفة فتدعى دراسة الجوهر والكائنات مصنوعة من مادة تشكلت من صورة ، ولكن المادة نفسها تنفلت من كل تعريف وإدراك جسمي ، ولا توجد إلاّ بفضل الصورة التي هي انبثاق والتي تشكل ماهيتها ، وجوهرها الأولي والأزلي .

إنَّ أرسطو قريب جداً هنا من أفلاطون ومن نظريته في المثل : فالروح صورة الجسم ، وهي دائمة خالدة وإلهية في أسمى أقسامها الأثيرية ، الذي هو العقل .

إن فرحه لغي الاشتراك مع الكون كله في تأمل الله ، المحرك الأزلي الواحد والثابت في الكون الذي كماله ابتهاج حقيقي . إن أرسطو في مبادئه وفي رؤيته الشاملة للفلسفة ، على بعد أصبعين من فلسفة هيراقليط الذي يستطيع إن يقدم له معيار النغم ، باستثناء النغمة السعيدة التي تصنع من الطبيعة ومما وراء الطبيعة ، ومن العرقية في نيكوماك ، أغنيةً تجسد الخالق . ويبقى هيراقليط أكثر غموضاً في تأمله ، وكذلك في أكبر قسم من آثاره (لئلا نقول كل آثاره لأن الكثير منها قد ضاع) . وهذا ما يميز أرسطو من غيره من معلميه وسابقيه ، إنه محاولة عبقرية لإعادة اختراع المراحل ، والطريقة ، وطبقة خلق العالم ، وهو يعيد ، انطلاقاً من دراسة ممالك المعادن والنباتات والحيوانات ، يعيد بناء شجرة النسب الشاملة ويصعد مرة ثانية شيئاً فشيئاً حتى المحرك الأعظم الذي يظهر أنه يعرف سره .

إن عمله ليقدّم لنا إذاً وكأنه نظرية في نشأة الكون معكوسة . إن أرسطو نطلق من المخلوقات إلى الخالق ، بينما يذهب هيزيود وارفيه أو الأجداد

الكبار من ما بين النهرين من الإله لاكتشاف المخلوقات من بعد . ولعل هذه الخطوات تبدو متعاكسة بصورة ظاهرية ، فالأولى تظهر بترتيب علمي وعقلي ، بينما الثانية ، وهي خطوة ما بين النهرين في الألف الثاني ما قبل الميلاد تبدو متحركة عقلياً ، وتمتلك حركة الإيمان ، أي الحدس من أجل الاندفاع ، ومع ذلك فإن أرسطو لا يبحث أبداً عن الإله ، إذا لم يكن قد وجده ، وفلسفته التي هي أنشودة الفرح ذي المغزى الكبير ، مشبهة هذه القياسات المنطقية الكلاسيكية التي توجد حتى في صياغة النظرية . ولأن أرسطو تلميذ الشرق انطلاقاً من أفلاطون ، فإنه إلى الشرق يعود مرات عديدة وخاصة إلى إسوس في آسيا الصغرى حيث يبقى أكثر من ثلاث سنوات ، قبل أن يمكث في ليسبوس ، الجزيرة الأورفيّة ، والمركز العالي للغنائية الخفية .
وإننا لنتساءل لماذا يمتح العلماء من تفحصهم عمل أفلاطون ليجدوا فيه أرسطو أقدمية كانت مرادفاً لازماً للسببية . إن الآثار التي أثرت في أرسطو ليست كلها بعيدة عن هذا ، إنها أفلاطونية . فهو نفسه قد رجع إلى المنابع ، وتأثر بالمناخ الديني العام لشعوب الشرق المتوسط ولم يسلم من تلك المؤثرات أيّ فيلسوف أغريقي ، وكل واحد منهم قد تصرف حسب مزاجه الخاص ، ولكن بدون أن يغير شيئاً في الملامح المصرية ـ الفلسطينية مغّلفة الكائنات والأشياء . ولماذا لا نطبق ذلك في آسيا وليس في اليونان على عرّابي أرسطو ؟ إن السؤال الذي ينبغي أن يطرح ، بدون كلل ، على هؤلاء الذين يضيقون التاريخ في الدائرة الأوربية ، ويخفون في الظلام عدداً كبيراً من المناطق والبلاد التي حملت النور إلى أوربا . إن كليارك من سولس قد علمنا مع شراح آخرين ، أنه كان لأرسطو إبّان إقامته في تراود عدة محاورات فلسفية مع السوريين ، فالكتاب الخامس من كتاب ما وراء الطبيعة يؤرخ بمروره في إسوس وفيه يحس تقديراً حماسياً لزرادشت . على أن أرسطو مثله مثل أفلاطون لم يكن ليحدد نشاطاته أبداً في التبشير الفلسفي ، لقد اهتم كإنسان فطنٍ بالسياسة واشترك مع هيرمياس طاغية

مدينة آتارني الذي كان له من جهته علاقات جيدة مع فيليب المقدوني ، بحيث إنه عندما شرع الاسكندر الشاب في غزوته الآسيوية كان أرسطو مستشاره ومرشده . وعندما أعدم هيرمياس بأمر الحاكم الفارسي بتهمة مؤامرة ضد السلامة الداخلية للدولة ، كان الفيلسوف الموجود عندئذ في بلاط بيلاكمرب للاسكندر ، وهو الذي نظم تأبينه مشبهاً أياه بأبطال الأسرار المقدسين ، كهيراكليس واجاكس وأخيل . فما هو الدور الذي يقوم به على وجه الدقة خلال غياب الاسكندر في آسيا ؟ إننا نجهل الإجابة . لقد مكث في أثينا حيث أنشأ المدرسة المشائية في الليسية ، ثم انزوى في خاليس حيث قضى بعد سنة فقط من موت تلميذه في بابل .

إن الطبيعة المزدوجة الطبيعية والخلقية للفلسفة المسماة فلسفة الأكاديمية الأثينية والليسية ، تكشف عن نفسها بوضوح عند خلفاء أرسطو ، بعضهم يلح على الفيزياء ، والآخرون على الأخلاق . إن مدرسة ليبيا العربية تهتم بتأثير منهج انتيستين واريستيب من يرينايكا بتنمية دور الحواس ، واللذة والألم ، معرّفة السعادة توازناً بين مختلف أقسام عضويتنا .

ويتعلق ديموقريط بالمهفوم الحسي هذا ، وكذلك الفيلسوف الأيوني ابقور من ساموس الذي ، يتعلق بكون بارمينيد الهندسي ، الذي يراه كاملاً . وبينما يقصر بارمينيد حدود تحليله هنا ، يدفع أبقور بعيداً دراسة العناصر المكونة للعالم التي يراها في شكل غبار ذرات تتعذر قسمتها . إن هذه الذرات لا تتوقف البتة عن تركيب نفسها وتحليلها ، حاملة الطبيعة في دائرة حياة مستمرة وموت أزلي يبدأ من جديد . وتقود افروديت في الحب اللعبة دون نهاية ، وهي ملكة الجذب ، والازدواج الذري وانقطاع الأجسام والبدء والنهاية . إن الشاعر اللاتيني لوكريس الذي كان مؤلفه « الطبيعة الريفية » عرضاً شعرياً لفكر أبيقور ، قد شهد بسعادة قوة فينوس القوية ومنسقة زواج الكريات الأثيرية وانفصالها . إن الأخلاق تتحرر من مثل هذه الرؤية لأنه من

الرؤية إنما نعني الفلسفة بمعناها الصحيح . . . إن هذه الأخلاق صافية ومؤسية . إنها تدعو الإنسان إلى أن يهجر مطر الذرات اللامع . وإنه لمن المستحيل عدم التفكير في أنشودة اخناتون التي نظمها بعد أن تصورها في صحراء تل العمارنة الشمسية ، أو إلى التفسير القرآني وإلى « الأجزاء الصغيرة المتعذرة قسمتها » . إن الإنسان العائد إلى عالم حقيقي لطبيعة تلتصق بها كل خلية من خلايا جسمه . . . هذا الإنسان الذي ينقلب نبتة ، أو ماء وتراباً لا يتميز أبداً في شيء عن المخلوقات التي تحيط به فليس له عليها مزية أو سلطة خاصة . وإنه ، وهو المتشبع بالتيارات الخلاقة على طول تحدرات تتلاقى في نسيج كثيف يتفتح مخلوقات حية أو فاقدة الحياة ولكنها نتاج بذار واحد ، . . . إنه يلقى الله في كل مكان ولذته إنما تستمد بالتأكيد من الثبات في وجه التيارات البدائية والخارقة ، لأن كل شيء ، لدى أبيقور معجزة ، وكل لحظة ربيع وشتاء ، ولأن في كل لحظة يتشكل ويفنى مخلوق في دم العالم . إن نظرية أبيقور هي أكثر من فلسفة أصيلة ، فهي بالتأكيد ، شرح شعري للنظريات الكبرى الشرقية التي لم يضف إليها أفلاطون أو أرسطو شيئاً . لقد كانوا يتكلمون خلال عصور طويلة ، وتحت غطاء من تعدد الآلهة ، في مصر والأناضول وآشور ، عن فيض ، وعن أصول عالمية قابلة للتبادل تألفت من تحليل جميع الأنظمة والأنواع ، فعلى أغنية قيثارة أورفيه تحيا الأحجار ، وتتوزع المياه ، وتجتمع خلايا الأموات ليُبْعَثوا أحياء من جديد .

إن مدرسة ليبيا العربية التي أعادت اختراع الفيزياء الذرية ، تطابق مدرسة عربية أخرى ، هي مدرسة الفلسطيني زينون من أكتيوم ، الذي أدار في قبرص محاولة استيراد وتصدير . إن بعض الشراح يقول إنه يهودي ، وهو قول يبدو مستساغاً ظاهرياً . فزينون يعرف بأنه مؤسس الرواقية . ولقد خَلَف روحياً فلسطيني آخر يدعى كليانتوس ، وأصله من مدينة أسوس ، حيث تلقى أرسطو الرؤيا الزرداشتية . ولقد خلف كليانتوس هذا صقليٌّ ، من تادس ، وطن

القديس بولص ، المشهور بكريسيب إن الرواقية ليست شيئاً آخر سوى ترميم لفلسفة هيراقليط تحت شكل أخلاقي متحذلق إلى حد ما .

إن الطبيعة ، والإله ، والقدر ، والعقل الكلي هي اربع كلمات مترادفة تقريباً ، فالكون نوع من الجسم الممتلىء ، الحي مرة ثانية بالنور ، وفيه يجد الإنسان نفسه مرصعاً مثله مثل حجرة في بناء شامخ . والعقل الإلهي أو العناية الإلهية تسيّر كل شيء نحو الكمال . وليس الشرُّ ، نهائياً سوى عنصر خير ، ومن المؤكد أنه مكروه في أعيننا الناقصة ، ولكن الأمر شيء آخر بالنسبة لله الذي يرى جميع المظاهر في الوقت نفسه حقيقة ، وليس الشر بالنسبة إليه بالضرورة سوى الوجه الآخر للخير ، كما أن الليل ليس شيئاً آخر سوى نهار لم يعرف بعد . وهل يجب علينا كذلك أن نتعلم محبة القدر فيما يستطيع أن يكون أقسى على شخصيتنا ، لأن هذه القسوة لها مكان في نظام طبيعي للأشياء . إنه ارتفاع الإنسان فوق مصالحه وراحته الشخصية لكي يحمد العناية الإلهية في جميع قراراتها ... هذا هو واجب الرواقي . تحمل الطبيعة ، وأن نكون ما نحن ، وأن نخضع لأمر قوانين المدينة والعالم (لأن مدينة الناس ليست إلا انعكاس مدينة الله) وممارسة الأخوة والمحبة وانتظار المصير بشجاعة واستقباله بسعادة مهما كان نوعه .

تلكم هي الرواقية « كل ما يلائمك يلائمني ، أيها العالم ، ولا شيء بالنسبة لي سابق لأوانه أو متأخر ، إذا أتى في الوقت المناسب لك . وكل شيء يأتي من مواسمك فاكهة بالنسبة لي أيتها الطبيعة . فكل شيء يأتي منك ، وكل شيء فيك ، وكل شيء يعود إليك »[1] .

إن الصدى الإسلامي لمثل هذا العزم سيلتقط تلقائياً . وهو بالضبط نوع الصيغة التي تلائم هيراقليط الأفيزيني . إن شاء الله : في هذا التعبير الذي

---

(١) مارك أوريل ، ٢٣٤ ، المدينة : بقلم ش. ورييز : الفلسفة الاغريقية بالو ١٩٦٢ .

يحص في بضعة مقاطع الأمل ، والثقة ، ومحو الألم ، إنما يحفظ الإيمان الرواقي .

أما وإن الفلسفة الاغريقية قسم من الشرق ، فإنها ستعود لتكتمل في الشرق في مصر وسوريا وفلسطين . ولنعدّ ، في القرن الأول بعد المسيح ، السوريين للبنانيين ونومنيي أفاميه الذين أيقظوا وشهروا الفيثاغورثية والأفلاطونية ، بينما كانت أربعة أسماء تتلألأ في مصر ، في سماء الفلسفة الشاملة : إنهم فيلون اليهودي وآمونيوس ساقاس ، وأفلوطين الأسيوطي من بلدة على النيل الأوسط ، وفورفيروس هذا دون أن نعد آتينودور من قانا الذي كان معلم الامبراطور أوغسطس وديوجين البابلي ، وابولودور العراقي من سلوقيا الدجلة ، وسوسوس العسقلاني إلخ . . . وأخيراً ففي اللغة الاغريقية سوف يكتب ويشرح العهدان القديم والجديد ، كما لو أن ذلك قد كان شهادة على تماسك وخلود الثقافة التي كانت عربية منذ بداياتها الأصيلة ، والتي غدت عربية ـ ايجية منذ منتصف الألف الثاني قبل الميلاد وذلك في سبيل غزو غربنا بعد ذلك . فلتكن المسيحية أولاً ، ومن بعدها الإسلام ، قد وحّدا ، في توفيقية ، التقاليدَ المصرية ـ الرافدية ، وكشف الحساب الاغريقي ، ولتكن اليهودية ومختلف العبادات الزرادشتية قد وجهت دعوة إلى اليونانية أيضاً ، إن ذلك يجعل استنتاجنا أكثر وضوحاً ، ومعرفة أن كل ماهو جوهري في ثقافتنا قد تشكل باستمرار في بلد يوناني ـ آرامي حصراً . إن غربنا قد كان مستهلكاً ومكيفاً لهذه الثقافة ولكنه لم يكن قط مخترعها .

علم الفلك وفن الحياة

الدين ، والفلسفة ، والعلم ، كل شيء يبقى . وكما أنه لا توجد فلسفة مجانية ، ولا فن للفن ، كذلك لا يوجد علم نظري .

إن كل علم شرقي هو علم تطبيقي . وهو في اتصاله الضيقُ بالطبيعة الحساسة والمتينة يدرس السماء والأرض لغايات عملية . وحتى في الرياضيات التي هي ليست عناصر محسوسة ولا من عناصر العالم المادي نجد الأمر نفسه : إن الأعداد قوى فاعلة « مرتبات ديناميكة » ، فالدائرة سطح . والمستقيم خيط مشدود ، والتقسيم توزيع ، ومربع العدد سطح مربع ، كذلك نظرية فيثاغورث مثلاً التي تعرض فكرة أن السطح يعادل كمية سطحين آخرين والصيغة السقراطية « لا تدخل إذا لم تكن مهندساً » تمنع على الدنيوي الميدان الفلسفي الذي يجب أن يكون مفهوماً في معنى ضيق حرفي . إن الشرق يرفض في الحقيقة السديم العماء ، ويفتش عن النظام في الطبيعة كما يفتش عنه في الفكر ، فالرجل المشوش المرتبك قلب بدون نور . فالعلم إذاً ، وقبل كل شيء معرفة بالنظام الكلي ، والبحث العلمي يعتمد على اكتشاف وتنظيم إشارات هذا النظام بغاية التزامه ، أما الأخلاق فنهاية العلم ، والعقل سنده .

أما في العلم فقد كان الاغريق دائماً معروفين بأنهم تلاميذ مصر وبابل . إن يوسف فلافيوس يدعي أن علوم الكلدانيين قد انتقلت بواسطة إبراهيم الخليل إلى المصريين ومن هؤلاء إلى الإغريق . وترفع الأسطورة اكتشافات الكلدانيين الفلكية إلى ٤٧٠٠٠٠ سنة قبل الميلاد ، لأنه من المعروف أن أول العلوم ، أي العلم الذي كان يقدم حساباً عن القرابة الضيقة بين السماء والأرض المسكونة بمخلوقات كان وسيبقى علم الفلك المتجانس بسرعة مع التنجيم . وإذا كانت

الأصول الأسطورية للعلم التنجيمي تبقى خارج مقاييسنا ، فإن اللُّقى التي قدمتها لنا الحفريات الأثرية قد كشفت لنا أن صارغون الأول الذي يؤرخ حكمُهُ في السنة ٣٨٠٠ ق . م قد أنشأ مكتبة فلكية . لقد عرفت بابل منذ وقت متقدم قانون مبادرة الاعتدالين الربيع والخريف ، ودائرة الخسوف القمري ، ووضع النجوم الثابتة ، والسنة ذات ٣٦٥ يوماً وربع اليوم وتقسيم اليوم إلى اثنتي عشرة ساعة لكل منها . كذلك عرفت نظام التعداد الذي كان قد أسس على الهندستين المنحنية والخطية ، لأنه كان يوجد إضافة إلى نظام الحساب العشري والاثنا عشريّ ، مجموعة الستين دقيقة ، والدائرة مقسمة إلى ٣٦٠ ثانية ، والدرجة إلى ستين دقيقة والدقيقة إلى ستين ثانية . وهكذا فقد اكتشف البابليون دائرة الـ ٤٣٢٠٠ سنة التي تمثل ، حسب رأيهم ، يوم الحياة في الكون ، كانت تمثل سنتنا ذات الـ ٣٦٥ يوماً ثانية واحدة فيها ، وكانت ستون سنة تمثل دقيقة في زمن الدوران الشامل وما ٣٦٠٠ سنة إلاّ دقيقة وهكذا تسير الأمور . . . .

ولقد نقل الاغريقي تاليس الميلي هذه المعطيات إلى العلم الاغريقي الذي استوحاها بينما كان علم الفلك المصري مؤسساً منذ عهد ما قبل التاريخ ، كذلك كان التقويم الفرعوني ، مثل التقويم الكلداني شمسياً قمرياً ، مرتبين تقريباً معطيات الترجمة الأرضية إلى ٣٦٥ يوماً ، والوجه القمري إلى ٢٩ يوماً . وكانت الفصول المصرية ثلاثة ، كل منها أربعة أشهر في كل شهر ثلاثون يوماً . يبدأ ربيعها في نيسان قبل ظهور النجمة سيريوس التي علمنا بلوتارك أن المصريين يسمونها سوطيس ، والإغريق النجمة سيريوس ، « النجمة الملتهبة » . أما وقد أعطى ميلان شروقات سيريوس فيجب أن ننتظر ١٤٦٠ سنة لكي يكتمل الشروق الشمسي لهذه النجمة ، أي اتفاقه مع صعود الشمس . ولقد سميت هذه الفترة « بفترة الكلب » أو الشعرانية من قبل الرومان . وهي ترد غالباً في تاريخ أحداث قصص البطولة . ومن الجدير بالتسجيل أن اليونانيين كالرومان تماماً لم يكونوا أبداً مطلعين على العلم السماوي المصري ـ البابلي الذي سيكون عربُ الامبراطورية البيزنطية ثم العربُ

المسلمون الوارثين الوحيدين الخبيرين به . ولم يكن لدى الاغريق أبداً مراكز مراقبة ، ولم يكن يوجد في الدولة الرومانية أكثر مما كان يوجد في المقاطعات الآرامية من النيل حتى نهر الهندوس ، حيث كانت مزودة بها . فلقد كان لكل مدينة فيما بين النهرين ، أو لدى الحثيين أو الفرس مركزها الخاص ، ولقد كانت التقاويم الاغريقية ، حتى اصلاح يوليوس قيصر ، ناقصة جداً ذلك أنها ، وهي نسخ سيئة من التقاويم الفلكية الشرقية ، قد غدت لعبة السلطات السياسية ، وغالباً ما استبدلت بجداول تجريبية وشعبية متغيرة حسب المناطق أو الحرف . وعندما أحس يوليوس قيصر أَنَّ فوضى تسلسل الأحداث وتاريخها تهدد بقسوة إدارة الامبراطورية المفتوحة منذئذ على الشرق كله ، كان عليه أن يفرض تقويماً ذا قيمة علمية وشاملة . . إنَّ عربياً من الاسكندرية يسمى سوسيجينيز هو الذي كلف من قبل باصلاح الروزنامة الرومانية . وأمر سوسيجينيز في العام ٤٦ قبل الميلاد ، لكي يتكيف مع مقتضيات السنة الفلكية التي تعد ٣٦٥ يوماً وربع اليوم ، بأن يكون ، بدءاً من السنة ٤٥ قبل الميلاد اليوم الرابع والعشرين من شهر شباط في كل أربع سنوات مضاعفاً ، ودعيت منذئذ السنوات التي تضم ٣٦٦ يوماً سنة كبيسة . إن هذا التقويم الذي سمي التقويم اليولياني كان ينبغي أن يسمى التقويم الإسكندري[١] . إن أحسن برهان على جهل الغرب في مادة علم الفلك يكمن في التعسف الذي كان عليه خلفاء يوليوس قيصر في السنوات الكبيسة ، فلقد أصدر البابا غريغوار الثالث عشر في الرابع والعشرين من شهر شباط عام ١٥٨٢ قراراً بابوياً هاماً جداً ، استعان في تحضيره برياضيين عرب ، ونظم بموجبه ترتيب الأيام ونشر التقويم الغريغوري . ولم يكن هذا التقويم في كماله سوى تقويم نظري ، ولا يعطي عن الوقت سوى فكرة مجردة . إن الحضارات الشرقية القديمة كانت تستعمل ، لقياس الوقت الحقيقي ، طرقاً أخرى أكثر حذقاً وبراعة ، صرف

(١) نسبة إلى مدينة الإسكندرية .

علمنا نظره عنها ، ولكن ذكراها لاذت بالعادات والتقاليد الشعبية . كان الفلسطينيون يستخدمون تقويماً بحرياً ، وكان اليمنيون وشعوب الخليج العربي ـ الفارسي يملكون روزنامة مجموعة نجوم الثريا التي انتقلت من بدو الصحراء حتى شواطىء المتوسط إنه تقويم غريب من الآمطار والأنداء ، والسنة تبدأ مع الشروق الفلكي لكوكبة الثريا وتمتد على مدى ٣٦٤ يوماً تقريباً (١٣×٢٩ زمن دوران مدار السرطان القمري) ، حسب رأي لويس ماسينيون . ولقد كان هناك تقاويم سرية مخصصة للكهنة ، كانت توضح الأرقام الصحيحة والخطرة على الإنسانية . ومن هذه التقاويم استمدت روما قائمة أيام السعادة والشقاء . ولسنا نملك أية إشارة أكيدة تسمح لنا بالقول إن الاغريق والرومان كانوا يملكون أيام راحة منتظمة ، خارج أيام الأعياد . بينما كان الآشوريون ـ البابليون يعرفون الأسبوع بأيامه السبعة المخصص أحدها للراحة المطلقة . وإذا كانوا قد نقلوا إلى جيرانهم الغربيين الساعات الشمسية ، والساعات المائية ، والمزاول ، فإنهم قد احتفظوا لأنفسهم باحتكار الاسطرلاب وربما بالبوصلة . ومن الثابت أن أوربيي العصور الوسطى الوارثين المباشرين للعلوم الاغريقية ـ الرومانية قد دهشوا أيما دهشة من اكتشاف آلات فلكية وآلات ملاحة عند العرب كانت مجهولة تماماً منهم . لقد تخيلوا أنَّ العرب قد اخترعوها منذ فترة غير طويلة ، دون أن يفكروا أن هؤلاء الأخيرين كانوا يحتفظون بأسرارها منذ أزمنة قديمة جداً . إن الاغريق في الواقع لم يستطيعوا الحصول إلاّ على قسم قليل من العلوم الرياضية والسماوية التي كانت في الشرق منذ آلاف السنين ، لأنهم لم يكونوا يملكون مدارس ولا علماء ولا قوة اقتصادية تكفي لدمج مجتمعهم في مجموعة علمية متفاوتة بالنسبة لمعرفتهم . فلقد خلبتهم ضخامة العالم الشرقي ، وبقوا تجاهه كتلاميذ أمام معلم ، وكانوا غير قادرين على نقل غالبية الإرث الشرقي . وهو الأمر الذي سيقوم به العرب .

إن الرياضيات التي كان اليونانيون مغرمين بها ، ولكنهم ليسوا خبراء

فيها ، إنما تشتق في آن من علم الفلك ، وعلم المساحة ، ومن ضرورة نظام للثقل والوزن . إننا لا نملك عن العصر القديم المصري ـ البابلي دليلاً على معالجة هندسية أو رياضية باستثناء بضعة أوراق بردى تعرض مفاهيم مدرسية لكن الانجازات العملاقة التي منها الاهرامات ومعابد الكرنك أو نينوى ، تشهد على عمليات لا مثيل لها في ميدان الحساب والفضاء بأبعاده الثلاثة ، يضاف إلى ذلك أن إرادة وضع علاقة بين الخط المستقيم والمنحني بين الصورة المغلقة والسماء المفتوحة ، بين الزمن الفلكي وتخطيط المعبد ، بين الاستمرار والمؤقت ، قد أدخل في الرياضيات النيلية مفهوم العمل الدوري الذي يرى عملاً عظيماً مطبقاً ديناميكياً بعدة أبعاد وليس في ميكانيكية الجوامد فحسب . ويتعلق شبنكلر في فصله عن معنى الأعداد[1] وعلى الرغم من رؤيته غير الامتثالية ، يتعلق مع الأسف بتحليل يمت بصلة كبيرة لعلم الجمال ، ويعطي الإغريق مكانة ممتازة . إنه يميز تعسفاً بين الجبر العربي (المولود حسب رأيه في القرن الرابع بعد الميلاد) . وعلم المثلثات الهندي ، وعلم الميكانيك الغربي القديم بينما تقودنا الأعداد المركبة واللوغاريتيمية التي لا تدخل في مفهوم الأبنية الأثرية الضخمة المعقدة فحسب ، بل أيضاً في الأساطير العددية للعروبة المصرية ـ الرافدية الأقدم بكثير من القرن الرابع قبل الميلاد . . . يقودنا هذا كله إلى حكم أقل بساطة . إن شبنلجر الذي يجعل من الفكر البشري صورة تاريخية ، ومتطورة بالتالي ، يقيم مجموعة من الحدود بعضها اقليمية والأخرى متسلسلة تاريخياً ثم يقفز فوقها . إنه لا يريد أن تكون البنية العقلية المصرية ـ الاشورية كبنية عقليتنا ، ولكنها هي ذاتها . والفرق ليس أساسياً ولا جوهرياً . إن المعادلات في عدة أمور مجهولة كانت مألوفة بالنسبة لبناة الأهرامات أكثر مما هي مألوفة لنا . فلقد كانوا جديرين مثلنا في استخلاص ما هو غير منطقي في الصيغة العقلية .

---

(١) أوسفالد اشبنبلجر : تدهور الغرب . غالمار ١٩٤٨ . ترجمة م. تازورت .

لقد مرت مناسبات كثيرة جعلت الدراسة الرياضية العالية تختفي من العمارة النيلية الرافدية . على أن هناك واحدة تسترعي انتباهنا لأنها تمس الخلق العلمي . ذلك أن المصريين والبابليين كانوا يعتبرون هذه الرياضيات خطرة ، لأن المختصين منهم قد قدروا قوتها الحقيقية . لذا كانوا يبقونها مخبأة ! إن المنجزات المعمارية والتقنية الخارقة التي نحن أيضاً شهودها اليوم تظهر على كل حال ، لأية مكانة توصلت الاكتشافات في ميدان الأعمال والتخيلات . وبترتيب أكثر تواضعاً هي التي كيفت الاشارات من الواحد إلى التسعة ، التي استعملت في وضع شكل الأعداد . إن هذه الصورة في الترقيم ، المأخوذة من قبل الفلسطينيين ، ستغدو صورتنا في الترقيم تحت اسم « الأعداد العربية » .

أما الإغريق الذين كانوا يستخدمون لكتابة الأرقام الحروف الأربعة والعشرين التي تتألف منها ألفباؤهم مرتبة ، فقد كانوا قد استعاروا من الفلسطينيين ثلاثة أرقام على الأقل : الأبيزومون الذي يشير إلى الرقم ستة ، الكوبا الذي يعادل التسعين والذي ليس شيئاً آخر سوى (الكوف) المصري ـ الفلسطيني ، (الصان بي) الذي يشير إلى العدد (٩٠٠) والذي هو إشارة الجيب المصرية الفلسطينية . إن غالبية وحدات قياس أثينا ، واسبرطة أو سرقسطة كانت مأخوذة من بابل أو من فلسطين ، منذ أمد بعيد ، وهي مدن كانت تستفيد من نظام متميز للأوزان والقياسات تلك التي سنجدها بعد ذلك في روما ، وفي المقاطعات الرومانية . ولقد احتفظ بعضها باسمه العربي : (حمه) قياس مساحة مقداره ستون قدماً (منى أو مين) ويعادل ٦٢٠ غراماً ، دراخمة ، وأبولوس وتالانتوت (أي تالان)[١] . ولقد حصلت (الهلياد) بوساطة ايجين وأوبي على وحداتها القياسية ولكن صولون الأثيني نظم استعمالها بعد عودته من مصر . ويجب الاعتقاد بأن ذلك لم يكن إلا تكييفاً

---

(١) وحدة وزن في اليونان تساوي من ٢٠ ـ ٢٧كغ .

أخرق للشرق لأنهم شعروا في ظل البطالسة ، وفي القرن الثالث قبل المسيح ، بالحاجة إلى دقة أكبر ، وإلى تشريع يمد على مجموع (الهلياد) النظام المصري الذي كان يمتد في ذلك الوقت ، وبفضل نشاط التجار اليونانيين ، على طول المتوسط ، وما وراءه من بلاد .

إن علم اليونان الرياضي ينبغي ألا يكون مبالغاً في تقديره فالحقيقة تجبرنا على القول : إن الرياضيين الإغريق الذين وصلتنا أسماؤهم كانوا جميعاً ودون استثناء من أصل عربي . صحيح أن لغتهم كانت الاغريقية ، ولكن الأسر التي كانوا ينتسبون إليها كانت من مصر أو من آسيا الصغرى . وكما ستتاح لنا فرصة التأكيد من بعد ، فإن الاسكندرية هي التي كانت المركز الرياضي للعالم القديم ، وقد ورثت تجربة طيبة ، وصور وسارديس ، وبابل . لقد كان اقليدس وديوفانتي مصريين . ولم تنقل حوليات أثينا وكورنثه والبيليبونيز ، أوبيوتيا ذكرى أي رياضي ، أو رجل علم . وإنه لمن المدهش أن هذه الثغرة لم تسترع الانتباه ، لأننا حصرنا اهتمامنا في الفن والفلسفة والمثال الاغريقي . إن علوم الحيوان والنبات والمعادن التي خلبت لب أرسطو وبليني القديم ، قد ولدت فيما بين النهرين ، حيث كانت ، منذ الألف الأول قبل الميلاد ، منظمة بصرامة ومفهرسة ممالكها الطبيعية . والأمر نفسه في استكشاف علم التشريح . وإننا لنتساءل من أين استطاعوا أن يأتوا بفكرة (إن دراسة الجسم الإنساني وتشريحه كانا ممنوعين في الشرق) ، ليس هناك مكان وجدنا فيه أثراً لهذا التحريم المزعوم . ونحن نعرف بالمقابل العمليات الدقيقة التي كان يقوم بها الكهنة الأطباء على الجثث قبل تحنيطها . إننا نملك لوحات تشريحية وأدلة على استبدال أعضاء بمعدن أو بأحجار كريمة . إن فنون التوليد ، والبتر ، والثقب ، تقتضي بالضرورة معارف طبيعية معمقة . ولم يكن بقراط ليكتم التعليم الذي تلقاه في مصر . ويجب الانتباه جيداً حين تذكر المقاطع التي بقيت من مؤلفاته . إن الطب العربي الذي فرض على أوربا حتى القرن الثامن عشر ،

لم يولد مع الخلفاء ، وليس أيضاً تطبيقاً للطب الاغريقي ، إنه ينتقل طبيعياً من جيل إلى جيل من التطبيق العلمي ، ومن علم التشريح الذي نضج على ضفاف نهري النيل والفرات . .

فلماذا نسترسل في وضع قائمة التقنيات التي لا تنتهي للعصر العربي القديم ؟ إن مصر وفلسطين وفيرجيا وما بين النهرين قد برعت في خمسة ميادين على الأقل ، فارضة فيها عبقرية تقنية لم تضاهَ حتى اليوم : التعدين والصياغة والزجاجيات وقطع الحجر والنسيج . وكانت صناعة البرونز من اختصاص فلسطين ، كما تشهد على ذلك حفريات تل الجزر ، والتي تمّت جيداً منذ منتصف الألف الثالث ، وكان استعمال الحديد معروفاً جيداً قبل معرفة الاغريق له لأنه أدخل هناك اعتباراً من نهاية الألف الثاني ، أما مناجم سيناء ولبنان ، والمقاطعات الأردنية فكانت مستغلة بصورة منتظمة ، وكانت مدن طيبة وصور وساردیس وأيليون ونينوى مشهورة بمصانع أسلحتها ، وكانت السيوف والخناجر والدروع والأتراس التي وجدت في ميسينا وقبرص أو في كريت نسخاً دقيقة من الأسلحة المصرية ـ الآسيوية إذا لم تكن قد استوردت مباشرة . ولكن ، ألا يجب البحث مع ذلك لدى الآشوريين عن المصدر الأول لصناعة المعادن والصلب المسقى ؟ إن كثيراً من المفكرين يرون في صلب دمشق ثم طليطلة الشهير ، الذي كان فخر قروننا الوسطى ، نتاج العصور القديمة في الصناعة الذي يعود إلى حدادي بابل . ذلك أن أرض ما بين النهرين كانت تعطي بسخاء مواد للزينة الحديدية . ولقد روى لنا غوستاف لوبون في كتابه عن « الحضارات الأولى » استناداً إلى المؤرخ اليوناني ديودرو الصقلي ، أن الأحجار الساندة لجسور بابليّة على الفرات كانت مثبتة بكلاليب من الحديد ونقاط التقائها ملحومة بالرصاص المذاب .

وماذا نقول عن الحليّ ؟ إن الصياغة الآشورية ليس لها نظير إلاّ في مصر وقد نقلت إلى دمشق ثم إلى الحرفيين الفيزيقوط في أسبانيا ، لا بوساطة

ما نسميه خطأ « الفتح العربي » بل قبل القرن الثامن ما قبل الميلاد وبواسطة الرحالة والتجار الفلسطينيين . وإنه لأمر مثير للدهشة والاستغراب الشديدين أمر الفن المصريّ والاشوريّ ، واستعماله الذهب والفضة وهو صاف في الحالة الصرف ، دون أن يكون مختلطاً بمعدن آخر . والذي وصل مع ذلك إلى درجة من الصلابة ، بالاستعانة بطرق بقيت مجهولة لدينا حتى الآن . وكان رجال مصارف أوربا ورجال مدينة جنوا منهم بخاصة ، يصنعون الذهب ، حتى القرن الرابع عشر الميلادي ، من ذهب دمشق الخام غير المصقول . إن توت عنخ آمون ، والملك آجوبتو ، أو الأمير خاموزيت يدعون لشدة تقديرهم للصياغة ، أولئك الذين صاغوها . إن الاغريق أو الرومان ، وفي أية فترة من تاريخهم لم يستطيعوا التوصل إلى هذا المستوى العالي من التقنية ، فالعصر الذهبي لصناعة الحديد والمعادن والصياغة الهيلينية عرف في العصر الايجي ، في مدن ميسينا ، وكنوسسوى أو قبرص ، في الوقت الذي كن فيه مستعمرات مصرية ـ فلسطينية . ومن المؤكد أن فناً كبيراً اغريقياً ، هو فن الإذابة ، الذي يسمح بتلوين المعدن بلون البرونز في كبار وجوه الفرسان التي سنجدها في تلك الوجوه التي ستجد في روما أو بيزانطة تناسقها الكامل ، ولكن ساموس المدينة الآسيوية ، وليس اليونان القارية هي التي ستجمع أشهر معلمي هذه الحرفة ويجب علينا انتظار عصر النهضة حتى يظهر في ايطاليا صاهرون مهرة مثلهم ، ولن نرى أبداً أين كانوا يجدون نماذجهم ومرشديهم وطرائق عملهم إلا في وثائق آسيوية مترجمة إلى اللغة اليونانية أو اللاتينية .

إن صناعات الزجاج ، والمينا البسيطة أو المتحجزه للأحجار الصناعية وعجينة الزجاج المعدني أو المطعم بخيوط ، وصناعة القناني والقوارير ، وصناعة اللؤلؤ المقلد ، وكل فنون النار هي قديمة في الشرق مثل قدم العالم ، الحرفيون المصريون والفلسطينيون والسوريون أو العراقيون يتابعون عرض صنائعهم على سياح القرن العشرين ، وهي أشياء تذكر بشكلها ، ومادتها

وزينتها ، الأشياء التي يستخرجها علماء الآثار من قبور أور ، وسامرا ، وسقاره وليتبس ماغنا ، وفولوبيليس .

وعثر في كورنثيا اليونانية على كثير من الأشياء الزجاجية .

وإنه لاستمرار مدهش جداً ، عثورنا في مدينة بومبي على الزينة التي تحمل اسم المحترف أو المصانع الآسيوية التي صنعت فيها .

إن جمال الخزف أو الطين المشوي المزين بالمينا أو المزجج الذي يخرج من الأفران المصرية أو البابلية كان رائعاً إلى حد أنه يكاد يشبه الصياغة . إن طبيعة الصلصال المستعمل ، وكيمياء خلائط الأكاسيد الكاملة الصناعية التي يحصل عليها انطلاقاً من النحاس والحديد والقصدير والكوبالت لم تسمح للصانع الاغريقي بأن يكيف هذا الفن الصعب . ولقد حدث ذلك في فترة متأخرة ، في روما الامبراطورية ، التي توصلت إلى تطوير الفسيفساء التي كانت مصر القديمة قد اكتشفت نعومتها . ولقد سجل ديودور الصقلي انبهاره أمام جدران أقباتان المكسوّة كلها بالخزف المتعدد الألوان الموزع بواسطة رسوم هندسية . ولقد حافظ الشرق العربي ، من قرن إلى قرن ، على حب الفخار المشويّ ، أو الخزف اللماع الذي افتخر به الخلفاء العباسيون .

إن الموهبة التي لا تناقش والتي يعرضها عرب عصرنا في هذا التطريز والحياكة وصناعة السجاد ترقى كذلك إلى تقليد قدمه بضعة آلاف من السنين . وهم قد بقوا كالصينيين صناعاً لا يبارون .

ولقد اعترف الاغريق والرومان بتفوقهم عليهم ، فليس هناك من نص أدبي لا يتغنى بجمال أقمشة فلسطين ، وأرجوان صيدا ، وكتان مصر المطرز ، وغلالات آشور التي بقيت الموصل ، مدةً طويلة ، قاعدة احتكارها العالمية . إن كل أنواع الألبسة الناعمة ، والسجاد والمخرّمات ، التي استعملها الأغنياء اليونانيون أو الرومانيون ، كانت مستوردة من الشرق ، ومن فلسطين بخاصة .

وإن مصانع فلسطين وسورية المختصة في القماش المقصب هي التي اخترعت وأدامت صناعة البطرشيلات والقمصان وحلل الكهان وتيجانهم والسرادقات والمراوح والأنواع الأخرىٰ من ثياب الفخفخة التي كان يتزين بها رجال الدين البيزنطيون أو الرومان . أننا لنعرف كم كانت متطورة صناعات الدولة التي نالت أقمشتُها إعجابَ الصليبيين ، ولنضف إلىٰ هذا كله فنون الطيوب والأثاث ، واللجم ، وعلم الفلاحة (فن تنظيم الحدائق بخاصة) والسقاية . لقد بدأنا نرىٰ بجلاء ، خلال ظلمات التاريخ ومبتذلات تعليم جامعي مضلل ، ذلك النور الذي غمر العالم العربي قبل أن تكون أثينا قد خلقت . ولا نستطيع أن نمنع أنفسنا من أن نجد مسلياً ذلك المديح الذي وجهه إلىٰ العرب مستشرقونا لأنهم نقلوا إلينا علم الإغريق وتقنيتهم ، بعد أن « ترجموا » لنا النصوص الدينية أو الفلسفية . ولنخاطر في القول بأنه يلزمنا جيل آخر لنتمكن من قلب هذه المفاهيم الخاطئة إلىٰ عكسها .

والسياسة كذلك علم ، ومن المؤكد أن المصريين والآشوريين قد كانوا بمجموعات قوانينهم ، كقانون حامورابي وبوخاريس ، أساتذة مدينتنا بالتالي . إن الفقهاء الرومان لم يفعلوا شيئاً سوىٰ ترجمة وتكييف العديد من الوثائق والوقائع والنصوص القانونية التي نقلت إليهم من مصر وكلدان . فالعربي فقيه قانوني منذ ولادته وهو يفهم بحذر شديد نص البرهان ، والحذر الدستوري .

إن تأثير القانون المصري سواء أكان دستورياً أو جنائياً ، خاصاً أو دولياً ، ذلك القانون الذي يكشف الستار عن حارة قد بلغت أوجها وتفترض تجربة ما قبل تاريخية ذات استمرار مدهش ، قد كان يملك انتشاراً في شواطئ المتوسط . إن مفهوم الدولة البنيوية في استمراره ، والمعرف بحضور قادر علىٰ كل شيء ، والمرتكز بواسطة سيادة دينية ، والمتماسك بقانون أسروي أو متتابع . . . وباختصار مسلط مثل كيان مطلق ، فوق رأس الأفراد . . . إن

مفهوم الدولة ذات السلطة القاهرة قد ولد على ضفاف النيل ، وإننا لنعرف كم تدين الامبراطورية الرومانية لمصر وللرحلة التي قام بها يوليوس قيصر إليها ، إنها ليست مدينة لها بأقل من أركانها والأسس التي تسندها ، فالملكية التي سميت « الحق الالهي » قد استعارت منها حدة الأبوية ، كما استوحى الاسكندر نماذج فارسية ومصرية ليغير الديمقراطية الإغريقية إلى قوة امبراطورية ذات طراز فرعوني ، ولأن الاسكندر لم يكن سوى فرعون إغريقي فقد كان متشبعاً بالفقه الدولي المصري ، أكثر مما كان عليه معلمه أرسطو .

إن أحد أسس القانون المدني والقانون الجنائي في مصر هو أن العدالة كانت تابعة للدولة ، فإليها وحدها يعود حق إنزال العقاب ، والتبرئة ، وإبدال القصاص ، والعفو عن المذنبين . وفي عصر كان لا يزال يسود فيه ، وفي بلاد عديدة ، قانون الأخذ بالثأر ، والثأر العائلي ، والعقاب السريع على الجرم المتناسب مع قانون الثأر الفردي . . . في هذا العصر كانت الممارسة العامة لتنظيم المحاكمات تمثل تقدماً هاماً . لقد كان القانون المصري محرراً مسجلاً كتابة حسب الأصول ، وكانت كل مدينة تملك نسخة منه ، وكان القضاة لا يصدرون الأحكام حسب مزاجهم الخاص ، ذلك أن الفرعون كان الضامن للعدالة وكان من حق المتقاضين اللجوء إليه . ولقد أفادنا ديودور الصقلي ، الذي حلل لنا بدقة القوانين المدنية والجنائية لمصر القديمة) بقانون وجود محلفين منتخبين ، ومحامين ومحاكم استدعاء . والشهادات والادعاءات ، والمصادقات ، كانت قانونياً ، خطية . لقد كانوا يكتبون كثيراً في مصر القديمة التي بلغ فيها فن الوراقة كمية تعادل كميات إدارتنا المعاصرة ، فحضارة الورق ليست إذاً من منجزات القرن العشرين . ورجال الشرطة متعاقدون بعقود خاصة أو مع الدولة ، عقود كانت منظمة بمنتهى الدقة ، والعقود المسجلة لدى كتاب العدل كانت تقتضي في كل عملية مالية أو عقارية ، أو رهن أن تكون مصدقة بصور شرعية . وهذا ما فعله جوستنيان في القرن السادس الميلادي حين جمع في

المدونة العادات ونصوص الامبراطورية الفقهية ، ولقد سبقه إلىٰ ذلك الفرعون بوخوريس من الأسرة الرابعة والعشرين الذي أتم واستوفىٰ جميع القوانين المدنية ، وانطلاقاً من ذلك العهد وجد الإغريق تحت تصرفهم مجموعة متجانسة متحت منها مؤسساتهم المدنية والشعبية . وإنه لمن المدهش أن كتبنا المدرسية تعاند في ذلك معتبرة المدينة الإغريقية مخلوقة من العدم ، ومنبجسة بإعجاز من « العبقرية الهيلينية » ، دون أن تقيم أي اعتبار لأصولها القانونية الأكيدة .

وإنه لأمر أكثر إدهاشاً أن معظم مؤرخينا قد تكلموا عن سيطرة إغريقية علىٰ الشرق ، بينما كانت قوة المدن اليونانية لدىٰ مقارنتها بالامبراطورية المصرية والبابلية ، لا تعدو كونها مشابهة لإمارة اندورا بالقياس للولايات المتحدة الأمريكية . إن بلاد اليونان ، وكلنا يعرف ذلك ، كذلك تملك أرضاً فقيرة وغير قابلة لتغذية شعب مضطر مع ذلك ، أو محكوم عليه ، لكي يأكل ، أن ينتظر إرساليات القمح الليبي والصقلي والمصري ، وكان يعوزها الخشب لبناء سفنها ، والكتان لألبستها ، والجلد والبراري لخيولها ولقطعانها الكبيرة .

لم تكن أرضها تحتوي علىٰ مناجم القصدير أو الذهب أو الحديد أو الفحم ، أما النحاس فيستخرج من قبرص ، وهي جزيرة تسيطر عليها إمبراطورية بابل ، والمصدر المنجمي والصناعي الوحيد كان يوجد في تراقيا حيث كانت تعدن خيوط الفضة ، ولكنه اكتشف في أتيكا خاصة ، في أوائل القرن الخامس قبل الميلاد ، وفي النهاية الجنوبية الشرقية ، علىٰ تلال اللوريون ، كمية من الرصاص الممزوج بالفضة ، الذي كان يكثر سنة ويقل أخرىٰ ، ويجلب للدولة الأثينية بضع مئات من التالانات[1] ، تعادل ثلاثة أطنان ونصفاً من الفضة تقريباً ، فهناك كانت توجد المدينة الصناعية الوحيدة في اليونان القديمة ، وكان بضعة آلاف من العبيد يعملون فيها ، ولا يزال الاستثمار نشيطاً حتىٰ أيامنا هذه . فماذا يمكن أن تزن اليونان الفقيرة أمام

---

(١) وحدة وزن يونانية شرحت سابقاً .

الاقتصاد الزراعي المصري والرافدي الضخم ، وأمام هذه التنظيمات الصناعية ، والبحرية ، والمالية الموطدة في الشرق وسط ملايين العمال ، والمهندسين ، والعلماء الذين تسوسهم وتدير أمورهم دول مركزية منذ عهود قديمة ؟ وماذا يمكن أن يعادل ، في نظر العلاقات العالمية ، أثينيّ ، الذهب فيه نادر ، في القرن السادس قبل المسيح وقدرته الشرائية محدودة بحيث أن شراء بقرة كان يتطلب ستة فرنكات جدد فقط ، فلم يكن للثروة من قيمة سوىٰ تربة جافة ، والشكل الذي رتب قانون الضرائب بموجبه طبقات السكان كان له مغزاه فالطبقة الأولىٰ ، وهي طبقة الأشراف ، كانت تتضمن الملاك الذين كان دخلهم خمسمائة مد من القمح (٦٠٠ ديكاليتر تقريباً) ، والثانية كانت طبقة الفلاحين الذين يملكون جواداً ، والطبقة الثالثة طبقة الذين كانوا يملكون زوجاً من البقر ، والأخيرة كانت الذين يؤجرون خدماتهم ولا يملكون شيئاً . وكان ذلك كله لا معنىٰ له أمام مصادر الشرق التي لا تحصىٰ ، حيث الذهب ، والفضة والحجارة الكريمة ، كانت مدخرة منذ آلاف السنين علىٰ شكل سبائك ، وتماثيل آلهة ، وثروات دول أو معابد ، وكانت تؤلف تغطية مالية كانت قيمتها تتجاوز الخيال . فلنفكر أنه قد بقي بعد نهب المقدونيين لقصر اقتابان من المعادن الثمينة ما مكن القائدين انتيفون وسلوقس من الحصول علىٰ ـ ٤٠٠٠ ـ تالان ، زنتها ـ ١٤٠ ـ طناً .

إننا لنظن ذلك حلماً . فماذا يمكن أن تضمَّ من ثروات خيالية اسطورية معابد الأقصر والكرنك وممفيس وأرفووابيدوس وأبو سمبل والعمارنة والاسكندرية إلخ . . .

والمدن الدينية سيلمونت وافسسوس وميله وساردس وصور وبابل ونينوىٰ وطروادة . وإنه تكمن في أن اليونان كانت اسكافي القصيدة الخرافية الذي يذهب شاحذاً لدىٰ الماليّ ، إنها لم تعرف النقود إلاّ بأخرة من الوقت وكانت أيضاً نقوداً شرقية ، وهي النقود التي ظهرت أولاً فيما بين النهرين وفي ليديا

وكانت مصنوعة من مزيج من الذهب المسماة كهيربات ثم نقل كريزوس من ثم قطع النقود الذهبية الأولىٰ ، وضاعف داريوس من استعمالها .

وكانت اليونان وصقلية ومصر وإيطاليا تزود عادة ، وخلال عدة قرون بالدنانير وقطع النقود الذهبية التي تحمل صورة ملك فارس الكبير وبشكل آخر فإن النقود الآسيوية كانت تمثل ثروات حقيقية . فلم تكن المدن الغربية مفتقرة إلىٰ الغطاء الاقتصادي الضروري فحسب ، ولكنها كانت لا تملك أيضاً الاستقرار ولا الاستمرار ولا القوة السياسية والعسكرية الكافية للايحاء بالثقة ، بخلاف العواصم الشرقية المزودة ، من جهتها ، برصيد ضخم وراجح منذ فجر الإنسانية . ولنفكر في (هلياد) هذه التي لا تملك قرشاً ذا قيمة ، والخالية تقريباً من الرجال ، تستمر في الاعتبار ، بسبب وحيد من كياسة دبمقراطيتها المزعومة ، سيدةَ الحضارة والقدرة المتوسطية ، ويقودنا ذلك إلىٰ صرح أكثر من سؤال علىٰ تفكيرنا الديكارتي ، أو بالأصح علىٰ خبل تفكيرنا السليم .

فلقد رأينا كيف أصبحت بريطانيا العظمىٰ في القرن الثامن عشر قوة عالمية قادرة علىٰ التدخل في كل القارات منذ اللحظة التي وضعت يدها فيها على الكنوز التي كدسها الهنود خلال أجيال عديدة ، وغدت تملك منذ ذلك الوقت عملة قوية ، واستفادت من عمل أنجز خلال التاريخ الهندي جميعه ، وسنرىٰ كيف أن أثينا نفسها ثم الامبراطورية الرومانية ، الضئيلتين في أصولهما ، قد أخذتا الاتساع المفاجئ الذي نعرفه منذ ملكتا الطريق إلىٰ منابع ثروات الشرق العربي .

وهكذا كان الذهب والأحجار الكريمة والعاج بوساطة البحرية ، والقوافل الكاملة والمستمرة . . . كانت تنطلق من المخازن الأثيوبية والسودانية ومن ساحل العاج ، ومن غينيا والسنغال ونيجريا ، لتصعد نحو طيبة وصور أو بيزانطة ، وكان الذهب الآسيوي يأخذ طريق بابل حيث كان رجال المصارف يتاجرون به ويحولونه إلىٰ صكوك وإلىٰ نقود ، وسبائك ، وحلي كانت تستخدم رهائن عقود . ولم يكن يصل إلاّ الفتات إلىٰ المدن اليونانية حتى إنه ليمكننا القول : إنَّ الشرق قد اشترىٰ

اليونان التي لم تكن سوىٰ مقاطعة مسخرة شيئاً فشيئاً للرأسمال الافريقي ـ الآسيوي الذي كان يدفع المدن الاغريقية ، بوساطة لعبة المباراة ، إلىٰ أن تكون مبتلعة . إن دور المصارف الحاسم جداً في أيامنا في الحياة الاجتماعية والسياسية للشعوب ، لم يكن أقل من دور المصارف في العصور القديمة .

إننا لنحيل القارئ إلىٰ ثلاثة مؤلفات صدرت منذ وقت قديم نسبياً ولكنها لا تزال مفيدة : ج ديفرنوا : مصارف وصرافون في مصر القديمة (١٩٢٨) ، لافون موليه : مراحل الرأسمالية من حمورابي إلىٰ روكلفر (١٩٣٨) ، كوينغ : مصارف وصرافون من بابل إلىٰ وول ستريت (بولن ١٩٤٠) .

وانطلاقا من ذلك ، وفي ظل مثل هذه الشروط ، فلن يكون قابلاً للادراك أن تخوض المقاطعة اليونانية الصغيرة معركة ضد امبراطورية فارسية أو مصرية واسعة . إن ذلك ، ضد كل ما يتوقع فالتاريخ الكلاسيكي ، كما درّسونا إياه في المدرسة ، قد علّمنا أنها لم تخض الحرب ضد آسيا فحسب ، بل أنها قد انتصرت عليها أيضاً . وإنها لقصة من قصص الجن الخرافية . فهيرودوت وديموستين وتوسيديو وآريان وبلوتارك يرون هم أنفسهم الأمورَ علىٰ شكل آخر وتيسيراً لكل واقعة ، يجب الرجوع إليهم ، وإلىٰ بضع من الوثائق التي نملكها ، لتوضيح هذه الحروب الميدية المزعومة ، ومعها أيضاً قصة فتوحات الاسكندر .

الملك الآرامي الكبيــر

عندما استقر قورش في بابل في سنة ٥٣٣ قبل الميلاد ، وأكد ابنه قمبيز نصف حمايته علىٰ مصر بدءاً من سنة ٥٢٥ ، وهما تاريخان تقريبيان ولنلاحظ ذلك بدقة . . . أظهرت الأسرة الأخمينية نفسها في هذه المناطق وريثة ثقافة الشرق العامة كله ، وحامية للثقافة الآرامية وليست عدوتها . ولأنه قد تم انتقال ثقافي منذ مدة طويلة من آسيا إلىٰ اليونان بواسطة فلسطين وبحر ايجه ، فإن الملك الأخميني الكبير قد كان أيضاً حامي الإغريق والقارة الأوروبية . إننا لا يمكن أن ننكر هذه الحالة دون أن نقع في خطأ يغير وجه الشرق وتاريخ الغرب .

وبدءاً من السنة ٥٢٢ إذاً ، بسط الملك الآرامي داريوس سيطرته علىٰ آسيا وعلىٰ مصر . ولأن كلا من هذين البلدين قد ظل محتفظاً بقوانينه الخاصة فإن الملك الكبير كان ، بمعنى ما ، شكلاً من أشكال رئيس ولايات متحدة . وهكذا كان من السهولة بمكان تطويع اليونان القارية التي أظهرت ذلك بصورة عملية في وزارة ماليتها وفي دبلوماسيتها . كان جيشه يضم فرقاً عديدة يونانية وقواداً هيلينيين ، وكانت المدن الثرية الايونية تتبع مرزبانات ساردة ودسكيليون ، وتساهم بفعالية في رفاهية النظام الامبراطوري . وعندما بدأ داريوس غزوة في بلاد السيت علىٰ طول نهر الدانوب ، كان إلىٰ جانبه كثير من اليونانيين والعرب مختلطين .

وأقسم ملك مقدونيا اميناس يمين الولاء له . وكذلك فعلت مدن تراقيا . ولكي يكافئ داريوس هيستين ، طاغية ميليا ، علىٰ سلوكه في الجبهة مَنَحَهُ حق استثمار مناجم تراقيا . فلماذا إذا يهاجم اليونان وهو الذي كان لا يخشىٰ أي عدو في البحر المتوسط هذا ، بحر القرن السادس قبل الميلاد ، حيث كان

يسيطر سيداً وحيداً مطلقاً ، قوياً ، لا ينازع ؟ ولماذا ينطلق هؤلاء اليونانيون المتضورون جوعاً ، ودافعو غرامات الملك الكبير . . . لماذا ينطلق هؤلاء اليونانيون في حرب خاسرة سلفاً ضد القوة الفارسية ؟ المؤرخون الكلاسيكيون يحترسون في الإجابة . بل إنهم يفسرون بسذاجة ذلك النزاع ، الذي كان يعد تحت عنوان « الحروب الميدية » وكأنه حرب عقائدية بين أنظمة العالم القديم الديمقراطية ، وأنظمة الطغاة . إن الطيش في إقامة البرهان ليقفز أمام العين ويمضي تحت أعين الشراح . إن دراسة ما ، ولو كانت سطحية ، تكفي لإظهار أن « الحروب الميدية » كانت حروباً محلية بين مدن إغريقية ـ آسيوية أشعلها الملك الكبير ووضع لها نهاية تضمن مصالحه . والشخصية الرئيسية فيها رجل يدعىٰ أريستاغوراس ، اميرميليا الذي مدّ حوالي العام ٥٠٠ حكومته ، علىٰ مرزبان ليديا لكي يستولي علىٰ خزائن بحر إيجه التجارية التي كان يحكمها آنذاك جمهوريون يونان ـ فلسطينيون . ولقد أخفقت المحاولة : فلقد انكسرت قوات ميليا الإغريقية ، المعززة بقوات ناكسوس الاغريقية الفلسطينية وبقوات جزُر أخرىٰ . فرجع أريستاغوراس عندئذ إلىٰ أثينا التي كانت تطلب حماية المقاطعات والمرزبانات ، عارضاً عليها محالفة قبلت بها . واجتمعت قوة صغيرة من هذا التحالف في أفسوس ، وعوضاً أن ينقضَّ أريستاغوراس علىٰ تلك المقاطعات فإنه استغلها ضد إمارة ساردیس التي احتلها وتمركز فيها . ولقد عاد الأثينيون إلىٰ مدينتهم بعد هذا وبعد أن تراجعوا عن غرضهم هذا . ولقد أعاد الملك الكبير النظام إلىٰ ميليا ، أما الفلسطينيون ، الذين أنذروا بالخطر الذي يتهدد إماراتهم ، فقد أرسلوا أسطولاً حاصر المدينة الثائرة التي هرب أريستاغوراس منها ليلتجئ إلىٰ مقاطعة تراقيا . . . .

لقد هدم ، بمعونة من أغريق ساموس وليسبوس ولاده ، قسماً من مدينة ميليا الإغريقية ـ الليدية ، ولم تكن أمثال هذه الحوادث غريبة البتة في عصر كانت السلطة المركزية فيه ، وهي تنسق السياسة العليا ، تترك للمقاطعات

استقلالية معتبرة ، وتترك لها العناية بتدبير أمورها الخاصة ، ودخولها القومية وحرسها الوطني ، وتترك لها من وقت لآخر أمر القيام بعمليات عسكرية محلية . فسعة الامبراطورية ، وبطء البريد ، ووسائل المواصلات بصورة عامة . . . كل ذلك كان يفرض في الواقع لا مركزية تعادل الاستقلال تقريباً . ولتكن مدينة ميليا قد قامت بحملة ضد تاكسوس فإن هذا لا يفرض أبداً أن تكون تلك الحملة ضد الملك الكبير أيضاً .

إن ما يجري في اليونان ، لا يمكن أن يكون ، في سياسة داريوس سوى أمر عرضي ، وهو من جهة أخرىٰ ، أكثر حذراً فيما يمكن أن يحدث في الهند ، أو في مصر العليا ، أو علىٰ جانب تراقيا ، والبلاد الشيشية هناك حيث تضغط بكل كتلة شعوبها العديدة ، المجهولة والتي تغطي سهولاً واسعة وغنية وخصبة في الزراعة وتربية الخيول ، والمعادن الاستراتيجية نعم هذا هو ما يشغل بال الملك الكبير . فلقد كان في اليونان في داخل بلده وكان يعرف عن ظهر قلب الأزمات المستمرة التي كانت تحرك المدن الصغيرة التي كان يساعدها علىٰ الحياة ، والتي كان يؤمن لها تداولها النقدي : كان يستقبل ويوجه في قصره شخصيات سياسية عديدة أثينية واسبارطية وكورنثية وطيبية وشخصيات أخرىٰ . ومن بينها ديمارات ملك الاسيديمويا السابق ، وهيبياس طاغية أثينا السابق وكانا يلحان في طلب مساعدته لاستعادة سلطتهما . ولقد منحهما موافقته علىٰ أن تكون مهمة الغزوة الجديدة التي يرسلها إلىٰ تراقيا خلال صيف عام ٤٩٢ هي توجيه بعض عناصر التدخل ، ولقد منعت الصعوبات عناصر هذه الحملة من أن تتحرك هذه السنة . وفي ربيع سنة ٤٩٠ فقط ألقىٰ اسطول كنعاني ، ناقل جنوداً يونان ـ ليديين تحت قيادة هيبياس الأثيني مراسيه في شاطئ ماراتون منتظراً أن يتمكن أنصار هيبياس من القيام بانقلاب عسكري . ولكن ذلك الانقلاب لم يتم . وهكذا أمر قائد الأسطول الذي كان راسياً بالعودة فأثار بعض الجنود الأثينيين الذين يقودهم ميللتياد شيئاً

من الفوضىٰ أثناء إبحار القوة العائدة ، وسط الرجال والخيل . وعلىٰ هذا الشكل جرت معركة ماراتون .

كانت اخفاقاً لهيبياس الذي أسقطت حقوقه ، وحكم عليه بالإقامة الجبرية ، أما الملك الكبير فقد هز كتفيه بلا مبالاة .

ولكن تراقيا هي التي استمرت في القلق . ففي سنة ٤٨٦ خلف سرخسر أباه داريوس الذي يسر له غزوة هامة جداً باتجاه مقدونيا التي كانت حليفته وتلح في طلب معونته ضد تحالف التراقيين والسيتيين . لقد كان الجيش الإغريقي الآرامي الذي عبر الهيلسبونت (الدردنيل) في ربيع سنة ٤٨٠ علىٰ جسور مصنوعة من سفن صنعها مهندسون إغريقيون . . . كان ذلك الجيش ضخماً ، وكان يرافقه أسطول سفنه العديدة . ولقد بارك كهنة دلفي وبتيا المحاولة . ولقد انضم إليها أغلب المدن اليونانة القارية ، أما الفرق الأيونية أو الايليونية فلقد شغلت منها مكانة مختارة . إنه لا يستطيع إذاً خوض حرب ضد اليونان . وعندما كان الجيش الكبير يمشي باتجاه الغرب نحو الدانوب ، أمر سرخس ، بناء علىٰ طلب المنفيين الأثينيين ، بضع فرق صغيرة بأن تتجه نحو الجنوب لتقدم مساعدة للأحزاب السياسية الأثينية التي ألحت في طلب مساعدته ، ونحن نعرف ما تم بعد ذلك ، لقد استقبلت تلك القوات في تسالياً وبيثوتيا أحسن استقبال ، وقامت معركة بسيطة وشتتت في مضائق تريمبولي ، واحتلت أثينا دون مقاومة . وفكر سكان أتيكا ، الذين خافوا ، بالجلاء إلىٰ إيطاليا الجنوبية ، ولم يغير اللقاء البحري في سلامين بين السفن الفلسطينية والأثينية أبداً مجرىٰ الحوادث . وبقيت قوة احتلال في تساليا وفي بيئوتيا تححت إمرة مارد ونيوس صهر المتوفىٰ داريوس ، حتىٰ تراجع الحملة الكبرىٰ عن تراقيا . ولعب الملك لعبته الكبرىٰ في الشمال ، من أجل الامبراطورية الآرامية .

وهكذا كانت مكدونيا هي التي تمسك بمصير بلاد اليونان مجتمعة وهي دولة صغيرة محالفة لبابل مشبعة بثقافة آسيوية ، ومزروعة بثكنات الملك

الكبير ، وقد أخذ رجال المصارف والاقتصاديون ذلك بعين الاعتبار ، ولم تكن سلامين ولا بلاتيا ولا أثينا سوىٰ لعبة بين يدي السياسة الكبرىٰ التي تثيرها بابل علىٰ ضفاف الدانوب وعلىٰ شواطئ البوسفور ، هناك كانت تظهر بالتأكيد وتكبر بيزانس في ملتقىٰ عالم سياسي جغرافي جديد فلم تقم حروب حقيقية بين الملك الكبيرة والمدن الإغريقية نظراً للتفاوت الكبير في القوة بينه وبينهم ، ولأنه منحهم استقلالاً شكلياً ، بينما هم في الحقيقة مستعمرون ومندمجون في الإدارة الآرامية بالإضافة إلىٰ أن تدخل داريوس ، بوساطة قواته وقوات ابنه سرخس ، سيحطم حتىٰ وهم الاستقلال الهيليني بصرف النظر عن وحدة لم توجد في لحظة من لحظات التاريخ وسنرىٰ اللارسي بوزانياس الذي حارب الفرس في بلاتيه قد جذبه تسامح بابل واقتراح أن يكون شريكاً سرياً لها ، وسنرىٰ تيميستوكل الشهر مخبراً سرخس عن حركات الأسطول الأثيني في سلامين ، وموجهاً ، من ثم ، ابنَه ارتا سرخس ليذكره بهذا الدين الأخلاقي ولم يتأخر الملك عن تسمية الأثيني حاكماً علىٰ ماغينزيا .

كتب توسيديد : « لقد حصل في البلاط علىٰ سلطة عالية لم يحصل علىٰ مثلها إغريقي قبله » . وما كان شأن هيرودوت المولود في هاليكارناس ، في أرض آرامية وفي ولاية فارسية ؟

إنه لم يكن سوىٰ مؤلف في خدمة الملك الكبير ، الذي سماه بازيليوس مع حرف « ب » الكبير ؟ فلم تكن لبلاد الإغريق ، في الحقيقة ، من ستراتيجية عسكرية سوىٰ استراتيجية تنازع المدن فيما بينها ، وليست الجيوش الإغريقية المشغولة بمنازعات صغيرة ، هي التي عدلت قليلاً نظام العالم المتوسطي أو النظام الأفريقي الآسيوي .

أجل لم تكن « الحروب الميديه » أهم أعمال الإغريق في القرن الخامس ولكن أهم هذه الأعمال كانت الحروب البليبونيزية ، أو بالحري الحروب البليبونيزية الثلاث التي بدأت منذ السنة ٤٥٥ بعد عشرين سنة فقط من معرك

بلاتيه ، لكي تنتهي ، بعد أن قطعتها هنا وهناك هدنات غامضة ، في سنة ٤٠٤ قبل الميلاد .

ولأنه كان مثاراً من قبل جميع المعسكرات التي قاتلت بوحشيه فيها ، فإن البازيلوس ساعد هؤلاء وأولئك ، وأعدّ ضربات بلاطة من سوس أو من بابل ، وركز عملاءه في أسبارطة وأثينا ، كورنته وطيبة وامفيلوليس وبيزانس ، بحيث أنه وجد بسرعة نفسه سيد جميع سياسة شبه الجزيرة الداخلية ، كما كان من قبل في لارسا . ولم يكن هناك مواطن اغريقي ذو أهمية لايكون بشكل أو بآخر مواطناً أو انساناً يطيع بازيلوس . ان الاسكندر كان يتصرف أثناء حملته الآسيوية كواحد من رعايا الملك ، على شاكلة اميرميليا أريستاغوراس ، الذي تصرف مثله منذ مائة وخمسين سنة سابقة . وإن تصرفه ليشبه انقلاباً عسكرياً أكثر من كونه حرباً خارجية فلقد كان في منزله عندما وصل آسيا ، كما كان أرتاسرخس في منزله عندما كان في بلاد اليونان .

وماذا يمكننا ضمن هذه الشروط أن نقول عن الأمبراطورية البحرية الشهيرة التي أسستها أثينا عشية « الحروب الميدية » في المتوسط الغربي والتي سميت اتحاد ديلوس الكونفيديرالي ؟ ولنقل بادىء ذي بدء إن البحرية الفلسطينية لم ترتب البتة ، لأنها بقيت ومعها الأساطيل المصرية والليبية والقرطاجية ، القوة الراجحة في المياه المتوسطية ، وقد استمر ذلك خلال أكثر من مائة سنة ، قبل أن تنقل منها تنظيمها وموانئها إلى خلفائها الطبيعيين : البيزنطيين ، والعرب . ولنضف من بعد ذلك أنه في تراقيا ومسينا ومصر وقبرص ، أي في جميع الأمكنة التي عارضت الحكومة الفارسية ، في كل تلك البلاد أخفق الأسطول الأثيني في غزو الأسواق المحلية . وأخيراً فإلى سماحة الملك الكبير ، الذي أصبحت حماية رسمية منذ توقيع بروتوكول خالياس في سنة ٤٤٨ ، يعود أمر حصول أثينا على منطقة توسع اقتصادي في جزر السيكلاد والسبوزاديس ، أي على طول الشواطىء الآسيوية والبيزنطية والشيتية في البحر الأسود .

وسيفتتح رجال المصارف الفلسطينيون والبابليون والمصريون فروعاً لمصارفهم في أتيكا . وكان بركليس صانع تقدم أثينا هذا من مدينة ريفية ؛ وكانت تربطه قرابة بأنبل الأسر الإغريقية وهو المتحالف منذ زمن بعيد بوساطة أقاربه مع رجال المصارف الليديين ، والذي كان أداة الأسرة الأخمينية الطيعة . لقد جعل من بلده ، غير المؤهل للصناعة وللزراعة الواسعة ، موعداً للقاء التجار ، ونقطة التقاء مصالحات ، وهكذا ماتت المنازعات والحروب ، ولم يبق من عمل سوى عمل رجال المكاتب التجارية وحققت اليد الماهرة مهارتها في استخراج المعادن ، والثروات البحرية . وعرفت أثينا مصير كل بلد يستعمره اقتصاد مسيطر ، وهي فكرة يعززها التاريخ المعاصر بأمثلة عديدة .

لقد كانت جزائر الملك الكبير . وإنها لرفاهية صناعية تماماً ، موقوفة على الاتجار بالمنتجات الأفرو ـ آسيوية ، وهي التي أعطت لأتيكا توهجاً مغرياً كل الاغراء ، إنه توهج ثوب المرزبان الرسمي المركش .

فلقد كانت الحياة غالية ، صعبة تبتسم للأسر ذات الولد الواحد ، ولأرستقراطية المال التي تعيش على الطراز الشرقي . وأصبحت أثينا مركزاً تجارياً عربياً ضائعاً بين تلألؤ ساردة وطيبة وبابل .

إن تشكيلها السياسي يحمل طابع الاقتصاد المعتمد على الخارج . ولا يوجد إلاّ أمثلة قليلة على مثل هذه البلوتوقراطية التامة . وذلك كان بدون شك السبب في أن الشعب قد فقد كل مسؤولية وكل اهتمام بالحياة السياسية والثقافية ، وفي أن أثينا قد تلاشت بسرعة ، دون أن يتاح لها الوقت لتستفيد من الحضارة الشرقية الكبرى التي نقلتها إليها ديانتها وفلسفتها الموروثة .

ويجب الاعتقاد بأن مثل هذا المصير يخلق الغيرة ذلك أن أسبارطة كانت تشاركها هذا المصير ، وتطمع في اقتسام رفاهية بقية المدن المزدهرة ، ولكي تفعل ذلك فإنها كانت توافق على المكاسب المالية للمرزبان الآرامي نفسها

لقد كانت حرب البليبونيز سباقاً باتجاه المال العربي . ولم يكن هذا المال ليوزعه موظفو الملك الكبير على اليونانيين إلاّ لغايات نظرية . . فلقد كانوا يريدون دفع ثمن خدماتها ، ولا يبذرونها في استثمارات لا نفع من ورائها ، لأنه لم يكن يوجد في بلاد اليونان أية امكانية استثمار ، فلم يكن البلد يساوي إلاّ ما يقدمه أبناؤه وتنظيم موانئه الممتاز . فلكي تستحق أسبارطة المال العربي ، أسبارطة المعزولة في جبالها المجدبة ، كان يعوزها بالتأكيد أن تمتلك أنظمة الموانىء والمصارف في شبه الجزيرة الهيلينية .

وكان من قبيل المصادفة بالنسبة لها أن تتنازل عن نظام الاحتكار لأثينا . ومن هذه الضرورة انبثقت الحرب البليبونيزية التي كان يراقبها ويحكمها من أولها إلى آخرها ، الملك الكبير ، الذي كان يلهو بها . ولنفتح من باب الفضول كتاباً مدرسياً من كتب التاريخ القديم ، على فصل هذه الحروب ولنقرأ كيف يعلمونها لطلابنا ، إنها تروى على الشكل التالي :

« كان التناقض واضحاً بين أثينا وأسبارطة ، إنه التضاد بين ديمقراطية وأرستقراطية ، بين مدينة حربية ومدينة تغذيها الآداب والفنون » . إننا لنتمنى أن يكون هذا (العلاّمة) ، الذي ندين له بهذه الدرة ، مدفوعاً بمأرب سياسي أكثر مما يكون مدفوعاً باقتناع خاص . إننا نملك زيادة عما تقدم ، وعن الحرب البليبونيزية وهي حالة وحيدة في تواريخ السنين الخوالي إننا نملك وثيقة ذات قيمة استثنائية إنها نص توسيديد . وهو نص لا مثيل له . إنه يعطي ، في الفصل الثاني من الكتاب الثاني أسماء السفراء الذين أرسلتهم أسبارطة إلى الملك الكبير ، عبر تراقيا « لكي يحصلوا على المال وعلى المعونة العسكرية » ، أما الأثينيون فقد خدعوا صدقوس ابن الملك ، وتركوا السفراء يعبرون المضائق ، ثم أعدموهم من دون محاكمة . حيث إنهم بالمقابل ، قد أوقفوا في مصب نهر ستريمون من يسمى أربافيرنيس سفير الملك الفارسي ، بعد أن ضبطوا منه الرسائل التي يعلن فيها الملك الكبير ، إلى

الاسبارطيين إنه لا يفهم شيئاً من عروضهم المتناقضة .

« لقد تلقى الملك بضعة جواسيس ، يتكلم كل واحد منهم لغة تختلف عن الأخرى » . وسنرى شيئاً فشيئاً ، تأكد الاتحاد بين أسبارطة والمرزبان تيسافيرنيس ، حاكم مقاطعات آسيا الصغرى البحرية ، الذي وقعت معه ثلاث معاهدات بصورة متتالية ، على الرغم من الجهود ، ومن تخريب الكيبياد . ولقد سمح الفرس لأمراء البحر اللارسيين باستعمال موانىء ميليا ، وخيو ، وليروس ، بعد أن قلبوا ظهر المجن لسياستهم ، إلى نصائح آلسيبياد الوقحة ، الذي أخذ يدس ، بعد أن خان وطنه لصالح أسبارطة ، وغدا من ثم ضد هذه الأخيرة ، « كان يقول لتيسافيرنيس أن أحسن حل اقتصادي لديه إنما يكمن في ترك الإغريق يرهق بعضهم بعضا ، بينما هو نفسه لا يتعرض لأي خطر » . ولقد كان يؤكد « إنه ، من أجل اقتسام الإمبراطورية ، فمع الأثينيين ينبغي للملك أن يتفاهم ، لأن هؤلاء كانوا لا يرغبون البتة في القيام بفتوحات في القارة ، وإن غاياتهم ووسائلهم العسكرية تتفق بكل نقاطها مع غايات الفرس ووسائلهم العسكرية . فتدبير اتفاق بين الفريقين كان إذاً ممكناً : أثينا تستعيد سيطرتها على البحر ، وتسمح للملك بأن يفرض سلطته على الإغريق الموجودين في طريقه . (توسيديد ، الكتاب الثامن ، الفصل الثاني) . وأصاخ تيسافيرنيس سمعه إلى النصيحة ووزن بِتَقْتيرٍ الامدادات المخصصة للبلوبونيزيين ، مانعاً إياهم من أن يباشروا قتالاً في البحر ، مدعياً أن السفن الفينيقية ستصل وأنهم يستطيعون آنئذ مباشرة القتال بقوات أكبر . وهكذا ، ساءت بسببه ، حالة البلوبونيزيين[1] . وبصورة مختصرة ، فمن سيحصل على معونة الملك الكبير أثينا أم أسبارطة ؟ وهكذا كانت تمد الأيدي ، ويباع الحلفاء ، كانوا جاهزين للتغيير حتى في إقامة الدول ، إذا كان ذلك يرضي الفرس . فلقد كان (تيسافيرناس) يلهو بخبث بهؤلاء وأولئك ،

---

[1]) توسيديد : حرب البليبونيز . ترجمة دنيس روسل . كاليمار ١٩٦٤ .

فلقد كان ، وهو يتحالف مع الأثينيين ، يعطي إشارة بمعاهدة جديدة مع لارسيا ، إنه يعد رصيد أسطول فينيقي يتألف من ١٤٧ سفينة تنطلق إلى عرض البحر ، ولكن البحر لا يملك اتجاهاً خاصاً أبداً . . حتى يأتي يوم يخلعه فيه الملك داريوس الثاني لفرط انزعاجه منه ، ويسمى ابنه الأصغر كسرى مرزبانا على ليديا ، وفيرجيا .

وأفرغت كميات كبيرة من المال بين أيدي اللارسيين الذين استطاعوا دفع أجور بحارتهم ، واغراء جنود أثينا بالفسق ، وهكذا جمع القواد اللارسيون ، الذين دفعهم داريوس الثاني للإسراع في الانتهاء من القضية ، وساندتهم هذه المرة السفن الفينقية ورئيس أركان سيروس الذي أخذ شخصياً أمر توجيه العمليات البحرية . . . هكذا جمع القواد اللارسيون وأمير بحرهم ليساندر ، في أفسوس أسطولاً طرد الأثينيين من وجه البحر . وأتى الملك بوزينياس ، أخيراً ، يحاصر أثينا بينما كان ليساندر يحاصر البيرة في سنة ٤٠٥ ودام الضيق الشديد ستة أشهر ، وأصر حلفاء أسبارطة على تدمير المدينة وبيع سكانها بالمزاد ، وطالب الملك الكبير بالاعتدال . واكتفى المفاوضون اللارسيون بتهديم تحصينات البيرة والسور الكبير ، وبقيت أثينا على قيد الحياة ولكنها أرغمت على الجلاء عن جميع مؤسساتها ومخازن تجارتها الخارجية . وانتصرت أسبارطة . لقد وجدت نفسها بدورها مبتلعة من قبل قوة بابل المالية والنقدية . وانتقلت إلى خدمة الملك الكبير ، وذهبت قواتها تقتل في كوناكسا ، وفيرجيا وبافلاغونية .

أما ساردة ، مركز ولاية ليديا ، فقد أصبحت العاصمة الحقيقية لبلاد اليونان ، وكان المرزبان الذي يقيم فيها يصدر أوامره باحلال الهدنات وفض المنازعات لصالح الملك الكبير . ولم يكن ذلك كله في نظر هذا الأخير سوى زوبعة في كأس من الماء .

فلقد كانت أنظاره مركزة على مقدونيا وتراقيا وسيتيا . لا لأن هذه المناطق كانت امتداداً طبيعياً لآسيا الصغرى ويفصلها عنها خفرتان ضيقتان من الماء ، هما الدردنيل والبوسفور فحسب ، ولكن لأنها كانت غنية أيضاً

بمناجم الذهب ، وكان الملك الكبير يملك احتكار النقد الذهبي . فمند مدة طويلة كان ملوك آسيا الصغرى يمارسون سياسة دانوبية ، تحتفظ الأساطير الأورفية بأثرها ، ثم أخذت هذه السياسة الدانوبية مع الأخمينيين ، الذين يتصرفون بقوة اقتصادية لا تُضاهى ، وبخدمات بحرية وتجارية وتوسع ثابت وجيش وعملاء نشيطين . . . أخذت هذه السياسة تتسع بحيث ساندت الإمباراطورية العثمانية حتى منتصف القرن التاسع عشر ، وهذا يعني الحيوية القصوى للعلاقات التي تصل الإمبراطورية الفارسية بأرض اليونان الشمالية والبلقانية . بالإضافة إلى أنه يوجد هنا أراضي قمح وسهول واسعة تؤمن الغذاء ، ومن وجه آخر ، خاص بتموين آسيا الصغرى أكثر من هيكل شبه الجزيرة الهيلينية . ومن المؤكد أن الشيرونيز[١] وبيزانطة كانتا بالنسبة للملك الكبير ، من الوجهة الاستراتيجية أكثر أهمية من أسبارطة أو أثينا . إن تراقيا أو مقدونيا كانتا تتحكمان بطرق المرور الدانوبية ، ومن أجل هذا ، لا من أجل غناها بالمناجم (إن مجرى ستريمون مع كتلة جبال بانجيا ، كان يفرع مرتفعات رودوب ، والدورادو أوربا البلقانية ، بينما يحتوي مرتفع ديزوردن على عروق فضة) ، مما يجعل من مملكة لارسيا طفل الملك الكبير المدلل . فلماذا لا يأخذ مؤلفو كتبنا المدرسية بعين الاعتبار مثل هذه البراهين الجغرافية السياسية التي ستشرح لهم مع هذا نجاح فيليب المقدوني وابنه الإسكندر ، أكثر من « إدمان الخمر ، والعنف » التي يتهكم بها بتأثير ديموستين . أم فيما يتعلق بلارسيا والآمينتاس وبالملكة الوصية أروديسيا الحذرة ، وبأصول الأسرة الحاكمة التي تنسب إلى الأسرة الآسيوية لهيراقليد أرغوس ، أما فيما يتعلق بذلك كله فيخيِّم صمت المؤرخين فلقد قيل إنَّ مقدونيا قد ولدت مع فيليب ، فيليب البربري الهابط من السحب مع أن فيليب هذا كان وارث

(١) اسم كان اليونانيون يطلقونه على شبه جزر أشهرها شير ونيرتراقيا (اليوم شبه جزيرة غاليبولي) وشيرونيزيا (شبه جزيرة القرم حاليا) .

تقاليد ما قبل التاريخ التي تصل إلى أسمى ثقافة دينية للشرق الآرامي . وحتى متى تفتش ظل « ديمقراطية » بركليس إذاً في أعيننا عن سير التاريخ الإغريقي ـ الفارسي ؟ وإذا كان فيليب المقدوني قد استطاع مدسلطته على غالبية بلاد اليونان ، فلأن الملك الكبير بالتأكيد ، قد أعطاه يده ، وأعطاه معها الذهب الضروري لأمثال هذه المحاولات . وإذا كانت موانىء جزر أسيكلاد ، وأوبيا ، وأتيكا ، والبلوبيونيز تهم سياسته البحرية والتجارية بنفس المستوى الذي يهتم به سياسياً بموانىء ليبيا أو المتوسط الغربي . . . ، فإن مقدونيا وتراقيا تحتل بالمقابل مكانة لائقة في مخططات سياسته القارية ، فلقد كان السكان فيهما أكثر كثافة ، وأكبر عدداً ، ولقد أنشأوا فيهما أسواقاً هامة ومراكز بيع وشراء ، كانت ضرائبها في شبه الجزيرة تمثل جماعة القطاع الثالث للاقتصاد المصري ـ البابلي ، الذي كان محروماً منها . فلقد كانت سياسة الملك الكبير القارية محددة في مجرى خمسة أنهار : الهندوس ودجلة والفرات والنيل والدانوب التي تُعَدُّ بين أهم الطرق المائية في العالم . ما دام النظام المرفئي المتوسطي ، والمراقبة مؤقتة منذ مدة طويلة على الأنهار الأربعة الأفريقية ـ الآسيوية فلم يبق سوى نهر الدانوب الأوربي ، الذي أظهر أنه يحمل أكثر من النيل مصيراً سياسياً . ودون أن نرغب في التقليل من عبقرية فيليب المقدوني وابنه الإسكندر ، فإن عملهما قد تحدد في ترك نفسيهما تنساقان بواسطة الجغرافيا والحدسية ، إننا نعرف جيداً أن تأثير الأفراد في التاريخ ضئيل الأهمية ، وأن الأحداث والقوى الاجتماعية وحدها هي التي تقود ، هذه الأحداث والقوى التي تراكمت خلال القرون ، وأخذت ، في اللحظة الملائمة ، الاتجاه الخلاق الذي يفرض نفسه .

لذلك فإنه لا ينبغي التفتيش في شخصية فيليب أو الإسكندر عن أسباب التغيير السياسي الذي أثر في حوض البحر الأبيض المتوسط الشرقي في القرن الرابع قبل الميلاد ، إن الأبحاث العديدة النقدية النفسية التي تفرغ لها ، الحالة هذه ، محترفو التعليم ، محللين الوساوس ، وحالات النفس ،

والمطامع ، وناظرين بعين الاعتبار إلى غراميات الملوك المقدونيين . . . إن تلك الأبحاث قد كشفت عن قصة خيالية ، لا عن تحليل علمي . إن نموذجها إنما يعطي في دراسات جيروم كار كوبينو المتبحرة عن الرجال القدماء المختارين العظماء . ومهما كانت قراءتها ممتعة ، فإننا نحسُّ بوضوح أن هذه الشخصيات المعروضة على هذه الصورة تستقر في منطقة الخيال والأهواء . .

وكذلك كان فيليب والإسكندر . ذلك أن هذه الأحداث كانت كبيرة آنئذ وأكثر من الرجال الذين يظنون أنهم يوجهونها .

لأن الأحداث كانت تقودها دوماً السلطات الفارسية الليدية وبابل ، التي كان أصحابها يرون في فيليب حليفهم المختار وأخلص من يغطي سياسته الدانوبية ، ويساعد مخططات توحيدهم الهيليني ، وهي عملية كانت لازمة لمصالح الملك الكبير الذي كان آنئذ ارتاسرخس الثالث الذي حكم من سنة ٣٥٨ ، إلى سنة ٣٣٨ ، ويتفق حكمه تقريباً مع حكم الملك المقدوني بين سنة ٣٥٧ ، ٣٣٦ . وبينما كان ارتاسرخس يعيد النظام إلى أمبراطورية الواسعة ، ويرجع سلطته إلى مصر ، كان فيليب يثبت على أربعة مراحل سلطته على شبه الجزيرة الهيلينية . إن معاهدة حسب الأصول الجيدة والمطلوبة قد عقدت حوالي العام ٣٥٠ بين العاهلين ، أو بين الملك الكبير الذي كان ارتاسرخس وتابعه فيليب ، جدد فيه الولاء القديم لبابل الذي اقيم في سنة ٥١٠ أي قبل قرنين تقريباً . إن مقدونيا هذه كانت واسعة ، وتغطي مساحة تزيد عشرة أضعاف على مساحة أتيكا ، التي يسكنها أقل من ٥٠٠٠٠٠ ، ومحرومة من جيش متعلم حسب الطرائق الفارسية والتراقية أي مزود بفرق من الخيالة وكانت الطبقة التي تقود المجتمع تملك زراعية يونانية ـ آرامية ، وعائدات نقدية وحكومية هامة ، ونفوذاً يمتد بعيداً عن المدن الإغريقية حيث كانت تملك أنصاراً مقتنعين مثل هذا الفوكيون الأثيني الشهير والنزيه . إن جاذبية دينار جبل بانجيه الذهبي قد تمَّ له اكتساب العديد من القلوب . لقد ضاعف

ديموستين ، المشهور بعنف غاياته الجدلية ، والمقتنع بأهداف الدعاية العسكرية من وشاياته ضد فيليب وضد وطنه . كم تشبعنا بهذا الكلام المليء بالطعن والتجريح وأعرناه أذنا صاغية . فهل كانت مقدونيا بربرية ؟ ومن يجهل إذا تقليد تراقيا الثقافي المجاور ؟ وهل توقفت صلات ضيقة ، ومن جميع الأنواع ، منذ القرن السادس ، عن نسج صلات صداقة وقرابة وتضامن بين بيلا وبقية العواصم الهيلينية ؟ إن علماء وشعراء عرباً أو أثينيين ، كاوربيدس ، قد أقاموا في هذا البلاط الشمالي . إنهم يضربون مثلاً على ذلك الملك آرخيلاؤس المديني والإنساني والعالم الرياضي الذي زود وطنه منذ نهاية الحرب البليبونيزية بأجمل مجموعة من الطرق الستراتيجية في أوربا الدانوبية . وهذا هو البلد الذي قاده ملكه بسهولة إلى النصر على المقاطعات الإغريقية الصغيرة المنهمكة في اهتماماتها الضيقة . إن علينا ألا ندخل في تفصيلات المنازعات المحلية المعقدة . وفي خداع بعضهما بعضاً . إن فيليب منذ جلوسه على العرش ، قد بسط سيطرته على بحر إيجة ، ثم استولى على تساليا وبيزانطة وقطع وراقب طريق القمح . وإننا الآن لنشاهد ، كما كان الشأن في مناسبة الحرب البليبونيزية ، معركة ديبلوماسية باتجاه الملك الكبير ، فما كان من أثينا إلا أن أرسلت سفارة إليه لاستثارة تحكيمه الخير ، ولكن الملك أصم أذنيه ، وأبقى على تأييد منافسه المقدوني . لقد سحق فيليب ، في سنة ٣٣٨ ، في معركة خيرونية ، أعداءه الذين توجب عليهم أن يقبلوا حمايته . ولقد جمع ، بعد فترة من الوقت في كورنثه مندوبي اليونان كلهم ، حيث أعلن السلم العام ، والاستقلال المحلي وأعلن عن إيجاد رابطة تولى رئاستها ، وقيادتها الحربية ، رابطة دعيت كل مدينة فيها إلى تأمين مجموعات متناسبة مع قواتها . لقد وضع نهائياً حداً لانقسام اليونان إلى دويلات صغيرة وركز فيليب المقدوني خلال عشرين عاماً ، وبتأييد من الملك الكبير الذي كان يرى في هذا وسيلة دائمة لتقوية سياسته الأوربية ، ركز سلطته المركزية المتماسكة التي كانت فارس

تحلم بها منذ عهد داريوس الكبير لتغطية المضائق .

وسنرىٰ أنَّ سياسة المضائق هذه ، ستأخذ منذ هذا التاريخ ، مع الزمن أهمية رئيسية في التقاويم التاريخية الديبلوماسية . إنها موجودة في أيامنا هذه بتأثير ضغط الأحداث المعاصرة . ولقد كان المسرح ملائماً للحصول على الأسكندر الذي كان دوره ، ولنفكر في ذلك جيداً ، دمجَ الإغريق تأسيسياً في العالم الآرامي ، ذلك العالم الذي لم يعرفه اليونان إلاّ ثقافياً . إن الإسكندر يرمز لنجاح جهود الأخمينيين العظيم ، ولا يهم كونه أخمينياً أو لا ، ذلك أنه أخذ الولاء ، واضطلع بمهمة وراثة هذه الأسرة . وتبقى أيضاً طريقة بسيطة وغربية ، صورة « الفتح » التي حدثونا عنها ، وهو فتح ابن فيليب الذي يتركنا مبهوتين ، فلقد قالوا لنا إنَّ الجنرال الإسكندر « قد سحق بواسطة حفنة من الرجال فقط ، (٣٥٠٠٠ رجلاً) حشود داريوس الثالث » وإنَّ « معركة أربيليس قد كانت معركة أوربا ضد آسيا » و « إنَّ الأمبراطورية الفارسية قد غلبت في عدة سنوات ، وأزيلت ، واحتلت » . لقد احتلها خمسة وثلاثون ألف رجل فقط . سذاجة ؟ سوءنية ؟ مجموعة أخبار ملفقة ؟ كسل في مراجعة الفكرة المتلقاة ؟ وكيف لا نخجل من هذه التهاويل وهذه الاحالات المعلنة من أعالي المنبر ؟

إن أسطورة الإسكندر قد سحرتنا إلى حد أنها أفقدتنا عقلنا . إنها تشبه بدقة هذه الحروب الميدية ، وتخفي نفس الحقيقة لمعرفة طموح مرزبانات ليديا الثائرين ضد السلطة المركزية ، وداعية لنجدتها ضد هذه السلطة ، حلفاءها الخارجيين ، أي الاقطاعيين اليونانيين والفلسطينيين . فليس هناك تتابع ولا انتقال سلطة يتعامل بها في الأمبراطورية الفارسية ، وليس هناك ولاية لم تفكر في الاستيلاء على العرش لصالحها . فلقد كانت مؤامرات البلاط والانقلابات عملة متداولة . ولقد رأينا في نهاية القرن السادس طاغية ليديا

الإغريقي يتفاهم مع مرزبان ليديا من أجل تأسيس مملكة ايجية داعياً لمعونة الاسطول الأثيني .

ولقد رأينا ، بعد وفاة داريوس الثاني ، أن ولده الأصغر كسرى يثور ضد أخيه الأكبر الذي خلف أباه باسم ارتاسرخس الثاني ، والذي استعمل جنوداً مرتزقة أغارقة ، هؤلاء عشرة الآلاف المشهورون ، أنفسهم الذين انسحبوا ، بعد انكسارهم في كوناكسا في العام ٤٠١ حتى ساحل البحر الأسود بقيادة اكزينونون . ولنذكر المرزبان موزول الذي حاول اقتطاع مملكة لنفسه في كاري بمساعدة أسبارطة ، ولقد فعل أرطاباز ما هو أكثر من ذلك في فيرجيا بمعونة جنود مرتزقة أثينيين . إن تدخلات اليونانيين العسكرية ، وكذلك تدخلات الايليريين والصقليين ، والتراقيين ، والسيتين ، تحت راية امرأة أو ولاة آسيويين ، لا تعد ولا تحصى . وبخاصة بعد معركة خيرونية ، ألم يرسل فيليب المقدوني إلى مقاطعة طروادة في سنة ٣٣٧ فرقة من عشرة آلاف رجل بإمرة القائد فارمينيون : كان ارتاسرخس الثالث قد مات منذ قليل مقتولاً من قبل وزيره بوغواس ، الذي نصب ضابطاً من الحرس الامبراطوري باسم داريوس الثالث كودمان في سنة ٣٣٦ ، إننا لنجهل الدور الذي لعبته أثناء خلو العرش الفرقة المقدونية المقاتلة ، وإلى أية جهة مال فيليب في هذه القضية ، ولكن الغريب أن صعود داريوس الثالث إلى العرش قد توافق مع مقتل فيليب في سنة ٣٣٦ أثناء الاحتفالات التي أقامها بمناسبة زواج ابنته .

وهناك اتفاق آخر مثير : لقد قتل فيليب في نفس موعد عودة الإسكندر وأمه إلى بيلا ، اللذين عادا مصادفة أو فرارا من آسيا الصغرى . فلقد بدا من المؤكد أن الأسرة الحاكمة المقدونية ـ دون أن نُغامِرَ بتفسيرات أخرى يصعب التكهن بها ـ قد شاركت عملياً وعسكرياً في قضية مجيء خلف ارتاسرخس الثالث إلى الحكم ، وهو الذي كان قد أبدى شهامة تجاه فيليب ، وأقام معه حلف سنة ٣٥٠ الشهير الذي سمح له بالسيطرة على أرض اليونان كلها . فلم

يكن الملك الجديد داريوس قدمون ، في عيني الإسكندر ، سوى غاصب ، وصل إلى عرشه بجريمة قتل مزدوجة : جريمة مقتل ارتاسرخس ، وابنه والوارث الشرعي ، أي الشاب آرسيس . وهل كان مسؤولاً أيضاً عن مقتل فيليب ؟ من الممكن الاعتقاد بذلك . ولم تنتظم العلاقات مع الغاصب على كل حال البتة ، لأن ملك مقدونيا الجديد ، قد ساند القوة الحربية التي كان والده قد أرسلها إلى طروادة . وهذا دليل أكيد على أن مقدونيا ، التي كانت حتى ذلك الوقت تابعة أمينة لبابل قد رفضت هذه المرة أن تجدد الولاء وأظهرت حركة تمرد متميزة . ولم تكن وحدها التي تعارض ذلك : فالفريق الشرعي الفارسي ـ البابلي ظل أميناً لذكرى أسرة الملك داريوس ، وصنف الثائر الجديد مغامراً ، وجعل القسم الأكبر من الجيش نفسه جوقة كذلك القسم الأكبر من مرزبانات آسيا الصغرى ، ومصر وسوريا ، ولم ينضم إلى الغاصب سوى فلسطين ومدن أيونيا الإغريقية التي تحالفت معه . لقد كان الإسكندر يملك إذا تقريباً أغلبية المسؤولين المدنين والعسكريين في الأمبراطورية البابلية ، ولكن كان ضده جميع الإغريق : إغريق أيونيا بالطبع ، وكان ضده أيضاً إغريق أسبارطة ، وأثينا وطيبة ، وهي المدن الرئيسية التي كانت تصلها نجدات هامة يرسلها الغاصب ، إن ديموستين قد حكم عليه ، مثلاً بجرم تلقيه ٣٠٠ من التالانات (٥٠٠٠ فرنك ذهبي) فقد شهرت طيبة السلاح ، أول مدينة ، مستفيدة من غياب الإسكندر في عملية على الدانوب ، فانتُقم من المدينة ، ودُكت حصونها دكاً وبيع سكانها بالمزاد . إن هذا يعطينا فكرة عن الدرجة التي وصلت إليها العلاقات بين الزمرة الشرعية الفارسية التي تدعمها مقدونيا ، وحكومة داريوس الثالث التي يدعمها اليونان . إن ما ندعيه حتى الآن ، من أن غزوة الإسكندر ضد آسيا قد كانت حرباً أوربية ضد آسيا ، لم يكن إلا تمثيلية مضحكة . فلقد أخذ الإسكندر في الحقيقة جانب الحزب الشرعي البابلي ضد الهيلينيين ، إننا هنا أمام مواطن فارسي مخلص لمليكه .

وإن انتصاره بعيداً عن الإفادة لما سنسميه اليونان ، قد أنهى الأمر على العكس من ذلك ، في اعادة اليونان إلى السيطرة الآرامية . وإن هذا حقيقي إلى درجة أن الإسكندر ، إذا أخذ ، في أيامنا هذه كبطل من العالم العربي ، فإنه معتبر مشبوهاً بالنسبة للتقاليد الهيلينية ، ذلك أنه لم يكن يمثّل في الحرب التي قادها منتصراً ضد داريوس ، الهيلينيةَ ، ولكن الشرعية البابلية . لقد كان في الحقيقة قائد حرب مدنية ، وكانت أفضل فرقه مؤلفة لا من مجندين مقدونيين ، ولكن من أنصار فارسيين .

فلقد نزل الإسكندر إذا رداً على تحريضات داريوس الثالث ، على شاطىء طروادة في ربيع عام ٣٣٤ ، محاولاً تضخيم الجيش الصغير الذي أرسله والده من قبل . ولقد كان عليه أن يلقى في الحال ، وجهاً لوجه ، لا الفرق الفارسية ولكن الفرق الإغريقية الإيونية التي يقودها ممنون الرودوسي ، الاستراتيجي الذي لا نظير له ، والذي هو قبطان وقائد في آن واحد . ولم يكن اللقاء على نهر فرناق إلاّ ظل معركة ذلك أنهم قد نصحوا ممنون بأن يخلي الأرض أمام الجيوش المقدونية التي عزّزتْها فرق فارسية ثائرة .

ولقد كانت مقاومة المدن الإغريقية في ميليا وهاليكارناس ، على العكس من ذلك ، ضارية ، فلقد احتلت ثم استرجعت ، ثم انتهت بالبقاء في أيدي جيش داريوس الثالث . وتضاعفت خلال ما يقرب من سنة ونصف المفاوضات والمؤتمرات السّرية حتى شهر تشرين الثاني من عام ٣٣٣ ، الذي تواجه فيه داريوس والإسكندر في معركة أسوسْ قريباً من خليج انطاكية . ولقد اقترح داريوس ، المفاوضات بعد أن هزم ، ولكن الارستقراطية الفارسية رفضت العرض . ويظهر ، في الحقيقة ، أن عزلة الغاصب كانت كبيرة إلى حد غدت معه الحرب والمفاوضة غير ذات فائدة ، فلقد كفاه أن يتخلص من مكره . ومنذ اللحظة التي قدم فيها الإسكندر نفسه مدافعاً عن تقاليد داريوس الكبير ، ووارثاً له ، رحبت به الفرق المشكّلة ، والكهان والنبلاء ، والشعب ، ترحيباً

حاراً . وإذا ما استثنينا من ذلك فلسطين فإن صور وغزة قد احتلتا بعد معارك حصار طويلة . ولم يكن الأمر في أي مكان آخر ، سوى نزهات ومواكب تتلقى زهراً ، واستقبالات . وفي مصر حيا الفرح الشعبي الفرعون الجديد ، وكلمه كاهن آمون كابن إله . وكان التالي معروفاً : عاد الإسكندر إدراجه باتجاه نهر دجلة ، حيث قصم ظهر جيش داريوس في كوغاميل قريباً من مدينة أربيل العراقية الصغيرة ، وذلك في الأول من تشرين عام ٣٣١ . وقتل داريوس أثناء هربه من قبل جماعته .

واستسلمت بابل وسوس بسرعة . وأحرق القصر الملكي في برسيبوليس . وسقطت اقناتان بدورها بعد باصار كاد . وأخذ الإسكندر من ثم مكان الملك الكبير . ولم يحتج من أجل ذلك كله إلاّ لسنوات ثلاث . وإنها لمعجزة في نظرنا ولكنها لم تكن كذلك بالنسبة للشعوب الآرامية التي حيّت الإسكندر ملكاً له ثقافتُها نفسُها ، وديانتُها نفسُها ، ومن أرومتها ذاتها ، وهو يعتبر زيادة على ذلك ، قائداً طبيعياً في نظر نبلائهم وكهانهم .

ولم يتأثر التنظيم القوي الأمبراطوري الموضوع منذ قرون للأسرة النيلية الرافدية بسقوط داريوس قودمان ، فلم يكن الأمر بعد كل ما جرى سوى غياب رجل لا يمثل إلاّ نفسه . واستمرت الأمبراطورية . وعاد الكاتب إلى قلمه ، والفلاح إلى معزقته ، والصائغ إلى خيطه الذهبي . ولم يتغير شيء ، ولم يتحرك شيء من مكانه في الأمبراطورية الواسعة . ولم يكن مرور الإسكندر ، البطل الذي باركته الآلهة ، إلاّ تجعيدة على سطح آلاف من السنين المتراكمة محتفظة بالإيمان والمعرفة ، ومذهب الشك . كما لو أن العالم العربي قد احتوى الإسكندر والمجتمع الهيليني الذي وجد فيه تكملته .

ولنلاحظ جيداً : إن معركة المقدوني الآسيوية لم تتطلب إلاّ قليلاً من التحركات الحربية ، وكانت الخسائر فيها ضيئلة حداً . ولأن هذه المعركة قد حولها إلى « حركة بطولية » خيال الكتاب ، وبخاصة الأمراء الذين خلفوا

لإسكندر ، وكانت لهم مصلحة في تأليه ذكراه ، كما كانوا قد ألهوا ذكرى طوطموزيس ، ورمسيس أو الملك الكبير قورش . . . بينما لم تحمل تلك المعركة في الحقيقة أمراً حربياً البتة ، لقد كانت مقدمة مع ذلك ، وكأنها جولة انتخابية كانت نتائجها مضمونة سلفاً . لقد كان سلوك الإسكندر في جميع تفاصيله سلوك ملك آرامي . وتابع خلفاؤه المثال نفسه . واعتمدت الأسرة الجديدة تجاه شبه الجزيرة الهيلينية والأراضي الإيطالية ، والقرطاجية أو الايبرية سياسة الحماية التي كان يعتمدها لمدة طويلة الفراعنة أو الأخمينيون . واستمرت في تغذية المتوسط الشرقي وما وراءه من بلاد . وللمقاطعات الدانوبية المضافة إلى الأمبراطورية أيضاً اسهامها الإقتصادي . إن القلق الموسوس لاحترام قانون بابل الدستوري وعاداتها كان متمكناً إلى حد أن الإسكندر قد اضطر إلى عدم حمل اللقب ، والشارات الملكية والتاج ، إلاّ بعد غياب داريوس ، أي بدءاً من سنة ٣٢٩ . عند ذلك استأنف فقط التقليد الاحتفالي الايواني ، وعادة الاحترام التي تقبل بموجبها الرعية أنامل الملك ، كما أن النقود ضربت في آسيا وفي مقدونيا حاملة الكتابة التالية « الإسكندر ملكاً » ، كما لو أنه أراد أن يثبت أنه وارث الأخمينيين الطبيعي . وإن أول التظاهرات كانت في أن يضع نفسه تحت حماية الملك الكبير سيروس والذهاب لتقديم الاحترام لقبره في بازاركاد .

لقد بذل جميع جهوده لكي ينسي الناس أنه ليس من بلادهم . ولقد توصل إلى أكثر مما يريد وبسهولة ، لا بالعرقية ، ولا بالثقافة ولا بالديانة ، ذلك إنَّ الإغريق والأفريقيين ـ الآسيويين لا يتمايزون في الحقيقة ، فلقد كان الأعداء « القوميون » كما نعرفهم اليوم ، غير معروفين في ذلك العصر . لقد كان الإسكندر يمهر مراسيمه بخاتم داريوس الخاص .

ولقد أحب أن يزور جميع مقاطعات الولايات المتحدة الآرامية ، وأن يؤكد على مثال اسلافه الأخمينيين ، في جميع الأماكن ، وجود الملك

تحقيقي . وكان عليه أن يعلل رحلاته التي قام بها إلى باقتريان وصوقديان في سنتي ٣٢٩ و ٣٢٨ ، وإلى كابول عام ٣٢٨ ، وإلى البنجاب في سنة ٣٢٦ ، وحتى الحدود الرسمية المعترف بها في البروتوكولات الهندية ـ البابلية . ولم يتجاوز في مكان ما حدود الأمبراطورية . وإن التناقض يكمن في أن الإسكندر على الرغم من شهرته المتملقة التي كان التاريخ يمجدها لم يكن أبداً أحد الفاتحين . إن مهنته لم تكن على صلة مشتركة تجمعها بمهنة أتيلا أو نابليون . لقد اكتفى بزيارة مملكته لا اجتياز ممالك الآخرين .

وعندما عاد إلى سوس في ربيع سنة ٣٢٤ ، بعد زحف عانى منه خلال بلوخستان تاركاً لقبطانه نيازك أمر العودة عن طريق الخليج الفارسي ، لم يكن يفكر أبداً أن تلكم الزيارة قد تتم . لقد كان يقدر أنه سينهيها ، عندما فاجأه الموت بسبب سفره إلى ليبيا وقرطاجة ، وايبريا ، وهذا ما يؤكد بوضوح أن هذه الأرض كانت تشكل هي الأخرى جزءاً من منطقة التأثير البابلي . لنحتفظ منها بالقائمة . إنها بلاد ستمثل فيما بعد الحيز العربي التاريخي ، لأنها كانت تمثل آنذاك في ظل الأخمينيين الحيز التاريخي الآرامي . لقد قدمنا مخطط الإسكندر الاستراتيجي فيما بين النهرين ، وفي جزيرة العرب والخليج الفارسي بطرفة مثيرة ، لقد خيل إلينا أنه اخترع الطريق الجديدة التي تصل مصب نهر الهندوس ومصب نهري الفرات ودجلة ، وقد نذهب في تخيل ما لا أدريه من تسلط فكرة (البحر الخارجي) عليه ، والحق أن « مخطط الإسكندر » الشهير قد كان ، منذ داريوس الكبير ، وقبله بكثير بالتأكيد ، معروفاً ومنفذاً . ولقد وصفه هيرودوت بدقة . لقد استعمل الإسكندر البحارة والجغرافيين والمستكشفين والتجار الذين كانوا في خدمة الأخمينيين ، لغايات وطرق متماثلة . ولقد وصل داريوس ، منذ القرن السادس قبل الميلاد ، حوض الهندوس الأعلى ، وطرق المواصلات بين كابول وبابل التي كان البحارة يستعملونها عادة في البحر أكثر مما يستعملون الطرق البرية .

ولقد كان الاسكندر غريباً قليلاً عن آسيا الامبراطورية حتى إنه منذ استولى على برسيبوليس ، قد أرسل مجموعات عسكرية اغريقية مثبتاً المرزبانات وقواد الحرب الفرس في أعمالهم . ولقد أعيد تنظيم الجيش بالفرس ، ومع الفرس ، ولقد وضعت الفرق المقدونية نفسها موضع الشك ، بحيث إنه بعد انتفاضة معسكر أوبيس (انتفاضة من بين أخريات) قد استبدل بحرس الملك الشخصي حرساً من الفرس حصراً ، بدءاً من سنة ٣٢٥ . إن كل ذلك قد رُوي لنا في اناباز آريان ، وتاريخ حيوات بلوتارك ، ولم يستطع هذان المؤرخان العائدان للقرنين الثاني والأول قبل الميلاد بالطبع أن يحضرا انتصارات بطليهما . ولكنهما استندا إلى مصادر جديرة بالثقة ، وإلى حوليات حررها فيما بعد قائد الاسكندر القديم بطليموس ، الذي أصبح بعد زمن ملك مصر . نحن ، إذاً ، مزودون بوثائق جيدة من جديد ، ولقد لزم الشارحين المحدَثين كثيرٌ من الأفكار المسبقة لكي يشرحوا حركة الاسكندر باعتبارها سيطرة هيلنتية فقد كانت فكرتها نفسها لا يمكن تصورها . فلقد بقيت الآرامية لغة الإدارة مدونة حيناً بالمسمارية مباشرة ، أو بالألفباء الفينيقية أو المصرية ، وحيناً آخر بالإشارات الاغريقية المنسوخة لفظياً عن الآرامية . فلقد كانت أصول اللغتين وبناهما تتحد أيضاً بشكل أدق ، لا بتأثير إرادة الاسكندر أو بضغط من جنوده المقدونيين القلائل ، ولكن بتأثير تداخل بطيء معزو للصلات المستمرة . لقد كان هناك تزاوج لغات ، كما كان هناك تزاوج شعوب .

وعندما تزوج في سوس ثمانون ألفاً من رفاق الاسكندر في السلاح من نبيلات الارستقراطية الفارسية ، وعندما شارك الملك نفسه شخصياً ، وحسب الشعائر الآسيوية (بتناول قربان الخبز إن لم يكن النبيذ) مع الأميرة روكسانا ، فإن عظمة الأعراس قد أدهشت الشعب ، ولكن إنساناً ما لم ير فيها تظاهرة سياسية تغطي مخطط ضم بلاد اليونان إلى آسيا . لقد مضى حوالي ألف سنة منذ كانتا تؤلفان جسماً واحداً ، ولم يثر أي زواج البتة بين شخصين من طرفي

مضايق الدردنيل فضول أحد وإننا لن نجد في الاقتباس التالي من أحد الكتب المدرسية سوى تعليق غريب خاص : « لقد رفع الاسكندر الكبير الشرق إلى مستوى الغرب . وآمن أيضاً بفكرة مزج الشرقيين والغربيين معاً ، وبجعل الاغريق والبرابرة شعباً واحداً » . إن من الغريب حقاً سماع هذه الكلمة « برابرة » التي تعني أشياء كثيرة . فليس هناك ، على كل حال أي شاهد على زمن لايشي بحالة تداخل ديني وفلسفي كلي ، ففي الاحتفالات الرسمية الدينية كان الاغريق والمجوس يحتفلون معاً . ولقد روى الأستاذ (ألتهايم) في كتابه الممتاز الاسكندر وآسيا[1] . إنه بعد جنازة هيفيسيتون ، أحد أفراد حاشية الملك ، كانت نيران المعابد المقدسة الآشورية البابلية خامدة ، إشارة للحداد . وما هي ، في الحقيقة ديانة الاسكندر ، إننا لا نعرف عنها شيئاً البتة ، إنها مستمدة من مزيج ديانات خاصة بالعصر ، فنحن نراه يمجد ديونيزوس ، وهيراكليس (جد أسطوري للأسرة المقدونية) ، ولكنه يمجد أيضاً أورفيه ، وسيبيل ، وإيل ، وشمش وجوبيتر ، وايزيس ، وآبيس ، وليس هناك جماعة دينية مقدسة لم تتلق موافقة الاسكندر اللطيفة وعطاياه ، ولقد سُجِّلت لقاءاته مع اليهود في كتب الحوليات ، ولقد احترم في صور وفي القدس الإله الفلسطيني . ومع ذلك ، فقد ذهب في مصر ، إلى حدود ليبيا بحثاً عن التكريس الاسمي ، أي تكريس آمون . وقد تعرفه كاهن معبد آمون ، وأعلنه « ابن الإله » ، معطياً أياه الاعتماد السحري الذي كان يمنحه لملوك فرانسا تكريس كاتدرائية ريمس . والواقع أن « ابن الإله » وحده هو الذي يستطيع ادعاء لقب « رئيس الدولة » ، لأنه يصبح ، باندماجه في النظام العالمي ، سيد القانون الطبيعي أي السيادة الخاصة بالمحافظة على المدينة في طريق النجوم ، والفصول ، والتطورات الفلكية . لأنه إذا كان الأقدمون قد استسلموا إلى فكرة أن للفرد مصيراً مؤقتاً ، فلقد كانوا يرون في المدينة

---

(١) نشر دار بايو ، باريس ١٩٥٤ .

الإنسانية صورة مدينة الله . لذلك كان من غير الطبيعي أن يقودها رجل عادي دون قرابة مجتمع الخالدين . فلم تكن له سوى السلطة الملكية ، وهذه لا تستمد شرعيتها إلاّ من القانون الإلهي . إنَّ كون مقدوني ، تلميذاً لأرسطو ، قد ذهب حتى مزار آمون المصري ، ليلتمس منه الإذن بالملك على بابل دليل صارخ على وحدة الشرق العضوية فلقد كانت الديانة واحدة تحت مظاهر متعددة ، والدولة واحدة كذلك على الرغم من استقلال الجماعات الذاتي ، والقانون واحد على الرغم مما تقتضيه هنا وهناك الظروف المحلية . فلا يكفي الأسكندر البتة لكي يخلف داريوس الثالث ، ولكي يلبس تاج العاهل الكبير ، أن يكون فقط مرشح الفئة الشرعية .

كان عليه أن يحصل على موافقة مقام أعلى أيضاً ، وكان هذا المقام الأعلى يدعى آمون . وعندما يتكلم آمون ، فكل الديانات تطيعه .

إن هنا نوعاً من التفكير قليل الشيوع نوعاً ما لمؤرخ ديانات العهود القديمة وعباداتها . وإذا كانت مصر قد ظلت الفاتيكان القويّ ، وإذا كان جميع الآلهة يتجهون إلى مصر ، كما لو أنهم يتجهون نحو المنبع والأم العالمية ، فنحن بالطبع مدفوعون إلى القبول بأن مصر تمارس سيطرة روحية لا تنازع ، وإن علينا إعادة النظر في حكمنا على الأصالة المزعومة للديانات الشرقية القديمة ذلك أن هذه الديانات ، المتشبعة كلياً بالنغم المتناسق لجميع الروحانيات الشرقية ، تنبع من إله مصر . شأنها من ذلك شأن بقية الأديان . إن تجربة الأسكندر ، وهي أكثر من كونها درساً في الفن الحربي ، توحي لنا بمثل هذه النتيجة إنها تعطينا دلالات ثمينة عن التسامح وعن إيمان الشرق الحقيقي المتطلع إلى ما وراء حدود الشعائر والطقوس ، هذا الإيمان الذي كان يتمركز في أعلى نقطة من نقاط التفكير ، هناك حيث تلتقي الجهود الإنسانية ، وحيث تمحي العداوات . بمثل هذا السمو كما كان الأقدمون يقدرون ، يمكن أن تحكم البشرية وذلك يفترض أن يكون الملك فوق جميع الأديان ، وإن يفهمها

،و يستوعبها جميعاً ، وباختصار أن يكون « ابن الإله » إذا لم يكن الإله نفسه

هكذا دعي الأسكندر ، إذاً ، كما كان قد سمي قبله سيروس وداريوس أو رمسيس ، فكم أهرق من الحبر لتأكيد تعبير التقدير هذا !! .

لقد أريد أن يرى فيه إشارة العصور الجديدة ، والإعلان عن مولد الهيلينيستية ما قبل المسيحية ، بينما لم يكن ذلك يعني سوى عنوان يمضي متوازياً مع التاج ليس أكثر من ذلك ، ولا أقل منه أيضاً .

فالاسكندر كملكٍ آرامي ، يؤلف جزءاً من التقاليد التاريخية العربية على الأقل ، بقدر ما يعني ذلك التاريخ الاغريقي . ويظهر أن غالبية شرُاح التاريخ ينسون ذلك . وتلاميذنا يرتكبون الخطأ نفسه متجاهلين أن شارلمان مثلاً ، لم يكن حصراً « فرنسياً وأن اسم الاسكندر ، أو اسكندر ، أو بشكل أبسط سكندر ، قد استمر يُعطى اسماً للأطفال العرب . وإن هذا لمثير للاهتمام ، ذلك أن مصير الاسكندر المقدوني ، خلافاً لما كان يفكر به عادة ، لم يكن كذلك البتة . إن اسكندر اسم آرامي قديم خلق الإغريق انطلاقاً من الكسندروس الذي كان يومذاك اسم طروادي (اسم باريس ابن بيريام) وعكس علماء الاشتقاق مرة أخرى ، لأن غالبيتهم هيلينستيون في غربنا على الأقل . . . عكسوا الأدوار وأعطوا مشتقاً آرامياً لجذرٍ كان حسبما يرون اغريقياً ، وهكذا وضعوا مرة أخرى العربة أمام الحصان . فإذا كان العرب قد سموا اسكندر ، فليسوا مدينين به لابن فيليب ، إنه هو المدين لهم باسمه .

ولم يكد يموت ، وسنه ثلاثة وثلاثون عاماً ، في شهر حزيران عام ٣٢٣ ، بعد سنة من عودته من الهند ، حتى جثم ثقل وراثته على الشرق ، وعلى الشرق فقط .

ولقد كانت الملكة روكسانا حاملاً بملك المستقبل (**الاسكندر الثاني**) كما سوف يسمى حسب القانون الوراثي حين يكون ملكاً . **وفي انتظار ذلك**

سمي ، حسب الدستور المعمول به ، مجلس وصاية على ملك مؤقت هو فيليب ارهيدية ، وهو أخ غير شقيق للعاهل الميت ، والوزير الأول الجنرال بيرديكاس ، وبما أن هذا الأخير كان يتحدى طموحات قواد الاسكندر السياسية ، فإنه سيحاول أن ينقذ مبدأ الوراثة الملكية للحق الإلهي ، ووحدة الإمبراطورية معاً ، لكنه غلب ، وقتل . وساعده الفارسي أومين الذي كان من قبل « وزير الأسرار » ، وحامل الخاتم الملكي في محاولته . ولكنه سيقتل هو الآخر بناء على أوامر القواد . وسيقتل الملك الوصي فيليب تنفيذاً لأمر حماته أوليمبياس ، أم الاسكندر الكبير ، التي كانت مشغولة بسلامة حفيدها ، الذي كان (اسكندر) هو الآخر ، ولكن اوليمبياس بدورها قد قتلت . ثم اقتيدت روكسانا أخيراً ، وابنها الذي بلغ الثانية عشرة والذي وضع أولاً في إقامة جبرية محروسة ، ثم انتبذت لتضرب في عام ٣١٠ قبل الميلاد .

ولم يبق من العائلة الملكية أحد ، فلقد أبيد جميع أفرادها . وتهدمت وحدة الولايات المتحدة الآرامية السياسية التي شادها داريوس قوية منذ عام ٥٢٢ مستندة إلى الدعامتين القويتين مصر وبابل . ولأن خلفاء الاسكندر لم يكونوا أهلاً للحفاظ على المركزية الامبراطورية ، فسيعمدون إلى الاستفادة في سبيل تقاسمهم الإرث ، من الاختلافات السياسية بين الدول الجديدة المحدثة . ولكن ترابط الشرق الثقافي والديني والاستراتيجي ، سيبقى قوياً جداً بين أفراد الشعب الآرامي لأن هذا الترابط صمد أمام التقلبات العسكرية والديبلوماسية . وسيكفي إذاً عمل سياسي لازب وعملية واسعة حتى تتحقق الوحدة الجديدة المفقودة . لقد حققتها الامبراطورية الرومانية في بيزانطة ، والخلافة العربية ، ثم العثمانية التي ستحتفظ بها في كمالها الأخميني . إن اليقظة الحديثة تحت اسم العروبة أو « القومية العربية » ترى فيها اليوم موضوعها العزيز جداً . أن النظريين مثل استراتيجيي العروبة ليسوا إلاّ منفذي وصيتي داريوس والاسكندر ، يحملهم تقليد شعبي مشترك قديم قدم العالم .

فبدلاً من تحليل ظاهري ، حسب اتجاهات اللحظة العابرة ، لحقيقة التاريخ الآرامي لننظرْ بجلاء لكي تستطيع تمييز قواعده الأساسية وللنظرْ إلى قواد الاسكندر : فبعد سنوات من المعارك الدامية والدسائس التي كانت خيوطها تضيع في متاهات مغلقة ، فتحت معركة أبسوس في فيرجيا على اتفاق يقسم الامبراطورية إلى أربع دول متجاورة ومتكاملة ، ومتعادية في آن واحد : (مقدونيا واليونان) سلمتا إلى حفيد كاساندر ابن انتيباتروس (والمضائق) ، أي الأرض التي تضم تراقيا وآسيا الصغرى حتى طوروس ، (آشور وبابل) من الهند ـ كوش إلى بحر ايجة ، عادت إلى سلوقس ، (مصر) وقد كبرت بسورية الجنوبية وبغالبية شبه الجزيرة العربية تعود منذ ذلك الوقت لسلطة بطليموس ابن لاغوس . وهكذا فنحن عائدون على هذا الشكل إلى الحالة التي يعرفها العالم الآرامي تحت حكم الأسرة الفرعونية الثامنة عشرة ، عندما كان الشرق مقسماً بين مصر ، وبابل والمملكة الحثية . فلم تكن المناطق شرقي الدردنيل سوى ملحقات بالدول الثلاث الأخرى . ويعيد التاريخ نفسه مرة أخرى : فسنرى الآشوريين والمصريين (وهم والحالة هذه السلوقيون والبطالسة) يقتتلون من جديد لامتلاك فلسطين وخليج العقبة ، وستكون هناك غزوات على العاصي من جهة قادش وانطاكية . وسيتواجه على ضفاف الفرات الأعلى المقاتلون المسرعون من ضفاف النيل أو من الخليج الفارسي أو من تراقيا . وستظهر في اللقاءات العسكرية أسماء غزة ورافينا وكركميش وبيزانطة وافسوس إلخ . . . ولا شيء جديد تحت الشمس ، كما سيقول سِفْرُ الجامعة ، سوى هذا البابلي من دون وجه والذي لا يبالي بشيء .

ولقد كان هناك واحد من بين رؤساء الدول الأربعة الذين استقروا في عواصمهم القديمة الأربع ، واحد تجاوزت يقظته حسابات الآخرين ، إنه بطليموس . فلقد كان يعرف أن الملوك الحقيقيين لا يموتون أبداً ، لأن ابن الإله لا يعرف المصير العام . ولو أنه مات فإن الملك يحيا أبداً ، إنه يتابع

« السهر على سلام الامبراطورية » ويكفل رعيته . وهكذا استطاع ، أن يختلس جثمان الاسكندر ، ليحمله إلى مصر ، عنده ، وأن يدفنه في المدينة الوليدة ، لاسكندرية ، وإنه لأمر جدير بالملاحظة . فلقد كانت هذه هي المرة الأولى التي يدفن فيها ملك كبير هو سيد النيل وما بين النهرين ، يُدْفَنَ في مصر المقدسة . فلقد كان الأخمينيون حتى الآن في قبورهم شرقيّ دجلة . كان حضور الجثمان المقدوني الحقيقي والرمزي ، يحيي صفة مصر الامبراطورية ويزين أسرة اللاغوسيين البطالسة بهالة نفوذ متفوق . كذلك اتخذوا لهم ممفيس عاصمة ، انتظاراً للاستقرار في الاسكندرية .

البطالسة والسلوقيون وارثون متنافسون وأعداء

من بين الأسر الثلاث ذات الحق الإلهي ، التي هي الأسر الأنتيبمونية والسلوقية ، والبطالسة ، سيطرت الأسرتان الأخيرتان في تاريخ المتوسط ، سيطرة مستمرة حتى القرنين السابع والثامن الميلاديين ، وهي المدة التي شملت ما سمي « بالامبراطورية الرومانية » التي سنرى أنها لا تحسب إلاّ ابتداء من الفترة التي ظهرت فيها كما فعل الاسكندر ، مستفيدةً من الإرث السلوقي والبطليوسي .

وعلى الرغم من أن مصر قد احتفظت بتفوق روحيٍّ وبقيت المرجع الفقهي الرمزيّ ، فقد وجدت ـ لأنها مع الأسف لم تكن مسكونة إلاّ بسبعة ملايين من السكان ـ دورها يتراجع شيئاً فشيئاً أمام الدور السوري ـ البابلي الغني بثلاثين مليون ساكن والمفتوح على الثروات الهند الآسيوية ، أي شبه جزيرة الهند والصين . ومُحِيَتْ الاسكندرية ، وتنازلتْ عن مكانتها لصالح (بيزانطة) التي أخذت اسم القسطنطينية على أنه كان يلزمنا ستة قرون حتى يكتمل التطور . فعندما سيطر البطالسة كانت مصر تتمتع بسيطرة روحية واقتصادية واستراتيجية . ولم يتوصل السلوقيون ذات يوم إلى تأسيس قوة راسخة كهذه القوة ، لأنهم كانوا مهددين باستمرار على حدودهم الشرقية والشمالية . إن الملك فيها إله وهو يشيد الأمجاد الإلهية لسلفه المدفون في احتفال كان « تأليهيا » ، والذي ستجعل الامبراطورية الرومانية منه طقساً دستورياً ، كان الشيءُ ذاتُه يتم في بابل حيث كان العاهل يسمى « أبيفان » ، أي الإله المرئي . وفي مصر ، وفي بابل أيضاً ، وفي مملكة المضائق ، وفي اليونان أصلحت بنفقات سخية معابد أيزيس واوزيريس وسيبيل وميترا وأورفيه . إن زائري أبنية

وادي النيل ليدهشون من حالة البناء الجيدة ، ومن نضارة اللوحات الجدارية ، وتلألؤ الذهب والزينات الطقسية . ذلك أن معابد مصر القديمة لم تكف عن الاستعمال أماكن للعبادة أمداً طويلاً بعد الميلاد . إن تخريبها وتلفها لا يعودان البتة إلى أبعد من الغزوات الخارجية ، ومن العهد التركي الذي يُعْرَف أنه يهتم اهتماماً ضئيلاً بحماية التراث الآرامي الذي لم يكن تراثه الخاص ، إن مدينتي أفسسوس وميليا قد أعيد بناؤهما ، بينما كانت تظهر في مملكة المضائق مدن جديدة : اللاذقية وأفاميا وبرغام . كان السلوقيون بخاصة مدينيين كباراً : فلقد أنشأوا ، في سورية أرضهم المفضلة بين الفرات الأعلى والبحر ، حيث كانت تصطرع منذ قرون الجيوش ، مدينةَ أنطاكيّة الرائعة وميناءها سلوقية وأنشأوا إلى أبعد من ذلك ، في تركستان ، وسط واحات مرو (انطاكيّة) أخرى ، وبنوا ، على ضفة دجلة اليمنى وعلى بعد قليل من بلدة اسكندرية (الاسكندرون) العراقية الحالية (سلوقية) مدينةً سلوقية وكانت تضم ٦٠٠٠٠٠ نسمة . ولن نعجب من سماع تجاوب أسماء المدن ذاتها ، فسنجد كل مكان في ليبيا وفي هند ـ كوش « اسكندريّات » ، وبطلسيات وسلوقيات وانطاكيات أو أرزينويات ، بنيت على شرف أمراء أو أميرات من السلالة المقدونية . فهل هناك ضرورة للتأكيد على أن التماسك الديني والثقافي للمجموعة الجديدة كان يتضاعف بوحدة لغويةٍ تجمع الاغريقية والآرامية التي ، منذ أمد بعيد ، هي اللغة الأكثر استعمالاً بين عامة الشعب ، إننا حين نتكلم عن أمبراطورية اغريقية ، لا يمكن أن نعني بها سوى تشويهٍ شديد للحقيقة . فلقد استمرت الهيلينستيةُ التي لم تكن شيئاً آخر سوى نقل مكتوب للثقافة الايجية الآرامية ، استمرتْ في إنشاء شكل حياة إمبراطوريةِ الشرقُ مضمونُها . وعندما أعطى بطليموسُ الثالث ، في القرن الثالث قبل الميلاد ، للاسكندرية ذلك البريق الذي لا يضاهي ، والذي نعرفه والذي جعل منها عاصمة العالم حقيقة . . . كانت الاسكندرية آنذاك فينيقية بمينائها ، وتقاليدها الدينية التي جمعتها

النصوص ، وكانت أفريقيةَ الصفة ، بصفة النيل الذي يمر بها ، وكانت ، بالطبع مصرية بعمارتها وعالميتها ، ولكنها لم تكن تملك ، من الاغريق ، سوى مجتمع سياسي صغيرٍ وعالمٍ . إن ملاحظة لاشبنغلر[1] ينبغي أن تجذب الانتباه : « إن ما نعرفه عن الرياضيات الاسكندرية يفترض في هذا المجال حركةً كبرى تحتل مركز الصدارة جامعات أوديسا وكيشابور وطيسفون والتي كانت ترى بعض خصوصياتها ؛ فقد تدخل في المجال اللغوي للعهود القديمة ، فزيندور الذي عالج مسألة الصور المتساوية المحيط ، وسيرينوس الذي اهتم بقضية المجموعة الضوئية المتجانسة في الفراغ ، وهيبسيلكيس الذي أدخل تقسيم الدائرة الكلداني ، وديوفانت الرياضي الاسكندريّ بخاصة . . . إنهم جميعاً آراميون على الرغم من أسمائهم الاغريقية ، ولا تشكل كتاباتهم إلا جزءاً بسيطاً من تراث لغوي سوري بصورة رئيسية . ولقد وجدت هذه الرياضيات تتمتها في العلم العربي ـ الإسلامي الذي تبعته بدوره بعد فترة انقطاع طويلة الرياضياتُ الغربيةُ ، رياضياتُنا ، « التي يُظهرها ، لنا خداعٌ بصريٌ ، وكأنها الرياضيات إجمالاً » .

على أن الاسكندرية لم تكن وحدها عاصمة الدراسات الرياضية الآرامية . فحول متحفها ، معبد المعرفة الحقيقي والبحث الموسوعي ، الذي أحدثه بطليموس الثالث ، وحول المكتبة التي أنشأها بطليموس الأول انطلاقاً من أساس فرعوني بـ ٤٠٠٠٠٠ إلى ٧٠٠٠٠٠ مدرج كتابي ، حول ، هذه وذاك اجتمعت نخبةُ الحضارة الفكرية . ولنذكر بسرعة بضعة أسماء : أبولينوس من بيرجيا الأخصائي في المقطع المخروطي ، أرخميدس الشهير ، مخترع نظريات الهندسة والفيزياء والميكانيك ، ايراتوستين ، وديسيارك الذي كان يقيس محيط الأرض ، أريستارك من ساموس الذي أظهر ، قبل غاليله ، أن

(١) انحطاط الغرب ج١ طبقة ن. ر. ف ١٩٤٨ ص٧٣ .

الأرض تدور حول الشمس كما كان الفلكيون الكلدان يعلّمون . لقد بلغت دراسات جسم الإنسان ودراسات التشريح الطبي مستوى مدهشاً . وسيشتهر بعد ذلك ، في ظل حكم بطليموس السابع ، آسكيبباد في الطب ، وهيرون في الميكانيك ، وهيبارك في الفلك ، وديديم في علم اللغة . فلماذا تكلم شراحنا ومؤرخونا المحدثون عن « حضارات من الدرجة الثانية ؟ » كان الأدب بصورة عجيبة ، غنياً متنوعاً كثيفاً : تيوقريط وبيون ، وليكوفرون الذي كان يمزج كلمات عربية باغريقية ، وكاليمارك . . . (وذلك لكي لا نعد سوى المعروفين قليلاً) الذين كانوا أساتذة فرجيل وهوراس وكاتولا وبروبورس وأوفيد . ولنوقف التعداد هنا . فلقد كان كاليمارك ، الذي وصل إلى الاسكندرية في سن العشرين وانتهى مديراً للمكتبة ، عربياً ليبياً ، من سيرين بالضبط . إنه ينحدر من أب يتحدر بدوره من أسرة باطة ، واسم أمه ماكاتيما ، أو بالأحرى فاطمة لا مجال للشك في أصوله ، إنه دون شك الممثل المؤهل ، أكثر من غيره ، لما كان يسمى « الاسكندرية » التي كان تأثيرها في بلوتارك أورونسار مفروغاً منه : إن غنائية تيوقريط ، وهو مصري ـ صقلي آخر لهذا العهد الذهبي ، أثار اعجاب بوسويه بصفته الآرامية فجعله يشبّه (قصيدة عرسه إلى هيلينا) بنشيد الإنشاد .

وليس في ذلك ما يثير الدهشة ، لأن نصوص العهد القديم التوراتية قد سجلت بالإغريقية في نفس الوقت الذي كان يكتب فيه تيوقريط تقريباً .

وإنه لمثير أن نتتبع تطور الاستراتيجيات الجغرافية السياسية لكل من البطالسة والسلوقيين . إننا نلاحظ عندئذ من جهة أنها يكمل بعضها بعضاً ، ومن جهة أخرى تمتد في آن باتجاه دائرة خط الاستواء حيناً ، وباتجاه الهاجرة حيناً آخر . إن المحطات الأفقية إنما تكون في أعمدة هرقل ، وقرطاجة ، ليبيا ثم باقتريان ونهر الهندوس وماتورا ، وكثير من البلدان التي تتمسك بالتقاليد واللغة الآرامية نجد آثارها في الديوان الملكي لأسرة موريا الهندية .

إن البحر الأحمر والخليج الفارسي ، كانا الطريقين البحريين لهذه الاستراتيجية الاستوائية . ولقد كانت الطرق العمودية منها تمتد من الغرب إلى الشرق : فخطوط القوافل وهي تصعد من خليج غينيا تلتقي في ليبيا أو في قرطاجة لتصعد في البحر حتى مصبات نهر الرون ثم نهر الرين ، ومن هناك إلى الأراضي الانكليزية والاسكاندينافية لتنتهي في ايسلاندا ؛ ثم هناك خط نهر النيل الذي يصب في شبه جزيرة اليونان وفي قارة أوربا ليبلغ كييف . ويصعد اتجاه ثالث وأخير من اليمن ويجتاز شبه جزيرة العرب مروراً بمكة وذهاباً إلى وادي الدون عن طريق البحر الأسود وبحر الخزر . إن نظرة عجلى إلى الخارطة تبرز أن البطالسة والسلوقيين في استعمالهم الطريق الأخير هذا قد كانوا بحاجة للمرور بمملكة المضائق (تركيا الحالية) التي كانت لفترة طويلة أرضَ نزاع ومنافسة ، قبل أن تصبح مع بيزانطة مفتاح القبة وسيدة المجموعة السلوقية المضائقية . إن ذلك يعني كما سنرى استراتيجية قارية بصورة أساسية ، عناصرها البحرية والمينائية تتحدد بأنظمة نهرية ، وشاطئية ومتوسطية ، لأن التقنية غير الثابتة للإبحار كانت تمنع استعمال محيطي الأطلسي والهندي . إن البطالسة الذين يحيط بهم السلوقيون في جميع حدودهم ، وفي الشرق بصورة خاصة ، والذين يستخدمون الجغرافيا ، لم يكونوا بحاجة إلى أعمال كبيرة لتطوير فعالياتهم الاقتصادية والسياسية ، فلقد اكتفى بطليموس الثاني بوصل النيل بالبحر الأحمر وبتوسيع الاسكندرية ذلك التوسيع الذي جعلها على هذا الشكل ، على صلة مباشرة بالعالم الهندي ، لذلك بنوامن ثم ميناثين على البحر الأحمر ، ميوس هورموس ، ووبيربتيس . وبقي عليهم لضمان الخط التجاري الذي يصعد من اليمن نحو فلسطين وسيناء أن يتأكدوا من طاعة ممالك سبأ في مأرب ، والعلا ، وتيماء ويثرب ومكة وأم بيرة (مدينة صغيرة حيث ستشاد فيما بعد المدينة الحصن البتراء) التي يملكها الأنباط . (كانت القوافل تقطع الطريق ، حسب سترابون ـ من عدن إلى خليج العقبة في سبعين يوماً) .

ولم يكن القيام بذلك صعباً ، فغالبية المنطقة كانت تحت حماية الفراعنة منذ عهد أسر ممفيس الأولى . ولا تزال خرائط طرق شبه الجزيرة اليوم تتابع الإشارة إلى أم العلا وتيماء والبتراء ، وفي جوارها معان ، ملتقى طرق القوافل .

وكان للسلوقيين القسم الأصعب في ذلك . فلقد استفادوا من جهة البحر من المؤسسات المينائية البابلية الموجودة في خليج البحرين على شاطىء الحسا ، في جرها بالضبط ، قريباً من ميناء العقير اليوم . لقد وسعوا ، على الجانب الآخر من الخليج في مدخل بحر عمان المدينة الجميلة البحرية هرمز ، عاصمة المقاطعة المسماة كرمانيا (تسمى اليوم كرمان ، ولا يفوتنا أن نلاحظ كمال اللغة الآرامية الثابت الذي يتحدى العصور) . وأكملوا في ملتقى دجلة بقارون ، في موضع المدينة الايرانية الحديثة خوارزم شهر بمشروع الأخمينيين ففتحوا ميناء . وبنيت أيضاً في الشمال ، في تقاطع طرق ، ولمراقبة الحدود البعيدة للمنطقة ، بنيت العاصمة المحلية انطاكية التي ستصبح شراكس ، التي ليست شيئاً آخر سوى شيراز الحالية . ولكن السلوقيين اصطدموا على الأرض ، باتجاه بلاد فارس وخراسان وباقتريان ، بصعوبات يعسر تخطيها تعزى إلى يقظة شعوب البارتيين الذين أعلن أحد رؤسائهم أرساكيس نفسه ملكاً في سنة ٢٤٧ قبل الميلاد ، مؤسساً بذلك أسرة جديدة شرقية ستحكم حتى سنة ٢٢٦ بعد الميلاد أي قريباً من ٥٠٠ عام ، تحت اسم الأرساسيين . وكان على تاريخ الشرق منذ ذلك الوقت ، ونتيجة لذلك كله ، أن يحسب حساب الوافدين الجدد . إن ذلك ليعني أن روما بدءاً من القرن الثالث قبل الميلاد ، أي في الوقت الذي لم تكن فيه سوى قوة مضطربة مقحمة في الحروب البونية ، قد بدأت باخلال توازن النظام الآرامي القديم . وإذا ما فكر المرء أن التراقيين والداشيين والسيتيين كانوا في الوقت نفسه ينظرون بطمع إلى مدن الشرق المتوسطي والرافدي حالمين بفتحها ، يدرك أن الامبراطورية الرومانية حتى

قبل سيطرتها ستكون مجذوبة حتماً وتابعة لشرق لا يزال أضخم ، وأكثر تهديداً وطموحاً ، وأقوى على الحرب من هذا الشرق الذي كان قد امتص اليونان . كان الشرق النيلي البابلي ، عندما ولدت روما ، قد كبر من دون حساب ، حاملاً لغته المزدوجة الاغريقية ـ الآرامية حتى الهندكوش والدانوب ، مدخلاً في ثقافته ما لا يقل عن خمسين مليون إنسان . فإذا ما وضعنا الغرب والشرق في القرنين الثالث والثاني قبل الميلاد ، في كفتي ميزان فإن علينا أن نظهر كفة الغرب فارغة تقريباً ؛ هذا الغرب الذي تحمله كتلة الكفة الشرقية الساحقة . فلم تكن المدينة الرومانية مطوقة من جميع جهاتها بالفتح الآرامي فحسب ولكنها كانت هي نفسها مشربة بالتقاليد العربية الآسيوية بتأثير اينياس جدّها المؤسس ، وبالديانة والعقلية الأوتروسكية ، وبالحضور الاغريقي ـ الفلسطيني في كامبانيا وصقلية والبروفنس ، وبالتأثير القرطاجي الذي ينفذ حتى الأعمال بدءاً من الضفاف التونسية والجزائرية والليبية . فماذا يمكن أن يكون وزن روما أمام مثل هذا النفوذ ؟ لا شيء يذكر ، أي مثل تاثير أثينا أمام داريوس .

يلزمنا لكي ندرس تاريخنا ، مصور آسيا أكثر مما يلزمنا مصور روما . إن الأخبار الرومانية ، إذا ما قورنت فيها كبريات الحوادث التي تضاعفت منذ القرن الثاني قبل الميلاد من آسيا وبحر ايجة إلى السهول الهندية الصينية . . . . إن تلك الأخبار عارضة صغيرة تأتي أهميتها خاصة من كونها تمس مصيرنا الخاص .

إن خطب شيشرون أو حرب الغاليين ليست إلاّ حوادث عرضية بالنسبة للحركات التي هزت وتهز الإنسانية . فلم يتحرك شيء ، بالنسبة للتقاليد السباسانية في العالم ما بين موت الاسكندر واعتلاء أردشير الأول في العام ٢٢٧ بعد الميلاد . وسيكون قولاً سخيفاً إن نحن جعلنا شأن روما بالنسبة للبلاد الأخرى شأنها بالنسبة لنا . لقد أظهرنا ، عشية الحروب الميدية ، التفاوت

القائم بين القوات اليونانية ، والقوة الفارسية . كان هذا التفاوت أكثر بروزاً بين روما الشابة الريفية وآسيا الغنية المأهولة بالمدن العديدة ، التي لم يكن لها ، حسبما عرفنا ، مثيل في العالم حتى في الصين أو في أمريكا .

لم تكن روما لتستطيع إذاً أن تكون القوة التي يزعمون ، حين تنكفىء على نفسها . ولقد شرحنا ذلك : لقد كانت ثقافياً تابعة لأفريقيا ـ الآسيوية ، وكانت اقتصادياً تشبه اليونان في فقرها بالمعادن والصناعات ، لقد كانت لا تكاد تجد ما يغذيها . فإلى من ، وإلى أي شيء يُعْزى المجد الذي ردَّدتْ صداه القرون ؟ وكيف توصلت الجمهورية الرومانية (التي عاشت خاملة على أرض مهملة) إلى الاستئثار بالتراث في البحر المتوسط ؟ إن الجدل لا يمكن تجنبه فهو يستدعي نقاطاً دقيقة . إنه يستعيد أولاً الضلالات المضخمة كالدراسة التي قام بها مونتسكيو عن « عظمة الرومان وانحطاطهم » والتي كانت مؤلفاً للحصول على جائزة مسابقة أكثر منها دراسة سياسية أو كمثل هذه المؤلفات الأكاديميه لجيروم كاركوبينو ومنافسيه التي تبغي شرح التاريخ بالحالات النفسية لهذا الفاتح أو ذاك ، وهي حالات روحية تتخيلها عواطف المؤلف الشخصية . إن الخرافة التي تحيط بالملحمة الرومانية تحملنا على قبول التفسيرات الأكثر خطأ بعيون مغلقة فالإيمان في العقيدة الرومانية هو منبع سوء الفهم القاتل الذي قاد إلى الطلاق بين أوربا والمجتمع الإفريقي ـ الآسيوي ، الذي خلق اسطورة الغرب المحزنة وخلق معها مجازفة رؤية تهديم قواعد ثقافتنا نفسها .

لقد حصل لروما ما كان قد حصل بالدقة للاسكندر ، مع فارق بسيط وهو أن هذا الأخير قد استعملته الديبلوماسية البابلية ، أما روما فقد أفادت من امبراطورية البطالسة المصرية . ولقد كانت مهنتا الاسكندر وقيصر متوازيتين ومتشابهتين . وما دامت السياسة الرومانية يقودها الشرق وحسب متطلبات الاستراتيجية المصرية ، فإنها كانت تقاد حتماً ، إلى الاستكمال في الشرق . إن خطوط السياسة الرومانية الكبرى مسجلة في مخطط تاريخ الشرق الضخم ،

الذي كان يباشر إعادة تنظيم عالم كان عمره آنذاك عدة آلاف من السنين ، بينما كانت روما تتربع فوق هضاب فقيرة . ولقد كان طموح البطالسة فوق كل شيء ، وهم المالكون لجسم الاسكندر الإلهي ، طموحهم لإعادة توحيد الامبراطورية وهو طموح يتضمن حرمان السلوقيين ، أعدائهم اللدودين والانتيغونيين الذين يملكون اليونان ومقدونيا . لقد كانوا يعتمدون على حليفين : في الشرق على آسيا الصغرى سيدة أعالي الفرات ووريثة التقاليد الميتانية الحثية والقادرة في كل لحظة على هز أركان المملكة السلوقية ، وفي الغرب على صقلية ثم على روما . ولنتناول من جديد مخططات المعركة التي صممها كل من تحوتمس ورمسيس اللذين كانا يريدان إذاً حمل الحرب إلى أعالي الفرات وإلى فلسطين . لقد تحالفا في الوقت نفسه مع الأسرة البارتية التي أخذت امبراطورية السلوقيين ، من الخلف ، من طرف دجلة . ولقد رد السلوقيون بشدة ذلك بالتحالف من جهة ، مع الأسرة المقدونية لإحاطة آسيا الصغرى بما يلزمها لكي تستولي عليها ، من جهة أخرى مع قرطاجة لكي تهدد مصر بليبيا ولتقطع صلاتها بالغرب وذلك بتسلم صقلية واسبانيا إلى مملكة الديدونيين . « إن هذا ، يعني ، كما هو ظاهر ، عملية تقودها قوى آرامية ضد قوى آرامية أخرى . ولم تكن روما بسبب أصول إنشائها الآسيوية ، وبسبب تعلقها بصقلية وبالمدن الايطالية المتوسطة الغنية » . . . لم تكن روما تستطيع الافلات من اللعبة الخطرة التي ستفرض عليها عندما يزول الاسكندر وعندما يقذف خلفاؤه في المزاحمات العالمية . فلا ينبغي أن تدرس الحروب والديبلوماسية الرومانية إذاً في نص كامل محلي ، إنهن جزء لا يتجزأ من حركة واسعة تحرك ، من نهر الهندوس إلى نهر الايبر ، قوى اللحظة الكبرى ، التي لن تكون روما بالقياس إليها سوى جندي بين أيدي البطالسة الذي سيقذفون بها أولاً في معركة ضد بيريس المقدوني ثم ضد قرطاجة ، ثم ضد مقدونيا نفسها ، ثم ضد السلوقيين أخيراً في الأرض الآسيوية . فإذا ما مررنا صامتين بالسنوات

السابقة للعام ٢٨٠ ، وهو عام نزول بيريس في ايطاليا ـ لأنهن سنوات اسطورية وغامضة لم تدرس بصورة جدية فلن يتبقى منها إلا معارك موجهة ضد الاتروسكيين والساميين واللاتينيين والغاليين ، يقرأ بين سطورها دور المدن الصقلية والمرافىء اليونانية الفلسطينية التي لم تكن هي نفسها سوى انعكاس ايطالي للعواصم الآرامية في الشرق إن إسهام روما في المنازعات الشرقية لا يؤرخ إذاً من البارحة ، حين جابهها بيروس الذي لم يذهب إلى روما مفتشاً عن القتال ، ولكنه كان يرغب في أن ينهب موانىء صقلية وايطاليا المتوسطة .

لقد ترك ، بعد أن دحر ، مكانه إلى عدو أكثر شراسة بالنسبة لمصر ألا وهو قرطاجة الفلسطينية ، الشرهة هي الأخرى ، لتضع يدها على صقلية ومضيق مسينا ، وقنال اوترانا وخليج ترانتا ، وأن تتابع ، في الوقت نفسه ، في سيرين دسائس ضد بلاط الاسكندرية ، بينما ينضم حليفها السلوقي إلى مقدونيا ضد المؤسسات المصرية في اليونان وسورية . إن تدخلاً سريعاً يفرض نفسه إذاً ضد قرطاجة : فلقد قامت ضدها قوات رومانية بعملية في أثناء السلم ، وبلا إنذار ، واحتلت مسينا . إن هذه الحرب البونية الأولى ، تم خلالها تزويد الأسطول الروماني بالبحرية المصرية وتعليمه وتقويته بها ، خلال ثماني عشرة سنة . انتهت هذه الحرب بتحرير صقلية في سنة ٢٤١ من القوات القرطاجية وبتأييد من مملكة سراقسطة الصغيرة حليفة الإسكندرية وروما . ولقد أتم بطليموس في السنة نفسها ، ولحسابه ، حرباً ضد سلوقس ، وخيم في سلوقية بيريه أي في موانىء انطاكية . ولقد كان ذلك عملاً ممتازاً للمتحالف المصري الروماني .

وردت قرطاجة مستولية علىٰ الأراضي المنجمية والزراعية في إسبانيا وعلىٰ الموانئ ، التي تمتد من أعمدة هرقل إلىٰ مصب الايبر ، والتي تقدِّم نقطة ارتباط للبحرية المصرية ـ الفلسطينية . كان منظم هذه الغزوة هو آملكار بن بركة الشهير (الذي جعلنا اسمه اميلكار بن بركة ، وبركة اسم عربي لا يزال

يطلق على برقة) . فلقد حملت قرطاجة ، مستفيدة من وفاة هيرون ، والتي لم تكن ترفع بصرها عن سيراكوز ، اثنين من أنصارها إلىٰ السلطة . وتدخلت روما في الحال ، واستمرت الحرب البونية الثانية سبع عشرة سنة ، من سنة ٢١٨ ، إلىٰ سنة ٢٠١ تقريباً . قاد هذه الحرب من الجانب القرطاجي بعبقرية ممتازة هاني بعل بن بركة ، ابن آملكار . ولقد أقدم ، قبل اكتساح سهل البو ، من قبيل الاحتياط علىٰ عقد تحالف عسكري ضيق مع فيليب المقدوني (تحالف تأكدً وقويَ بعد معركة جَرَتْ في أوبلي) ، ومع انطوخيوس السلوقي ، وذلك ما وضع هذه الحرب البونية الثانية ، دون نقاش ، في استراتيجية مصرية محسوبة بنضج . وكانت انتصارات هاني بعل ساحقة ، فلقد تمركز في كابوا واعتلىٰ العرش في إيطاليا مدة ما يقرب من عشر سنوات . لماذا لم يفتح روما الخالية من قواتها والجائعة ، والتي اكتسب قسماً منها الذهب القرطاجي ؟ ليس هناك من يستطيع أن يجيب عن هذا السؤال . فلم يكن هناك في الواقع شيء يمكن أن يقف مانعاً في طريق دخول هاني بعل إلى العاصمة العدوة المشرفة على الاستسلام . فما هو إذاً سبب هذا الحلم القرطاجي الملعون ؟ أيمكن التفتيش عن تفسيره في الشرق ؟ فلقد تلاقى قبل سنة أي في سنة ٢١٧ ، انطوخيوس ، حليف قرطاجة وبطليموس حامي الرومان في معركة رفح الكبرى إلى الجنوب من غزة ، وتراجعت القوات السلوقية وعقدت بسرعة معاهدة بين العدوين مدتها عدة سنوات . وفقد هاني بعل بذلك أفضل حلفائه ، وفقد بالضربة نفسها المعونات الآسيوية الهامة التي يفتقر إليها جيشه وإن من الجدير بالتسجيل أنَّ العمليات القرطاجية ، ابتداء من معركة رفح ، قد أخذت تجري على طريقة النفس الطويل . فلقد ترك حلفاء قرطاجة هذه المدينة لصالح الشرق ، وهو أمر طلبه بطليموس وحصل عليه بعد نصره في رفح . وسقطت سيراقوزة في سنة ٢١٢ . واستفادت مصر من مؤخرة البلاد البونية وموّلتْ إنشاء مملكة ماسان عيبس (ماسينيسا) التي طوقت قرطاجة . وأنزل الضربة القاضية

بها سيبيون الذي نزل في أفريقيا ولم يجد صعوبة في التغلب على هاني بعل في زاما ، هاني بعل الذي كان قد أدانه مواطنوه من قبل . ولقد كان ذلك في الحق ، نصراً لخيالة ماسينيسا وفيلته التي عرضتها قرطاجة ، عشية معاهدة السلم سنة ٢٠١ ، وأنشأت المملكة الجديدة في موانئها تحت حماية بطلميّة .

على أن روما قد غدت مجبرة الآن على ارسال جيشها إلى الشرق فلقد لفت سفراء مصر وبرغام ورودس ، بمناسبة التوقيع على معاهدة سنة ٢٠١ ، انتباه مجلس الشيوخ إلى طموحات فيليب المقدوني (واليوناني) العسكرية تلك التي جمعت من جديد مع انطوخيوس لتغيير الوضع الشرقي الراهن .

كان جيشه قوياً ، ولم تكن هيبته أقل . وأخذ القنصل فلامينيوس مكانه على رأس القوات المصرية والإغريقية والآخية بناء على طلب السفراء ، وأوغل في بلاد اليونان وسحق فيليب سينوسيفاليس . وأعيدت مقدونيا إلى حدودها الأولى ، واستعادت كل من الدول الإغريقية استقلالها الذاتي في السنة ١٩٦ . وبدأ نزاع الأسرة الانتيغونية الأخير يقابله ارتياح البطالسة العظيم وألقى فيليب بأحلامه على كاهل ولده بيرسيه ، بعد أن تخلى عن ممتلكاته الآسيوية ، وطرد إلى الدانوب .

ولم يكد فيليب يغادر ممتلكاته في آسيا حتى استولى انطوخيوس عليها ، ثم توغل في سوريا الداخلية وفلسطين. واستولى على صقلية ، واجتاز المضائق وهدد بضم تراقيا . ثم استقبل هاني بعل في بلاطة وأسند إليه قيادة جيش . وألح ملكا بيرغام ومصر على الرومان أن يقاتلوا من أجلهما . وهذا ما فعله أولئك . فلقد اجتاز سيبيون الإفريقي مضيق الهيلسبونت (الدرنديل) في سنة ١٩٠ ، وهو نفسه المنتصر في معركة زاما ، مع جيش قوامه ٣٠٠٠٠ رجل . (وهي مجموعة الرجال نفسها التي كانت مع الإسكندر في الشاطىء نفسه) ، وقادت معركة (ماغنيزيا) انطوخيوس إلى تأليف الممالك فقد أعاد بموجب معاهدة أفامية (أومين ملكاً على بيرغام وآسيا الصغرى شمالي

طوروس) ، وجلا عن فلسطين وسوريا . أما هاني بعل فقد قيل أنه سممّ نفسه لئلا يقع في أيدي الرومان . ويؤكد المؤرخ بلنيوس أنه رأى ضريحه على ضفة بحر مرمرة في ضواحي آستاكوس . وحاول بيرسيه ، الانتيغوني الأخير ، عبثاً أن يرفع علم أسوته ، فلقد انهزم في (بيدنا) . وغدت مقدونيا مقاطعة رومانية يدير امراؤها الدول الإغريقية التي انحط شأنها فأصبحت مراكز ولايات صغرى . نحن الآن في العام ١٤٦ . انتهت كذلك في تلك السنة الحرب البونية الثالثة التي أثارها ماسينيسا بتحريض من مصر . وهدمت قرطاجة ، وسقطت ممتلكاتها الواحدة بعد الآخرى في أيدي الرومان : اسبانيا ، والبُروفانس ، ووادي الرون ، والغال الناربونية ، أي باختصار جميع شواطىء الأنهار المتوسطية الغربية ، وحاول انطوخيوس الرابع ابيفان بعد موت انطوخيوس الثالث وابنه سلوقس الرابع أن يجرب حظه مرة أخرى في مهاجمة مصر ، حتى إنه نوغل حتى الدلتا ، في سنة ١٦٩ ، حين انذرته سفارة رومانية بالتراجع . وإن هذا ليظهر إلى أية نقطة غدا مجلس الشيوخ محرك الآلة السياسية المصرية الليبية واستراتيجيتها . إن لمن المؤكد أن السلوقي قد خاف الرومان ، الذين نعرف قوتهم الحقيقية . ولكنه لم يكن ليجهل من كان هؤلاء الرومان يتكلمون باسمه ، ومن هو الذي ينظم جوقة أعمالهم وأفعالهم .

على أن حادثاً من أكبر الحوادث التي ستبرهن على الصفة اللدودة للنزاع الذي كان يدور ، منذ موت انطوخيوس ، بين انطاكية والإسكندرية . فعندما مات (أومين) عدو البطالسة وحليف الرومان في سنة ١٦٠ ، ترك المملكة لأخيه أتال الثاني الذي حكم حتى سنة ١٣٩ . وصعد ابن أومين ، أتال الثالث عندئذ على العرش ولكنه مات دون وريث في سنة ١٣٣ . وكانت الفريسة مغرية أمام انطاكية . ولن تنتقل بالتأكيد إلاّ إذا انتقلت المملكة إلى أيدي السلوقيين ، وكان هؤلاء يملكون من القوة ما يجعل استقلال جيرانهم ، واستقلال مصر أمراً بدهياً . ونصح بلاط الإسكندر ، في ظل هذا الخوف ،

أتال الثالث بأن يوصي بمملكته للشعب الروماني . وفي سنة ١٣٠ق.م أصبحت برغام إذاً مقاطعة رومانية . وانهارت في السنة نفسها باقتريان ، التي كانت تحت حماية السلوقيين ، تحت ضربات جيوش تركستان . ودخلت روما بقدم ثابتة في دائرة الضوء ولكن في ظل الشرق الأدنى والأقصى . ذلك الضوء وذلك الظل هما اللذان كانا يحيطان بمهدها .

ويبرز حين نختم عصراً خصباً بالأحداث الاستثنائية حدثان تاريخيان في العام ١٤٦ ، الذي رأى نهاية الامبراطورية القرطاجية وامبراطورية الانتيغونيين الإغريقية ، وفي العام ١٣٠ الذي شهد نهاية مملكة برغام المستقلة . وكان هذان الحدثان انتصاراً مزدوجاً للبطالسة الذين كانت قوتهم يومئذ لا تحتمل النقاش ولكن قوة السلوقيين كانت تتسارع في الانحدار . والواقع أن روما والإسكندرية وقد أبرزتا جهودهما ضد القوة السلوقية ، قد استعملتا في آن أعداءهما الخارجين البارتيين ، لكي يخترقوا حدوهم الشرقية والحركات الاستقلالية المحلية لاضعافها في الداخل ، وتشجيع الثورات ، والانتفاضات والمغتصبين أيضاً . ولننظر بانتباه إلى خارطة المنطقة ، إننا نلاحظ في منتصف القرن الثاني قبل الميلاد أن هناك دولة سلوقية معرضة بصورة خاصة لتدخلات البطالسة المباشرة : ففلسطين المفتوحة بصورة واسعة أمام التدخل المصري من جهة الجنوب ، لأن أرضها تنصهر في الميدان البطلمي . وفي الشمال تشرف عليها قبرص وكتلة آسيا الصغرى ، التي يسندها حاكم روماني ولكنها في الحقيقة من حيث تقاليدها ومدنها الغنية والعديدة ، وجيشها وشعبها النشيط والكثير العدد تعتبر مملكة مستقلة استقلالاً ذاتياً تحت التأثير المصري . ففي فلسطين إذاً سيتوجه التدخل المصري الروماني المزدوج ، بينما يدخل البارتيون في سنة ١٤١ حتى بابل ، ناهبين سلوقية ، ومرغمين الأسرة السلوقية على الاكتفاء بدولة محددة بالفرات . فالسلوقيون يهتمون بالدفاع عن فلسطين أكثر من شعورهم بالتفوق في أراضيهم الشرقية ، وهم يهتمون بتحالفهم مع

الأنباط ، أسياد التجارة القارية بين الجنوب العربي وأثيوبيا التي يوفرها لهم البحر الذي تراقبه مصر . فقد كان السلوقيون يستطيعون ، بفضل تحالفهم المحسوب والمجدد بين انطاكية والملوك الأنباط ، أن يعوضوا في الغرب ما فقدوه في الشرق من المؤكد أن البطالسة الأقوياء في غزة نقطة النهاية في طريق القوافل كانوا يمنعون الأنباط من التجارة المتوسطية ، ويعهدون إليهم بتجارة في الصحراء . يضاف إلى ذلك أنهم بتحالفهم مع مدن شرقيّ الأردن ، بخاصة مع الرؤساء اليهود كهيركان ، كانوا يمارسون حياة قاسية في المؤسسة النبطية ، حيث تنهب قوافلهم وتحاصر حصونهم . وهكذا قامت حرب مستمرة وبدون رحمة بين الأنباط والجماعات اليهودية في القدس وسائر مناطق شرقي الأردن . ففي سنة ١٦٨ق.م مثلاً ، تحدّى الأمير النبطي أريكاس اليهودي جانوس الذي وجد ملجأ له في مصر . أن وصف كل هذه المناطق ورسم التيارات السياسية كذلك ، قد كشفها لنا مؤلّف ثمين كتبه النبطي أيا مبولوس الذي قص لنا مغامرته على شكل رحلة رومانسية ، تشبه رحلة السندباد البحري أو ماركوبولو ، إلى الجزر السعيدة ، وهي مغامرة فقدنا نصها الأصلي ولكن ديودور الصقلي ولوسيان قد نقلا لنا مختارات منها . فشبه الجزيرة العربية كانت شواطئها على المحيط الهندي مع ملحقيه الاثنين البحر الأحمر والخليج العربي ، موضع رهان متنازع عليه كثيراً بين الإسكندرية وانطاكية . لقد كانت حرباً شعواء أفادت منها مصر وروما في منح الاستقلال للمدن السلوقية لكي تدخلها بعد ذلك تحت سيطرتها . تلك كانت مثلاً حالة القدس والجماعة اليهودية ، إنَّ هناك خطأ فادحاً في رؤية خلفيات فكرية دينية في هذه الحركة . ولنكرر دائماً : إن آمون وبعل ويهوه الآلهة الكبار التي كانت تسيطر على روما ، كان التداخل والارتباط بينها مسكونيا تماماً ، وكان لون واحد من التدين يضم المعتقدات ، ولقد صعد البطالسة والسلوقيون مرات عديدة للصلاة فى المعابد اليهودية . وكانت المعاهدات بين الفرقاء تختم باسم آلهة العالم

كله . ولقد نقل لنا المؤرخ اليوناني بوليب نص المعاهدة الموقعة في سنة ٢١٥ بين هاني بعل الآرامي وفيليب الخامس المقدوني اليوناني ، اننا نكتشف فيها أن الدين لم يكن له حدود : « في حضور زويس وهيرا وابولون ايولاوس ، وبحضور آريس وتريتون وجوزيدون ، وفي حضور آلهة تحارب معنا ، وبحضور الشمس والقمر والأرض ، وبحضور الأنهار والبحيرات والمياه . وبحضور جميع الآلهة سادة قرطاجة ، وبحضور جميع الآلهة سادة مقدونيا وبقية اليونان ، وبحضور آلهة جميع الشعوب التي اشتركتْ في الغزوة ، وتحت رئاسة هنيبعل يقسم . . . »[١] .

ولقد كشف فلافيوس يوسف أسرار الاتفاقيات السرية التي تصل بين القدس والبطالسة ، والمعونة العسكرية والمالية التي قدمها الحاخامون اليهود لأعداء السلوقيين بالاس ، تريفون ، وزابياناس ، الذين استولوا محلياً على السلطة الملكية . فلقد روى في كتابه (تاريخ اليهود القديم ـ الكتاب ١٢ المقطع١٧) الظروف التي أرسل فيها الحاخام يهودا بعثة أبوليم وجاسيم سفيرين لدى مجلس شيوخ روما لعقد معاهدة أولى ، يؤكد « أنها جددت عدة مرات » . وهاهي ذي سطور من هذه المعاهدة : « لا أحد من هؤلاء الذين دخلوا في طاعة روما يحارب اليهود ، أو يعين أعداءهم ، بالمراكب أو بالمال . ويعين الرومان اليهود بكل مقدرتهم ضد هؤلاء الذين يهاجمونهم ، واليهود من جهتهم يعينون الرومان عندما يهاجمون » . وبقي المصريون والرومان في حالة اتفاق جيد حتى توصلوا في العام ١٤٠ ، إلى اقتطاع امبراطورية القدس الصغيرة من السلوقيين ، التي كان أرسطو بيل أول من توج ملكاً على اليهود كما يدعي فلافيوس يوسف . ولكن خلفه الإسكندر قد ظهر شرساً ومقيتاً إلى حد أن الشعب اليهودي ثار ضده واستدعى السلوقيين . إن

(١) رواها جيروم كاركوبينو . صور الفـ ـنين الجانبية . فلاموريون ١٩٦١ ـ ص١٢٨ .

فلسطين ، كما رأينا ، قد غدت ساحة معركة ونزاع بين الإسكندرية وانطاكية ، أما المدن الصغيرة المحلية فلم تكن لتلعب سوى دور (الكومبارس) ، أو ضحايا ، أو مجرد توابع مؤقتين متبايني الأهمية . فالمسيحية كانت متعاونة ، ومعها كل الأدب الشرقي ، والثورات اليهودية وحدها هي التي كانت تظهر بينما كانت المدن الصغيرة خاضعة للمصير التاريخي نفسه : زبائن لهؤلاء تارة ولأولئك تارة أخرى . ويشن الحرب بعضها على بعضها الآخر لصالح الامبراطوريات المتجاورة . وهكذا حاصر هيركانُ ، أميرُ القدس وحليفُ الرومان ، مدينةَ السامرة تابعة السلوقيين « وهدمها بعد عام من المعارك الضارية كلياً ، ومرر بها سيولاً وضعتها في حالة لم يبق فيها أيُّ شكل من أشكال المدينة » . وإنه لمن المؤسف حقاً أننا لا نملك حوليات مدن صيدا وشيم وتل الجزر وبئر السبع وأريحا ، وآراد وغزة وبقية الأماكن ، كنا سنرى فيها حوادثَ سياسية مماثلة لتلك التي تنسج حياة القدس الصعبة التي لم يعد الدين يحتل فيها مكانته المرموقة التي كانت له في السابق . إنَّ تاريخ فلسطين الذي تحكمه استراتيجية السلوقيين والبطالسة المزدوجة التي لا رحمة فيها ، سيغدو دفعة واحدة مجرداً من الهالة الدينية التي رسمتها أهواؤنا السامية . وإن من المناسب أيضاً أن نتخلص من فكرة أن القدس أهم مدينة في فلسطين . إننا لن نراها مقدسةً كذلك في أية حولية سلوقية أو رومانية أو بطليموسية . ليس هناك أي احترام خاص يميزها في القرن الثاني قبل الميلاد . إن كهان دلفي وفيرجيا ورمال ليبيا ، وقم وافسوس استمروا في ترديد النغمة نفسها فغزة وطبرية وسيباط وجوبه وأدورا ولاريسا وليدا وصيدا ، لها ، على الأقل ، الأهميةُ ذاتها . ولكن أين حوليات هذه المدن ؟ .

إن كلَّ مدينة مقدسةٌ بالتعريف ، وكلَّ مدينة عاصمةٌ ، لأن اللامركزية الإدارية كانت تجعل من كل تجمع ، سكني مديني ، مركز ولاية .

روما مستعمرة مصرية

« وكانت روما مشتراة من قبل المشرق »

كان المسرح في القرن الثاني ق.م معداً لحركات تاريخية كبيرة . فلقد خلفت الإسكندرية بابل عاصمةً لعالمٍ أخذت فيه روما المكانة التي كانت تشغلها مقدونيا من قبل ، وأخذت السياسة والثقافة الآراميتان تربحان على السطح وفي الأعماق ، في أوربا الغربية ، بينما كانتا تتراجعان في الشرق تحت ضربات شعوب الشرق الأقصى التي امتص السلوقيون هجماتها الأولى ، والتي مهدت للغزوات التركية أو المغولية .

كانت الإسكندرية في تلك الآونة تحكم المتوسط ، وكانت روما في خدمتها . إن هذا يعني أن روما تتعرب . ولا يغربن عن نظرنا أنها وهي تدخل في إدارتها صقلية وأرض اليونان الكبرى ، قد استولى عليها رأساً نظامٌ مصرفي ، عالمي ، أو تجاري ، بتغذية عواصم آسيوية ، نظامٌ هدم بسرعة الاقتصاد الريفي الفقير للمدينة الرعوية والعسكرية ، أي مدينة العصور القديمة .

لقد غيرت من نفسها ووجهها في الوقت الذي اتصلت فيه بمدن ايطاليا الكبرى الجنوبية ، التي بنيت وفق مخططات قاسية ، غنية بالأبنية ، والمدارس الفلسفية والعلمية ذات الشهرة العالمية . وكانت اللغة والثقافة ولغة التنظيم الديني الروماني قد عدلت في بناها الخاصة . وما إن دخلت روما إلى قلب الشرق العميق ، وما إن أدارت أعمال آسيا الصغرى وفلسطين والامارات السلوقية ، وما إن أطلعت على بروتوكولات البطالسة واسرارهم حتى بلغت

سعة أكبر ، وانغمرت بسبب ذلك في بحيرة الشرق الإنسانية . إن روما الجمهورية لم تكن في الواقع ، حسب تعبير جوفينال من قبل ، إلاّ « حجرة سملاة » ، وكان قصر مجلس الشيوخ فيها قاعة طولها ٢٥ متراً في ثمانية عشر متراً ، مقاعدها من الخشب ، وفيها سدة للرئيس . ويكاد عدد السكان أن يبلغ فيها ٥٠٠٠٠ نفس . وكانت الأرياف فارغة تقريباً ، لا تتجاوز الأملاك ، حسب قول كاتون ، خمسين إلى ستين هكتاراً ، وبضعة هكتارات لحقول الكرمة . وكانت تقوم بالعمل الثيران أو الحمير . وكانت النصائح التي يسديها كاتون تؤكد النقص لأقصى في اليد العاملة ولم يكن هناك أية مقارنة ممكنة بين الاستثمارات المصرية والفلسطينية والرافدية الغنية ، وبين استثمارات روما .

ويصف تيتي ـ ليفي المزارع الايطالي عاملاً عارياً تقريباً تحت الشمس المحرقة « مستصلحاً صخور وحصى السامنيوم[١] ، شاربا في نهاية حقله قليلاً من الخل والماء ، إنه عبد وحسب » . إننا بحاجة إلى كثير من الخيال أو إلى السذاجة لتصديق أنه بمثل هذه الأعمال وبمثل هذا الاقتصاد المحدد ببضعة هكتارات مر الحنطة الرومية والثوم والبسيلة قد وصلت روما إلى السيطرة العالمية .

إننا سنرى في وقت قصير ، وعندما يتركز الاتصال بين أوريس والشرق ، أن المضاربين التجاريين يتكاثرون في الفوروم ، والموج النقدي يسيل بلا عراقيل ، والإقراض بالربا تجاوز ٥٠٪ وإننا لمزودون بمعلومات ، تلقيناها من مؤلف لشيشرون ، عن الحركات المصرفية والإسراع في الاثراء الفاحش الذي حصلت عليه الأسر الرومانية المشاركة في المصارف الشرقية . فلقد كان الدفاع لصالح حاكم قديم من سورية ، نجد فيه تلميحات مقلقة ، تكشف كم كانت سلطة بعض المصرفيين الشرقيين مخيفة .

ولقد أعلمتنا دراسات أكثر حداثة أن أميليوس لابيديس المتوفى في سنة

---

(١) منطقة جبلية في أيطاليا الوسطى .

١٥٢ قبل الميلاد ، قد طلب في وصيته ألا تتجاوز نفقات جنازته مليون آس (٢٨٥٠٠٠ فرنك) ، وكان دروسوس المحامي يملك آنية فضية ثمنها ٩٠٠٠٠٠ من الفرنكات . وارتفعت ثروة بومبيوس[1] إلى عشرين مليوناً من الفرنكات ، وكانت ثروة الممثل أيزوب ستة ملايين . وقاربت ديون يوليوس قيصر في العام ٦٢ ، عشية رحيله إلى بلاد الغال سبعة ملايين ، وثروة ماركوس انطونيوس أحد عشر مليوناً . ومع الامبراطورية زادت الحسابات في المصارف ونمت وكان بالاس العبد المحرر المشهور يملك في حسابه ٣٠٠ مليون من السيسترس (٦٠ مليوناً) ، وكان مرافق نيرون وهو يسمى نرسيس يملك ٤٠٠ مليون سيسترس (٨٠ مليوناً)[2] . ولقد حاولت قوانين اتيليا وفو كونيا عبثاً أن توقف هذه المضاربات الضخمة . ولكن من أين أتت هذه الثروة الكبيرة ؟ إنها ليست من المواد الأولية ، ولا من الصناعات أو من عمل الرومانيين . بل أتت من الثروة التي تأتي من الخارج لدفع ثمنِ خدماتٍ وتقديمِ هدايا للأشراف الرومان ثمن شراء سلطة تسمح لهم باستيراد منتوجات منجزة في بروفنس أسبانيا ، وبريطانيا والصين ، والقوقاز وبابل وشبه الجزيرة العربية ، والسودان ومصر ، أكثر من البلاد التي اتصلت بشبكات رجال المصارف والأعمال من آسيا الذين لم يكن أفراد الأسر الرومانية سوى موظفين لديهم .

وهكذا اشترى الشرقُ روما ، إن هذا يعني أن سيادتها لم تكن أكثر من سيادة نظرية غير حقيقية . لقد تحول المجتمع الروماني إلى مستهلك للثروات ولم يكن أكثر من هذا ، لأن تدفق النقود العينية مصحوباً بتضخم مدوِّخ قد حطم الطبقات العاملة : فلم يكن في روما مكان للصناع والعمال وصغار الصناعيين أو التجار المحليين . أما الزراعة فلم يمارسها البتة سوى العبيد .

---

(١) مسينيوس بومبيوس ماغنوس ، قائد ورجل دولة روماني (١٠٦ ـ ٤٨) .

(٢) روى هذه الأرقام موممسن في كتابه العظيم (التاريخ الروماني) ، وهي مقدرة بالفرنكات الذهبية في عام ١٩٠٠ .

وكان القمح والنبيذ والملح والجلود وقطعان الماشية ، وحتى العسل كلها مستوردة . لقد حدث في روما ما سبق أن حدث في أثينا : لقد سقط اقتصادها في التبعية الخارجية . إن هذه الاعتبارات ستساعدنا على فهم أفضل لما كانت عليه الدبلوماسية الرومانية التي زينوها كثيراً بريش الطاووس .

وسرعان ما وُجدتْ فروق ما بين روما والاسكندرية وانطاكية أوبِرْغام ، فلقد كان الناس يتكلمون في كل هذه المدن اللغة العامة نفسها ، وهي اغريقية مبسطة متطابقة مع الآرامية . ولقد كانوا يرتدون اللباس نفسه ، ويأكلون وجباتهم في وضعية الاستلقاء ، كما أنهم كانوا يمارسون العبادات نفسها . واعطت الاسكندرية النظام إلى الحياة العقلية . وعلى الرغم من مقاومة كاتون الشيخ ، الذي كان يحيا منطوياً على مغالطة تاريخية للعهود الماضية ، فإن مدينة روميس وروميلوس قد صورت لخدمة ايزيس وسيبيل .

إن أحياء روما الجميلة ، والفورمات[1] المتعاقبة كانت مبنية على صورة مدن مصر أو آسيا الصغرى . وبينما احتفظ الاغريق من عمارتهم الشرقية بخط العهود الكبرى المستقيم ، فإن روما التي أتت متأخرة ، قد استوحت أيضاً العالم الجديد ، لقد أخذت من العمارة الآرامية ذوق المنحني ، مضاعفة القباب والأقواس الصغيرة الكاملة .. وغدت القبة صفة مميزة للمباني العامة . حتى إنهم وصلوا إلى القبة نصف الكروية البابلية الطابع . لقد أعطت هذه الأساليب اتساعاً كبيراً وإبداعاً رحباً للمنشآت الرومانية التي ظلت ضيقة حتى ذلك الحين ، فالمسافر المنطلق من ضفاف الفرات أو النيل لا يشعر بالغربة عندما يصل إلى روما . لقد كانت المساكن الخاصة منقولة حسب الطراز التقليدي الآرامي : ساحة كبرى داخلية مزينة بأعمدة واجهة ، ينفتح عليها بهو واسع ، وعلى الغرف . فالسكنى في باحة فكرة لا يمكن أن ترد إلاّ على خاطر

---

(١) السوق المركزية في المدينة الرومانية .

شعوب تسكن تحت سماء دون مطر ، إن العامة من سكان ايطاليا الشمالية كانوا ـ مع ذلك ـ منطوين داخل جدرانهم المغلقة . إن عربي القرن العشرين سيجد بالطبع منزلاً رومانياً حسب ذوقه في عصر القياصرة لأن المنازل كانت آرامية الطابع بناءً وأثاثاً . وكان حضور مهندسين معماريين عديدين ، ومعلمي بناء ، ومزيني ديكور سوريين ، إلى روما ، أمراً مؤكداً منذ وقت مبكر .

وإننا لنبتعد عن الصواب إذا قلنا إن الشعب الايطالي كان يستفيد من الترف نفسه ، أو إنه كان يحظى بدخل مالي كدخل الفرسان أو النبلاء ، تلك الدخول الفخمة . فالشعب لم يكن منزوياً في جهة ما فحسب ، بل لقد أصبح عديم الجدوى بسبب هبوط أسعار الأراضي وابتذال العمل اليدوي ، ولقد جرّد من كل مسؤولية سياسية لأن التصويت كان اقطاعياً ومقتصراً على المواطنين المزوّدين بقطع النقود الرنانة والراجحة في الميزان . . كان شعباً يحيا في البطالة ، ويجند في احتياط الخدمة الاجبارية حيث لا يتورعون عن اجباره على البقاء فيها بصورة دائمة . من كان يحكم روما إذاً ؟ إنها طبقة صغيرة من النبلاء والأشراف المتميزين المستعلين على المجتمع ، يساعدهم مالياً رجال المصارف الآسيويون الذين يتخذون منهم لعبة ، فهم يعيشون في دائرة مغلقة ، ولا يحكمون البلد مباشرة ، ولكن عن طريق مكاتب وزارية كانوا يَعْتَبِرونها ملكهم الشخصي . إننا لن نعدم وجود نماذج مشابهة لهم تماماً في تاريخنا المعاصر . كذلك لم تكفَّ الأزمات الاجتماعية الكبيرة عن هز العالم الروماني دون أن تبلغ قلبه . لأن هذا القلب كان هناك ، موزعاً بين أيدي مجتمعات الشرق المجهولة . إن محاولة الاصلاح الزراعي للكراك[1] التي خنقت في

(١) اسم أخوين رومانيين خطيبين ومحاميين : تيبيريوس المولود عام ١٦٢ والمقتول عام ١٣٣ ق.م وكايوس المولود عام ١٥٤ ، والذي اغتيل في مؤامرة عام ١٢٠ ق.م . . . وقد حاولا عن طريق عرض قوانين زراعية ، أن يلجما شهوة الاستقراطية الرومانية التي استولت على غالبية الأراضي المفتوحة .

المهد ، كانت مضادة لكيان النظام السائد إلى حد أنها قد حكم عليها بعدم الجدوى ، رغم أن مبدعيها لم يعدموا . لقد بقيت روما خاضعة لسياسة المجتمعات التجارية والمالية ، التي تعرف اليوم باسم المجتمعات المتعددة الجنسيات ، فقد كان الفلسطينيون والمصريون والفريجيون والاغريق والليبيون أو الصقليون يمسكونها بتنظيم قوي .

إن سير السياسة الرومانية الظاهر كما تعرضه كتبنا المدرسية ليس إلاّ انعكاساً لقرارات تتخذ في مكان آخر وتخالف الحقيقة بعض الشيء . وتحيا روما على كل حال ، وتفكر وتعمل ، ووجهها ملتفت نحو الشرق ، ينيره الشرق ويجذبه إليه . إن بعض الكتاب المستعمرين ، المفضوحين بمثل خيانة القيم الموروثة هذه ، لم يخفقوا في التعريض بالطراز الجديد . « إن المعلم الصغير ، كما كتب مارتيال ، رجل ينغّم بين أسنانه أغنيات مصر أو أسبانيا » . ويلتهب (جوفينال) غضباً ضد كهان سيبيل المرتدين غطاء رأس فريجياً والمسيطرين على روما ، إنه يبلغ « عن اليهود الذي يبيعون حماقات » والسحرة الكلدان ، ويشكو « الفقراء السذج الذين يركضون ليستشيروا الكهان في أهرامات السيرك ؟ ، » إنه يسخر من رحلات منظمة إلى الشرق ، ومن حج باتجاه مصر ، ومعابد ممفيس وجوبتر آمون ، إنه يهزأ بهؤلاء الذين يعودون حاملين طلسمات أو ماء مقدساً .

وإننا لنلمّح ، بمناسبة الخلافات الحادة التي كانت تدور ضمن مؤسسة النظام الامبراطوريّ ، إلى أنه يجب الاهتمام بالحروب الداخلية أكثر من الاهتمام بالحروب الخارجية . وإنه لملاحظ حقاً أن روما لم تربح أبداً حروباً كبيرة خارجية لأنها لم تخض إلا معارك متأخرة ، ولقد خسرت هذه المعارك . ولكن التاريخ لم يشر لنا ، خلال زمن طويل ، في أي مكان من الشرق لا في ليبيا ولا حتى في بلاد الغال إلى أية مقاومة وطنية لما يسمى خطأ بالفتح الروماني . ولنتكلم بادئ ذي بدء عن حرب جوكرتا ، وريثة ماسبنيسا

والمسيطرة على مملكة نوميديا . إن قراءة الرواية التي كتبها سالوست تبعث على العبرة لأننا نتعلم منها ، إن روما كانت مقسمة إلى معسكرين يدافع عن مصالح أحدهما جوكورتا ، وعن مصالح الآخر الأمير كوغوراو ملك ماركوبوخوس . لأنها كانت حرباً محلية وبطموح من المغربي بوخوس الراغب في التوسع باتجاه الشرق وعلى حساب جوغورتا . ولقد تأكد في نص سالوست أن ماريوس وملازمه سيلا قد تلقيا خلال العمليات « أوامر بوكوس » . أن الجيوش الرومانية كانت إذاً مستعملة كعناصر مأجورة مع قوادها ، وقد اعترف بذلك سالوست بدون حياء ، وكانت تقاتل للحصول على المال ولغايات انتخابية ، بحيث إنَّ الأميرين الأجنبيين ، بوكوس وجوغورتا ، كانا والحالة هذه يقومان بقدرٍ كبير من حياة روما السياسية الداخلية . لقد اختتمت حرب شمالي أفريقيا ، كما نعلم بفشل جوغورتا ، وبامتداد مملكة العرب المغاربة ، ولكنها كانت تتضمن أيضاً نتيجة أخرى ، وهذه تهمّ قصّاصنا سالوست : وهي الهيبة والمال اللذين حصل عليهما ماريوس وقد حملتاه إلى منصب القاضي الكبير ، وهذه في الواقع السطور الأخيرة لكتاب (جوغورتا الجميل) : « عندما بلغ الناس في روما نهاية الحرب النوميدية وأسر جوغرتا ، انتخب ماريوس قنصلاً على الرغم من غيابه ، وعهد إليه بإمارة منطقة الغال . وحصل في غرة شهر شباط الرومكاني على مجد الاستقبال القنصلي ، إن مصير الدولة وأملها يكمنان آنذاك فيه » . ولقد آزر الذهب والفضة في هذه السعادة . فإلى أي مكان تقود السعادة ؟ إلى آسيا ، موعد الأمل السامي ، ونهاية كل روماني يحترم نفسه . إن الحصول على تقدير آسيا ، والسعي للرحلة إليها للوصول إلى منابع الحضارة وعظمتها والتمتع بالاستقبال في الحفلات الشرقية الشهوانية والاسهام في جني المعرفة الإنسانية والإلهية . . تلك هيَ الأحلام . وبما أن هذا لا يتسنى إلاّ للأغنياء ، وليست آسيا موعودة إلاّ لهؤلاء الذين يشار إليهم بمجدهم ورصيدهم المالي ، لذا وجب أن يحصلوا عليها بأية وسيلة قبل أن

يأخذوا طريق الأرض الموعودة . فماذا صنع ماريوس عندما قيم نفسه بأموال بوكوس ونصره العسكري ؟ لقد رحل إلى آسيا . وماذا فعل ملازمه سيلا الذي يشاركه مصيره ؟ لقد ذهب إلى آسيا . . ولماذا قام يوليوس قيصر بحملته إلى بلاد الغال ؟ ليستحق آسيا . والتتمة تفهم على هذا الشكل ، ليس هناك قنصل أو ديكتاتور أو امبراطور روماني قد تخلص من تبعية هذا العمل ، حتى اليوم الذي تركزت فيه روما نهائياً ، كنهر عاد القهقرى إلى منبعه

إن الركض إلى الشرق سيغدو دراميا بين بومبيه وقيصر ، اللذين عقدا في الداخل تحالفاً داخلياً بين روما ومصر ضد السلوقيين . فإن طموح (بتريدات الرابع أو باتور) ملك البونت ، الذي نجح في لحظة ما في احتلال آسيا الصغرى وفي النزول على شاطىء اليونان ، قد أقلق البطالسة أكثر مما أقلقهم السلوقيون الذين كانوا يستعدون لمد يد قوية له . وقد تدخلوا . واشترك بومبى إلى جانبهم في المعارك دون أن يلعب دوراً حاسماً ، لأن (ميرتيدات) في العام ٦٣ ، قد فر وانتحر ، لا نتيجةً لاندحار عسكري ، ولكن لأن ولده فارناس قد ثار ضده على رأس الجيش . فتحت الجُمَل الرنانة لـ Prolege Manilia والـ Promurena ، حيث يدافع شيشرون عن البومبيين ، تُقْرَأُ مغامرة ساخرة . إن أوضح ما في مغامرة بومبيه كان الحصول على المال والمجد اللذين بفضلهما يدخل أول (ثلاثية) إلى جانب قيصر وكراسوس ، في العام ٦٠ ، لقد كان له الحق في لقب آسيا كتوس . ولكن قيصر كان يفكر أيضاً في مصر ومنذ سنة ٦٥ ، تلك السنة التي لم يكن فيها سوى رئيس بلدية مشاكس ، وكان مرشحاً لمهمة استثنائية لدى بلاط البطالسة . وعندما أبعد رأى بومبيه أن يرحل إلى الشرق بدلاً عنه . فراح يلح منذئذ في الحصول بسرعة على المجد والستريسات[1] التي تؤهله ليصبح مبعوثاً أو مفوضاً في آسيا . لذلك ذهب إلى

---

(١) عملة رومانية قديمة .

بلاد الغال في سنة ٥٩ ، وأكمل « الفتح » في سنة ٥١ ، مع حفنة من الرجال ، وبفضل المعجزة الرومانية الأزلية ، لن يفكر أحد سوى بقيصر الذي أخذ الدور الذي يدعيه . إنَّ قراءتنا لكتاب (الغالي الجميل) تفيدنا إنه لم يكن إلاّ الجندي المستأجر والحقيقي للأدونيين سادة الغاليين وصناع الاتحاد . لقد كانت مرافعةً انتخابيةً أكثر منها كذبة فريق على قياس العصر ، « فحرب الغاليين » هي التي سمحت لقيصر بالعودة إلى روما مكللاً بهالة النصر ، ومزوداً بالثروات الضرورية ، مستعداً لعملية الشرق الكبرى . واندفع ، عندما تأكد من عطف البطالسة ، للحاق ببومبيه وجماعته ، ودحرهم في معركة فارسال في تساليا . ولجأ غريمه إلى بحر ليسبوس وشواطىء سيليسيا ، حيث فَرَّ منها إلى مصر . ولكن الذي يؤسف له أن رسل قيصر قد سبقوه ، فلم يكد بومبيه ينزل من السفينة حتى قطع رأسه بأمر من فرعون وبأيدي فرقة عسكرية كان بينها أفراد من الرومان . وزار قيصر ، تمجيداً لأجداده الألهيين ، انقاض طروادة حاجاً قبل أن يأخذ بدوره طريق « مملكة فاروس » وهو تعبير كان يعني به الشاعر لوقيان مصر . ولقد دخل إلى قبر الاسكندر وانحنى أمام جثمانه . وبعد أن استقبل أميراً في بلاط الفراعنة ، تزوج كليو باطرة ، أخت الملك ، وتأخر عشرة أشهر في البلد ، عاملاً على تلقي الجغرافيا والفلك وعلوم السحر والتنجيم ، مستعداً لمهنة الملك ، وأسبغ عليه كبار الكهان بركاتهم ، وظهرت الأسرة البطلمية مستعدة لرؤية عدو مختار في قائد المرتزقة هذا بشرط أن ينخرط في الحرب الشاملة ضد السلوقيين . وهكذا وضعت خلال السنة ٤٧ في الإسكندرية ، بين قيصر وأركان الجيش المصري ، خطة معركة شديدة التفاصيل بقصد التأكيد على مراقبة امبراطورية الاسكندر ، من الاطلنطي إلى نهر الهندوس ، وما إن وقع الاتفاق ، حتى كان بإمكان قيصر ، أن يعود إلى روما ، ولقد أراد أن يرسل إليها أولاً كليوباطرة مأخوذة بأعماله الباهرة ، بينما يأخذ هو نفسه طريق

ليبيا وتونس وأسبانيا مصحوباً بالأسطول المصري ، مدمراً في طريقه بقايا جيش بومبيه في طابسوس وفي موندا .

وكان يبدو عليه ، عندما عاد إلى روما في عام ٤٥ الأبهّة ، والمقدرة وأفكار الأمير الشرقي الخلفية . وما إن أصبح حبراً أعظم ، وقنصلاً ، وقاضياً ، ومالكاً الصفات الامبراطورية ، حتى انتخب في اليوم الخامس عشر من شباط عام ٤٤ ديكتاتوراً مدى الحياة . وتمسك بأصوله الإلهية ، وإحاطة نفسه ببروتوكول يماثل بروتوكول الإسكندرية . وفتح له رجال مصارف الإسكندرية حسابات غير محدودة . ويدعي سوتيون أنه تلقى مباشرة من البطالسة مبلغ ستة آلاف تالان (يعادل التالان ٥٥٠٠ فرنك ذهبي) . وسكّت المعامل للمرة الأولى في التاريخ الروماني عملة ذهبية . إن الكلام في هذه الشروط عن الاستقلال الروماني أو عن سيادة روما على مصر يعتبر متناقضاً بقدر ما هو ساخر ، فقد سرت إشاعة فحواها أن قيصر لن يتخذ لقب الملك فقط ، بل إن عاصمة الجمهورية الرومانية ستنقل إلى الشرق ، وهي أطروحة أجدر أن تكون مقبولة لأن قيصر سيرزق ابناً من كليوباطرة ، وأنه يعاشرها معاشرة الأزواج أمام أعين الجميع . ولقد استعد في السنة ٤٤ ، للوفاء بالتزاماته ولتخليص الشرق من السلوقيين ، لمهاجمتهم من الشمال ، بينما يهاجم المصريون من الجنوب وحرك معه ١٠٠٠٠٠ رجل (كانت ايطاليا واليونان تعاني من أزمة بطالة ، لأن اقتصاد الشرق المصرفي قد هدمها ، فأصبحت مستودعاً لا ينضب للجنود) ، وتأكد من تحالف آسيا الصغرى ، والبونه وأرمينيا ، اللائي تحركن من جهتهن . ولقد نَزَل قيصر من الدانوب وتراقيا والأناضول والدجلة العليا ليلتقي بالقوات السورية ـ المصرية .

وكان هذا ما سينزل بالامبراطورية السلوقية لولا أنَّ بروتس أعدَّ في الخامس عشر من آذار سنة ٤٤ مؤامرةً قُتل قيصر بموجبها . إن شرح جيروم كاركوبينو واضح « ففي الضربة نفسها أخمد بروتس الحرب ، وهدم مخطط

قيصر الكبير ، كما تم مثل ذلك في العصور الحديثة ، لقد قطعت موسى رافيال الطريق على رغبات هنري الرابع في فتح المنازعات ضد الامبراطور الجرماني منذ ١٦١٠ »[١] . وكما أن مقتل قيصر قد سبقته ثورة في سورية ، ثورة انضم إليها ضباط بومبيُّون سابقون ، في خدمة القوات السلوقية ، فإنه بالمستطاع التساؤل : ألم يكن هؤلاء الضباط محرضين على مؤامرة بروتس . أما وقد زينت بالتقدير والاعتبار الأسطوريين فإن حياة يوليوس قيصر ، وكما وصلتنا أو كما كانت تتسامى على امتداد العصور (بالرجال الكبار) قد فقدت كل أصالتها . والحقيقة أن حياة قيصر ، وموته لم يكونا البتة في المستوى القادر على تغيير الأحداث التي يخلقها تحكم الاقتصاد والجغرافيا السياسية وتطور الشرق الثقافي . لقد اقتيد أوكتاف أوغست ، وارث قيصر ومتبناه ، بالأوامر نفسها نحو مصر ونحو كليو باطرة التي أتيحت له فرصة لقائها مرات عديدة في روما ، في شقق أبيه .

لقد رووا بلذة وبطريقة مانوية المؤامرة السياسية بين انطونيو نائب قيصر واوكتافيوس وريثه ، لقد قدم الأول تحت ملامح جندي مرتزق فاجر ومستسلم للرفاهية ، وقدم الثاني مزيناً بفضائل كردينال جدير بالسلطة الامبراطورية ولقد لون كل شيء ، ليعطي أكثر مما يستحق ، في مغامرة غزل لعبت كليو باطرة فيها الدور الملائم لعاهرة مختارة .

وليس هذا في الحق سوى أدب سيء . والواقع أن المنافسة التي قامت بين بومبي وقيصر في الجري نحو الشرق قد جددت ، بموت هذا الأخير بين أوكتافيوس وأنطونيوس . ولنحاول ألا نضيع في تفاصيل حرب (مودين) الدامية ، وفي المنازعات الحزبية التي اشترك فيها شيشرون ، وليبيد وآخرون كثيرون . فليست هذه سوى مصادمات تاريخ صغير . فاللعبة الكبرى إنما

---

(١) وجوه الفاتحين الجانبية ، فلاماريون ١٩٦١ ص٢٠٦ .

كانت تجري في الشرق . فهناك كان المتآمران بروتس وكاسيوس يجريان ، لقد وضعا قوات عديدة على طريق الانتيغونيين والسلوقيين ، أي على اليونان ومقدونيا . إنها عملية كانت تتطلب كميات كبيرة كانت ممتلكات برغام والأسكندرية وأنطاكية تستطيع وحدها أن تقدمها ، ولأن الاثنتين الأوليين كانتا حليفتين لأنصار قيصر (كليو باطرة وابنها كانا دائماً في روما) فإن انطاكية هي التي أخذت على عاتقها نفقات وتكاليف الجيش « البومبيني » الذي يقوده بروتس وكاسيوس . ولقد قتل التعيسان في معركة فيليبس ، في مقدونيا في العام ٤٢ ، تحت ضربات القيصريين . وتقاسم المنتصران انطونيوس واوكتافيوس الأدوار . فأخذ المصريون انطونيوس لديهم ، وأنزلوه في البلاط حيث كان خلال خمس سنوات أشبه بمعتمد عسكري ، يطوف بالشرق البطلميّ ، مرتدياً اللباس الشرقي متفانياً في عبادة ايزيس واوزيريس .

أما كليو باطرة فقد كانت تحكم ملكةً . أكان أنطونيوس واحداً من عشاقها ؟ وهل كان لهما أولاد ؟ إن هذا ممكن ، ولكن مثل هذه الاعترافات عن حياة ملكة خاصة لا تشرح في شيء سياسة عصر . وإنه لمن المؤكد أن أوكتافيوس ، وهو الوارث المعيَّن من قبل أبيه قيصر لم يكن راضي القلب وهو يرى أنطونيوس يغتني في الشرق ويستعد ، في تقديره ويتأهب ليتوج ملكاً فيه : ألم نر مرات عديدة ، وفي الأسر المصرية العليا ، قائد جيش أو مرتزقاً في الحرس يتسلق حتى يبلغ العرش الفرعوني ؟ ولقد كانت كليو باترة من جهتها ممتعضة وهي ترى أنطونيوس متجاوزاً تعليماتها أثناء مهماته في فلسطين وسورية . ولقد قص فلافيوس يوسف ذلك دون مواربة . أيذهب أنطونيوس في التآمر ضد الملكة ، مأخوذاً بالدسائس ضد السلوقيين والأرساسيين والأرمن والمدن الفلسطينية ؟ إنه متأكد على كل حال من أن أوكتافيوس لن يأتي إلى مصر إلاّ بناء على دعوة المصريين أنفسهم . ويمكن قراءة قصة حياة أوكتافيوس كما رواها بنفسه في (مدوَّنته أنسيرْ) الشهيرة وهي محفورة على

جدران معبد في غالاتيا القديمة في آسيا الصغرى ، إنه يتكلم فيها لا عن حرب ضد مصر حسبما كانت الصيغة السائدة ، ولكن عن « حرب اكتيوم » دون أي إيضاح أو تفسير . إن الظروف التي جرت فيها معركة اكتيوم مبهمة جداً ، لقد كان الأسطول المصري ، دون جدال ، سيد المتوسط ، ولا يعد الأسطول الروماني إلى جانبه شيئاً . فهل كانت هناك معركة ؟ يظهر أنه لم تقم معركة ، لأن جميع مؤرخي الحوليات مجمعون على القول إن السفن المصرية ، قد تركت أنطونيوس ، ناشرة قلوعها باتجاه الجنوب . وإنهم ليعيدون أيضاً ، بصورة مشتركة ، أن كليوباترة كانت تنتظر مقدم أوكتافيوس ، وأنها رفضت استقبال أنطونيوس الذي عاد مجروحاً من هذه الحرب الخاطئة . إننا نرى في قصة فيليوس باتركولوس ، المعركة تقف بسبب خطأ المقاتلين وأوكتافيوس يسأل نفسه : مع من ومن أجل من يقاتل هؤلاء الجنود . ولقد استقبل ، عندما نزل في الإسكندرية ، ولأنه ابن قيصر المتبنّى ، كما استقبل الإسكندر من قبل ، لا كصديق فحسب ، بل كوريث للتاج ، ولأنه أؤتمن على مشاريع أبيه الشرقية ، وعلى النذر الذي كان هذا الأخير قد تلقاه من الكهنة الكبار ومن الملكة نفسها ، كان معداً لاتمامها بعد البطالسة . وإن كونه غريباً لا يثقل البتة في شيء على كبار الكهنة ، الحامين الحقيقيين للملكية ، ذلك أن جنسية الإنسان قد كانت في ذلك العصر نسبية (كما كانت نسبية في ظل الملكية الفرنسية السابقة التي كانت تستطيع أن تمنحها إلى أمير ايطالي أو فرنسي) ، ولأن أوكتافيوس من ثم لم يفعل شيئاً سوى وراثته البطالسة الذين كانوا هم أنفسهم من أصل أجنبي ولأن المصارف والاقتصاد والتجارة المصرية كانت تسيطر على السياسة الراهنة ، بحيث إنَّ الفرعون ، مهما كان ، يأخذ مكانة رمزية أكثر منها ديكتاتورية ، ولأن رئيس الدولة المصرية أخيراً لم يكن سوى المتكلم بلسان الألوهية المصرية ، السيدة والحاكمة الحقيقية على السماء والأرض . إن أوكتافيوس ، ذَرَّة الغبار في يد الأزلي ، قد قبل ليحكم على

مصر ، دون أن يتغير شيء في حياة الشعب . وتحت أية ظروف ماتت كليو باطرة ؟ ولماذا تركها أسطولها وجيشها إلى مصيرها ؟ إنها أسئلة لا جواب لها . لقد تكلم المؤرخون الكلاسيكيون عن « ضم » مصر إلى الامبراطورية الرومانية إن هذا خطأ فادح . لقد أسندت مصر إلى أوكتافيوس شخصياً ، وكان دخولها محرماً على رجال الشيوخ والإداريين . وبقيت « ميدان الله » ولم يعبد أوكتافيوس فيها رومانيا ، ولكن كصورة عن الله ، معتمراً قبعة فرعونية ، محاطاً بصيغ هيروغليفية ، مقدساً تحت اسم « ملك أعالي النيل وأدناها ، ابن رع حامل التاج » . إن معابد دندرة وفيليا وأسوان وطيبة تحمل زخارفه الهيروغليفية وشعاره الكهنوتي .

ونقل أوكتافيوس هذه العبادة الامبراطورية إلى روما . وأصبحت مدينة (اينيه) صورة عن مصر لا في ثقافتها ودينها فحسب ولكن في تكوينها السياسي أيضاً . فلم تكن الامبراطورية الرومانية التي أسسها أوكتافيوس نتيجة التطور الداخلي لجمهورية شيشرون وكاتون من وحي مصري ، وطبيعة فرعونية ، ولا علاقة البتة لها بالعادات الريفية البلدية . فلقد ركزت اعتباراً من عهد أوكتافيوس ، ملكية الحق الإلهي : واتخذ الامبراطور لنفسه لقب قيصر ، وابن الإله ، وأمير مجلس الشيوخ ، وأوغسطوس (أي المقدس) ، إنه قائد الجيوش والقنصل ومحام عن حقوق الشعب مدى الحياة ، وهو ، بعد أن مجد على المذابح في حياته ، قد حمل رسمياً إلى مرتبة الآلهة بموجب مرسوم أقره مجلس الشيوخ تأليهاً بعد وفاته . وطبع الدين القديم بطابع روماني ، ومنعت الخرافات الشعبية منعاً باتاً ، بينما تدخل الكهنة الآسيويون المصريون ، الذين يحميهم الامبراطور في التعليم الكهنوتي . وستجد المسيحية سريعاً في روما مناخاً وعقلية مستعدين لاستقبالها باللقب نفسه الذي استقبل به أورفيه وايزيس دميترا وبعل أو يهوا . وعندما ولد المسيح في بيت لحم ، كان العصر ملائماً لجعل روما مدينة تستعد للتنبؤ به . ولأن مصر قد امتلكت فلسطين ، فإنها

رفعت من سلطة أوغسطس ، أو تم بناءً على ذلك إحصاءٌ عام للسكان كما اعتاد الكتاب المصريون أن يفعلوا ، وهو احصاء ذكرته الأناجيل لتحديد سلسلة نسب المسيح والشروط الاستثنائية لإيضاحه . ولأن المسيح من التبعية المصرية فقد اخضع لسلطة أوغسطوس ثم تبيريوس ، دون أن يكون ، لهذا السبب ، رومانياً ، وأخضع لذلك لقانون فرعون روماني . وهذا ما يوضح المكانة الاستثنائية التي احتلتها مدينة القياصرة في سلطة الكنيسة الرومانية ، كواضعة يد على السيادة المصرية . فطاقة روما لم تكن في الواقع رومانية إلاَّ بالاسم ، ولا غربية إلاَّ بحكم الجغرافيا وحدها . إن هذه الصفة ، على الرغم من كونها في أعيننا يقينية منذ دخول قيصر وابنه أوغسطوس إلى المسرح ، لم تكن على الأقل قابلة للادراك طويلاً من قبل . إن أعمال فيرجيل ، الآسيوية الفكر والصنع ، توضح المسالك المظلمة لسياسة لم تتوقف آثارها عن قيادة سير المجتمع الحديث . فلنعرف ، بالمقابل ، أن المؤرخين الرومان ، من تيتوس ليفوس إلى تاسيست وفلافيوس يوسف لم يساعدونا في تحليلنا . ولم تكن النصوص التي قدموها لنا ، إلاَّ دفاعاً عن روما بدون تفاصيل ، فجميع الشعوب تُصَوَّر فيها مغلوبة ، مقيدة إلى عربات الأباطرة : الغاليون ، والدالماسيون والاغريق والليبيون والمصريون والسوريون والصقليون ، والإفسوسيون الخ . . . وهذا كثير ، وكثير جداً .

كيف لا نأسف لغياب توسيديد روماني ؟ وكيف لا نأسف لتضخيم الأحداث والأكاذيب وجهل تيتوس ليفيوس ، وسيتون ، وتاسيت ، والآخرين الكثيرين ؟ أيعني ذلك قومية تتجاوز حدها ؟ إن ذلك ممكن مع العلم أن ذلك العصر لا يساعد على ذلك ، إن اسقاط « حب الوطن هذا » على الماضي والذي حصل حديثاً في أوربا ، سيكون نوعاً من أنواع التشخيص إن فرضيات عديدة ترد إلى الذهن عن رأي الشراح اللاتين المسبق ، رأي قبلي يذهب دائماً وبصورة عجيبة في الاتجاه نفسه : في اتجاه روما العالمية والإلهية والتي

لا عيب فيها ، ومركز جميع الفضائل ، ببنما كل شيء يشير إلى العكس . إن شرح ذلك يمكن أن يوجد في مجموع المخطوطات الاغريقية أو اللاتينية التي هي منسوخات محدثة ، لا أصيلة ، إن هذه المنسوخات بأيدي القسس ، أو رجال الدين المسيحيين ، قد ظهرت إلى الوجود في الأديرة والجامعات العائدة للامبراطورية البيزنطية ، حيث كانت المسيحية فيها ، منذ قسطنطين ، دين الدولة الرسمي ، وحيث كانت « الرومانية » عقيدة معتمدة . فلم يستفد الأورفيون ولا الأوزيريسيون ولا الديونيزيون ولا اليهود من المزايا الجامعة التي أعطتها الدولة البيزنطية ولا من خلفها لاحتكار الكنيسة المسيحية . لقد استمر هذا الاحتكار الفي عام . إن الدولة المسلمة في الشرق ، في تسامحها ، لم تعتقد أن عليها أن تُخْضِعَ للنقد نتائج تحقيقات بيزانطة التاريخية مستفيدة على هذا الشكل من نشر الوثائق الاغريقية واللاتينية التي لا شيء فيها يضمن الصدق والأصالة . بحيث إننا لا نملك تحت أعيننا سوى نصوص شرحتها ونسقتها وصححتها سلطات علمانية أو دينية تهتم قبل كل شيء بتشويه الحقيقة لتتلاءم ومعتقدها الأرثوذكسي .

إن كمية العمل الملفقة والمخطوطات التي انتجتها الأديرة خلال العصور ضخمة جداً ، ولكنها كذلك ، مثيرة للقلق لأن هذا العمل استقى من المصدر نفسه الذي نستمد منه وثائقياً . إن الامبراطور جوليان ، الملقب بالمرتد ، قد ألغى بقسوة ، مصادرة المسيحية للوثائق القديمة ، ولكن غضبه ، كان دون نتيجة ، وحكمه سرعان ما زال . وتبع ذلك أن الوثائق الوحيدة الأكيدة التي نملكها عن العهود القديمة هي الأبنية الأثرية والكتابات المنقوشة على الحجر او الوثائق المسمارية المخطوطة في الصلصال وهذه قد نجا قسم منها من حميّة « مُكيِّفي » التاريخ . وقد حدث ذلك لقسم منها ، ذلك أن الكثير من الأبنية قد هدم ، ومكتبات كاملة مسمارية قد فقدت ، وبخاصة بعد نهب متحف الاسكندرية المشهور . وإذا كنا نريد حقاً ان نجري اختبار تجربة علمياً ، وإذا

كنا نرغب في إبعاد الغموض ، فلا ينبغي أن ندعم فرضياتنا التاريخيّة إلاّ بوثيقة وحيدة محفورة . ولنأخذ مثالاً على ذلك مخطوطات حرب الغال ، إننا نعد لا أقل من خمسين في حوزة الكنيسة : ثلاث وثلاثون منها في مكتبة الفاتيكان ، وسبع عشرة في فلورانسا ، إن أقدم وثيقتين فيها ترتقيان إلى القرن التاسع فقط . إنها نصوص مدسوسة ، مختلطة ، مملوءة أخطاء جغرافية يصعب شرحها ، وصيغاً غريبة تفوح منها رائحة الترجمة ، إنها تزدحم بذلك كله وتضلل الباحث . إننا نملك على الأقل مصححين للنص القيصري : كانا يعيشان في القرن السادس بعد الميلاد وكانا رجلي كنيسة : ج . س كونستانتيوس ، وفورمينوس لوبوسينوس ، ابن أخي أسقف بافيا ، أنوديوس .

أصحح قيصر بيده أو أملى بنفسه تاريخ ؟ (Bello Gallico)

إننا لا نعرف شيئاً دقيقاً عن ذلك البتة . لقد وجد بولينوس ، صديق قيصر ، في عهده الرواية مشوهة ، ورسائل شيشرون تتخذ الموقف نفسه ، بينما يتحدث سيتون عن فضيحة . فإذا ما كانت الرواية الأصلية ، التي لا نعرفها ، مشوهة ، أو أنَّ كاتبها رجل آخر غير قيصر ، فكم كان النص الذي وصلنا عبر جهل الناسخين واللغويين وتكييفهم واختراعهم أو تشويههم عامراً بهذه المساوىء ؟ لقد كان كتاب (تاريخ الغاليين) الجيد واحداً من أقل الكتب نقاشاً . إنه مخطوطة المؤلف نفسه الذي ناقضته أمثال هاته الحواشي والتغييرات والروايات المختلفة التي كانت ، بسبب إعادة تركيبها ، غامضة ، مبهمة . فكل دراسة للعهود القديمة ، لا تدخر مكاناً واسعاً جداً للشك ، ستكون خطرة ، لا مغلوطة فحسب ، ذلك انها ستورط الفكر في دروب مصطنعة .

مع قيصر أوغسطوس يكتمل إذاً دمج روما بالشرق . إن حدود ما ندعوه الامبراطورية الرومانية تتفق مع حدود امبراطورية البطالسة ، لقد انكفأ

السلوقيون إلى المقاطعات السورية ، وخيم البارتيون في ظل الأسرة الارساسية على ضفاف الفرات ، ومدوا سلطتهم حتى نهر الهندوس ، إنهم هم الذين مدوا السياسة المتوسطية شيئاً فشيئاً نحو الشرق ، مانحين آسيا ، على هذا الشكل ، نصراً دائماً .

المؤرخ (تروك بومبية) ، وهو نفسه آسيوي ، وكان يؤلف حولياته في عصر قيصر ، يروي لنا في كتابيه الحادي والأربعين والثاني والأربعين ، لتاريخه ، الجامع ، الذي لخصه جوستينان في القرن الثاني بعد الميلاد ، كيف أن البارتيين قد غدوا قوة « عالمية » . إن عاصمتهم طيسفون ، مبنية على الضفة اليسرى لنهر دجلة ، مقابل سلوقية ، التي كانت شهيرة بثرواتها ، وما دام السلوقيون أقوياء ، فإن البارتيين الأرساسيين ، وهم يحاربونهم ، كانوا يقيمون معهم صلات بعيدة عن الكراهية ، ويقيمون مع الشعوب المسماة « اغريقية » صلات طيبة ، وقد ذهب الأرساسيون إلى حد أن قالوا عن أنفسهم إنهم « نصف هيلينيين » ، مستعملين اللغة الاغريقية ، وساكّين نقودهم على طريقة اليونان . ولقد تم استقرار القوة الرومانية المصرية في فلسطين ، عندما رُدَّ السلوقيون إلى ما يقيم الأود فحسب في سورية الشمالية . فلم يطرد الأرساسيون السلوقيين إلاّ لإنشاء دولتهم الخاصة ، لا ليروها مرة ثانية ينافسها القادمون الجدد . فلقد باشروا في الحال ، ضد مصر وحلفائها الرومان ، حرباً لم يكن بإمكانهم انهاؤها فلقد قاموا بها على طول نهر الفرات ، وفي فلسطين الجنوبية أيضاً ليأخذوا من الخلف المواقع السورية ، وليهددوا رأساً الصلات التجارية والاستراتيجية بين مصر وغزة ، وطريق عدن أيضاً . إن هذه الحرب التي بدأت في عهد تيبريوس وتابعها كاليكولا وكلوديوس ونيرون ، هذه الحرب ستنتهي بسقوط الأسرة القيصرية ، حاملة القائد إلى السلطة في فلسطين : فاسباسيان ، مؤسس الأسرة الفلافية . لقد أرسله نيرون إلى هناك لا « ليخمد ثورة اليهود ويعاقبهم من أجل ذلك فحسب ، بل ليبقي في قبضة

دولة روما بقية الشرق »[1] ، وكان يحارب إلى جواره ابنه نينوس الذي أتى من الاسكندرية بعد أن تلقى من الحكومة المصرية قوات ، وإعانات مالية وتوجيهات . لقد نشر كثير من الأخطاء حول هذه « الحرب اليهودية » المزعومة ، حتى بدا ايضاح أمرها ضرورياً . إننا نعني بها حرباً بارتية قادتها سلطات طيسفون بهدف تحرير سوريا من روما الممقوتة . لقد توصلوا إلى التأكد من تحالف بضع مُدُن غنية في فلسطين الجنوبية ، بعضها يقطنها يهود كالقدس ، والأخرى سامرية بلدية (حسب تعبير يوسف فلافيوس العجيب) .

إن العرب الأدوميين في الأردن الجنوبي ، يؤلفون مثلاً « غالبية قوات سيمون ويوحنا القائدين اليهوديين » . ويقود ضباط ارساسيون القوات المستخدمة ضد الرومان . مونوباز ، وساينبا ونيجر وبيرايث ، وطُلاّس . ولم يفت تيتوس ان يلوم الجماعة اليهودية لأنها « اتفقت مع جماعات الفرات » والحق أن الفلسطينيين المتآمرين مع الأرساسيين لم يحاربوا فقط على الأرض ، بل أن سفن ميناء جوفة هاجمت أساطيل تجار مصر وسوريا . وأزعج ملوك كوماجين وأرمينيا المنتصرين على الأرساسيين أيضاً الرومان في مؤخرتهم . وكان حصار القدس الذي قاده تيتوس بعد رحيل أبيه إلى روما ، يؤلف جزءاً من لعبة استراتيجية تمتد على جميع الأراضي إلى الشرق من سيناء ، لعبة خطرة جداً من أجل القيادة الرومانية ، التي كان عليها حسبما روى فلافيوس يوسف ، أن تخلي جبهة الفرات لارسال تعزيزات إلى عسقلان ويافا والقدس ، وطاريشة ، وأماكن أخرى . وسقطت انطاكية في أيدي الأرساسيين . وكانت الفاجعة مما يتعذر ترميمه . إن هذا يشرح بشكل كاف الشراسة التي أبداها الطرفان ، والارتياح الذي استقبل به فتح تيتوس للقدس في أيلول عام ٧٠ ، وبخاصة في مصر . فلقد ارسل تيتوس إلى مصر غالبية

---

(١) فلافيوس يوسف ، الكتاب الثالث ، الفصل الأول « حرب اليهود ضد الرومان » .

أسراه . ومصر هي التي استقبلت باحتفال كبير الامبراطور فيسباسيان العائد وكان غيظ مصر ضد الجماعة اليهودية خلال عصور ، قد قُدِّرَ من جانب الارساسين ، بحيث أنها غدت قوية . ولم يتأخر الثأر ، ولكنه لم يضرب الجماعة كلها ، بل ظل بعيداً عنها ، فلم يشترك إلى جانب الأرساسيين سوى الرجال الذين كان مستواهم متواضعاً ، أما الطبقات المتعلمة والغنية المرتبطة مالياً بنبلاء انطاكية والاسكندرية ، فقد ظلت وفية . ولقد كان فلافيوس يوسف مثلاً على ذلك . فلقد ضمت الفرق الرومانية كثيرين من الفلسطينيين من جميع المعتقدات . وانصب غضب مصر إذاً على الشعب الصغير ، وعلى بضعة قواد أسهموا في الخيانة . وأغلق في الإسكندرية الكنيس المبنى منذ عام ٣٤٣ ، في ظل البطالسة على أمر فاسباسيان واقتتل في سيرين اليهود و« الاغريق » في الشوارع ، حارقين أحياء بكاملها . ولكن لم يستطع لا الانتقام ، ولا سقوط القدس وعسقلان وطاريشا ، ولا وجود قوة شرطة عسكرية كل ذلك لم يستطع أن يفرض السلم في فلسطين التي يجوبها الموظفون الارساسيون ، ولا سيما أنهم مهددون بسعة تجارة سيناء الهندية التي كانت توصي بها طيسفون بالحاح من موانيء البحر المتوسط .

واستؤنفت الحرب شرسة مع أسرة الانطونيين Les Antonins ، وكانت أرمينيا وفلسطين من جديد مقريها الرئيسين . ودخل الامبراطور تراجان ، بعد أن أعدم ملك أرمينيا ، إلى ما بين النهرين ، واحتل طيسفون ، ونزل مع مجرى دجلة حتى الخليج . ولكن خطوط مواصلاته قطعت ، وكان عليه ، بعد معركة استمرت ثلاثة أعوام ، أن يقاتل متراجعاً بسرعة وأن يموت من التعب في سيلينوت من كيليكيا ، في العام ١١٧ .

وتكررت المأساة نفسها مع خَلَفِهِ آدريانوس فلقد ثارت سوريا والقدس ، وروى لنا ديون كاسيوس ، مؤرخ هذه الفترة خبر احتلال اليعازر وسيمون لمدينة القدس التي سميت (ايلياء العاصمة) بموجب دستور أصدره

الامبراطور هادريان ، واستعاد الرومان المدينة في عام ١٣٤ ، دون أن يتوصلوا إلى تغيير طريق الأرساسيين . وهو برهان مؤكد على عدم استقرار سلطة الأسكندرية وروما في هذه المنطقة ، وعلى وجود تاثير الضغط المتزايد للعالم الآسيوي . وانطلق ماركوريل بدوره للحرب ضد فولوكاساس الرابع الذي غزا أرمينيا وأثار سورية ، بعد أن احتل نصفها بفضل إقدام قواد القبيلة الساسانية . والأكيد أن الرومان والمصريين ، المثبطة همتهم ، قد اعتبروا أنفسهم غير قادرين على الاحتفاظ بأراضٍ قريبة من العدو ، وبشعوب غير مستعدة لتقبل عملهم . وارتسمت سياسة جديدة وهي محاولة منح سورية نفسها السلطة السياسية والعسكرية ، كما أنهم قد أسفوا لأنهم حاربوا القوة السلوقية التي كان حضورها حماية لهم . إن ضرورة وجود سياسة سورية مستقلة عن السياسة المصرية لأمر باتوا يحسون به . فإلى حاكم سوريّ إذاً ، هو افيديوس كاسيوس ، قد عُهد بالمسؤوليات المدنية والعسكرية ثم إن كاسيوس بعد أن أبعد البارتيين قد دفع بقواته إلى اقتحام طيسفون وسلوقية ، وبلغت طموحاته مدى بعيداً ولقد ادعى بعضهم أنه اتخذ زوجة الامبراطور عشيقة له ، وهي عربية كانت مهتمة بإعادة العظمة السلوقية . ولكن كاسيوس ، للأسف ، قد قتل . ولم تنطلق الفكرة أبداً في طريق التحقيق . واكتسبت سوريا وبلاد شمالي سيناء ، تحت ضغط آسيا المركزية والبارتيين ، أهمية سياسية .

ووصلت مع سبتيم القاسي إلى منصب الرئاسة العليا في سنة ١٩٣ ، سلالةٌ عربيةٌ . فلقد كان الامبراطور نفسه ليبياً من لبتيس ماغنا . وكانت عروسه من عائلة باسي ، وهو كاهن الشمس في (إيميز) ، وهي مدينة بنيت عليها مدينة حمص الحديثة . لقد كان فيها معبد مهدى للشمس وكان كنزها حجراً أسود ، شبيهاً بالحجر الأسود في مكة ، ومنبثقاً عن النور الأسود حسب المعتقدات العربية القديمة

وكان إلى جانبه بئر مقدس يرمز لماء الحياة . وكان على كنيسة ثم مسجد أن يتعاقبا في هذا المكان نفسه . ولقد صور على النقود السورية القديمة الحجر الأسود بشكل مثلث ، مع النسر ، وهو رمز النور في الفضاء السماوي . إن إعادة السلطة إلى الأسرة الكهنوتية الحمصية التي حكمت من سنة ١٩٣ إلى سنة ٢٣٥ مع سبتيم القاسي ، وولديه وابني أخيه ، محاولة واضحة لنقل عاصمة المبادرة من مصر إلى سوريا . وهي تشير بصورة كافية إلى أن مركز الثقل في العالم الجديد ينزلق أكثر فأكثر أيضاً نحو الشرق . وإنها لإشارة جديرة بأن يحتفظ بها : الأمراء الحمصيون لم يسكنوا البتة في روما ، إنهم كانوا يوزعون وقتهم بين ليبيا وسوريا ومصر ، ويجب التسليم بأنهم كانوا يحافظون على السلام مع جيرانهم الأرساسيين بإعطاء الإدارة صفة شاملة وعربية بكل معنى الكلمة . ودخل معهم مصريون إلى مجلس الشيوخ ، ومنح كاراكالا بمرسومه الشهير لسنة ٢١٧ المواطنية الرومانية لجميع أحرار الامبراطورية ، حاذفاً بشكل قطعي الحدود بين الشرق والغرب ، والعروق والمعتقدات ، إن ابن عمه باسي الجبل (هليو كابال) ، كاهن الشمس الأكبر ، قد وضع الحجر الأسود في روما ، في معبد شُيِّد من أجله في بالاتين . ولقد عبد خلفهُ الاسكندر القاسي ، الذي رباه في انطاكية معلم اللاهوت المسيحي الكبير أوريجين ، الثالوث المقدس المتمثل في إبراهيم وأورفيه والمسيح .

ولقد كان عهده من سنة ٢٢٢ ، إلى سنة ٥٣٢ نهاية المطاف بالنسبة للنظام السياسي المصري ـ الأوربي ، والإعلان عن عودة آسيا البابلية إلى مسرح التاريخ وهي عودة أحس بها سبتيم القاسي والأرساسيون الأخيرون . ولم يكن الأباطرة العرب قد انسلخوا بعاطفتهم شيئاً فشيئاً من مصر ليضعوا الامبراطورية الرومانية تحت تأثير شمس حمص العربية ، ولقد أعاد الأرساسيون مدفوعين بالتجديد الزرداشتي والميدي ، الاعتبار للديانة العيلامية القديمة وللغة الفرس ، بينما ولدت السنسكرتية في تخوم الهند . ودعا النبي الزرداشتي من

جديد إلىٰ عبادة إله واحد هو أهورا ، بدون معبد ولا صورة ، بمقابل الشيطان أغرا ـ ماينيوس ، أو أهريمان . وفي العام ٢٢٦ تم الحدث الرئيسي : هو نبذ الأسرة الأرساسية ، الممتلئة كثيراً بمحبة الغرب الروماني ـ المصري ، والساساني أردشير بن ساسان ، الذي استولىٰ علىٰ طيسفون مفتتحاً فترة حكم يمتد ٤٧٠ سنة من التاريخ البارتي . وأعلن عن نفسه سريعاً عدواً للإغريق والرومان ، وطالب بإرث الاخمينيين الكبيرين سيروس وداريوس . ولأنه كان يعتبر المصلحة الدينية التي قررها خلفاء سبتيم القاسي غير كافية فإنه اعتبرهم مغتصبين وانطلق محارباً ضد الإسكندر القاسي قبل أن يقتله . وبدأ في هذه المرة احتضار الامبراطورية الرومانية الكلاسيكي . وتتضح الضراوة التي استعملها الساسانيون في قتالها في النصوص القديمة التي جعلوها تتلاءم من جديد مع المناسبة كرؤيا هيستاسب المنذرة ببعث الشرق وموت روما . وألقيت جميع القوىٰ المادية الروحية في « معركة المصير » . ووضع دين دولة قاسٍ للمرة الأولىٰ في طيسفون . وكان النبي ماني قد بدأ نبؤته في سنة ٢٤١ ، في اليوم نفسه الذي توج فيه شابور الأول خلفاً لاردشير ، أعلن ، مفاخرة ، بأنه يكتب بيده نفسها كتب الله الواحد المقدسة ، عن ثلاثة أسلاف : بوذا وزرداشت وعيسىٰ .

ولم يبق أثر لإبراهيم أو أورفيه أو موسىٰ . واستعمل الآرامية ، ونغمها بعد أن طورها ، مستعملاً الإغريقية عاملاً صوتياً ، . . . استعملها في تطوير الفكر الديني انطلاقاً من الألفباء الجديدة . إن حبر الكنيسة الساسانية الأول والوحيد هذا ، حكم عليه بالهرطقة ، وسلخ جلده ثم علق علىٰ باب طيسفون ؛ ولم يبق علىٰ الأقل ذلك الذي كان أكمل ترتيب كتاب الافستا المقدس في ألفباء زندا الذي اختتمه بشن الحرب المقدسة ضد اليهود والمسيحيين ، وعلىٰ مدارس ايزيس وأورفيه وأخريات كن يستخدمن الإغريقية حيناً والآرامية حيناً آخر . ورد اليهود بحدة ، مبتكرين لغة مقدسة منحدرة من

الآرامية ، بينما كانت المسيحية تتمسك بالإغريقية وتستعمل مقابلها نصوص التراث الإنجيلي ، مقرةً نصر، ستبتانت الإغريقي كترجمة وحيدة للعهد القديم . ولم يصلوا البتة قبل القرن الخامس ، لأنهم كانوا يقومون بصورة موازية بأعمال توطيد اللغتين اليهودية والمسيحية فالثورة الثقافية الساسانية التي تحققت خلال القرن الثالث هي إذاً عامل أساسي في التاريخ العام ، وفي التاريخ العربي لأنها أعادت آسيا إلىٰ نفسها ، معززة القوىٰ الروحية لهؤلاء وأولئك (قاطعة) بصورة مؤكدة الجسر الذي أقامه الإسكندر وكاراكلا بين الشرق والغرب . إن آلهة مصر يقفن الآن علىٰ الفرات ، بينما يلمس تبشير بوذا الأرض الرافدية ، ويصل اسم أم بوذا مايا حتىٰ مصر مطابق لإيزيس .

ولقد بشر ، في القرن الثالث ، في ظل الملك أكوكا ، الملك الذي روّج الدعوة ، رهبان بوذيون ، في طيسفون . وصور الأمير فيروز شقيق شابور الأول علىٰ نقود ، وهو يعبد بوذا . ولقد كان أجداد الأسرة البرمكية الشهيرة التي حكمت في بغداد عن طريق الوزارة ، كهاناً بوذيين من خراسان ، ثم أسلمت هذه الأسرة بعد أن اعتنقت الزرادشتية فترة . يضاف إلىٰ هذا أن المسيحيين النسطوريين أي الآسيويين بنوع خاص ، الذين اضطهدتهم المسيحية اليونانية الغربية ، سيجدون ملجأ عند الساسانيين ومن هناك سيذهبون لينشروا المسيحية في شبه الجزيرة العربية وبين القبائل المغولية البعيدة . ومن السهل التنبؤ بفجر الإسلام الأول من خلال حركة الاصلاح الساسانية . إن الحفريات التي قام بها أندريه بارو في الصالحية (دورا اروبس) هذا المركز مفتاح الصلات السورية ـ الرافدية ، قد كشفت عن أهمية التقدم الثقافي والسياسي . لقد أخذت المدينة التي أسسها السلوقيون بحماية آلهة سلالة أبولون وزويس وارتيميس . . . أخذت مع البارثين لوناً عربياً ـ آشورياً ـ وسنرىٰ فيها شمش وحدد وبعل والآلهة نانايا ، ثم تظهر ميترا ويهوا وعيسىٰ ، وأخيراً الشمس التدمرية ـ الزرادشتية . وستشرق سوريا ، متجهة نحو

طيسفون ، عاصمة متلألئة وفارسية تماماً . فالعمارة والتصوير المتخلصان من التكلف الإغريقي ـ المصري ، سيجدان فيها ، من جديد ، الصفةَ الاحتفالية الوحيدة ، والواسعة والصلبة ، لصور آشور القديمة ، كذلك استوحتها بيزانطة . إنَّ فن صناعة الجص ، والمرمر المعجون ، والخزف والبرونز المنحوت قد استؤنف من جديد ، وسيحمل بعيداً تأثيره حتىٰ الصين حيث سيجد مقلدين له : فجياد فن تانغ تبدو راكضة علىٰ ضفاف دجلة . وأكدت الحفريات الأثرية التي قامت بها الحكومة السوفياتية في مناطق اينيساي ، الاسهام الساساني ، وكذلك كنوز بلغاريا وروسيا الجنوبية . وليس هناك من نحت بارز منحوت في الصخر يماثل مواكب العربات المركبة التي لم يجددها فنانو طيسفون .

إن نشر إنجيل ماني قد سبب غموضاً وخلق بلبلة لا في الديانات المستقرة فحسب ، ولكن في الفلسفات أيضاً . الكتابات الغنطوسية تتضاعف والتفسيرات ، والحواشي ، وتفسيرات العهد القديم والعهد الجديد ، كما كان أفلوطين وتلاميذه ، أمليوس والاسكندر الأسيوطي وفرفوريوس بخاصة ، يؤلفون نظرية ميتافيزيائية لمواجهة المعرفة الروحية والمانوين واليهود والنصارىٰ في آن واحد ، الذين صنعوا منها نقداً كاملاً ، ويظهرون الصفة المزورة لمثل عمل زرداشت ، مهاجمين شجرة نسب المسيح المزعومة ، موضحين التناقضات بين الانجليين ، والرسل ، ومهاجمين بصورة خاصة بطرس . وستحاول مصر مع الأفلوطونيين الجدد أن تأخذ من جديد مراقبة التيارات الروحية . فقد كانت في ذلك الوقت تشعر أنها تقاد بالتيار الآسيوي .

ووجدت مدن فلسطين الجنوبية من جهتها ، وبخاصة القدس التي « خانت » القضية المصرية ـ الرومانية لتحتضن قضية الأرساسيين . . . وجدت مدن فلسطين الجنوبية نفسها ، في تلك الآونة ، وبمنطق جيد ، إلىٰ جانب الساسانيين . ولم تكن الجماعات اليهودية لتخفي عنها شيئاً البتة . إن كتابات

كنيس دورا أوربوس تؤكد أنه قبل فتح جيش شابور للمنطقة كان الحاخامون اليهود يجرون اتصالات بطيسفون . والأمر نفسه يمكن أن يقال عن مدن شبه الجزيرة العربية نفسها .

وكانت الامبراطورية الرومانية تقاوم صعوبات لا تطاق ؛ فهي لم تتمكن في الغرب ، بسبب وضعها السيء في الشرق ، من إيقاف الجرمان أو الداشيين .

كان الغزاة يعبرون نهر الرين والدانوب كل يوم . ولقد قتل القوط الامبراطور ديسيوس . ولم يكن فاليريان قادراً علىٰ مقاومة شابور الذي اجتاح سورية ، وأخذ انطاكية ، وقاد الامبراطور أسيراً ، إلىٰ طيسفون ، حيث سلخ جلده بعد أسر استمر ثلاثة أعوام . ومرة أخرىٰ ، كان سوري ، هو أذينة (بعضهم يكتبه عويدات) أمير تدمر هو الذي أنقذ الدولة وهزم الساسانيين . وسعت زوجه المشهورة زنوبيا إلىٰ التحالف مع طيسفون ، واستفادت ، بعد أن أورليان ، من تسامح ذي مغزى . فلقد كانت الامبراطورية تلهث تعباً .

ولقد كان لدوقليانوس شرف إصلاح الامبراطورية ، لكن في إدارتها لا في وحدتها ، فلقد غدا واضحاً أن المقاطعات الغربية لم تكن البتة سوىٰ ملحق معطوب دون فائدة تذكر . ولقد أوجد دوقليانوس بين سني ٢٤٨ و٣٥٠ ملكية مطلقة علىٰ شكل شرقي ومجمعي ، تماثل في السلطة المطلقة سلطة الساسانيين . ولقد قوّى مثلهم دين الدولة ، حول معتقد شمس حمص ، وافتتح بموجب مرسوم ميديا في سنة ٣٠٣ عهداً جديداً من الاضطهادات ضد المسيحيين . وإن من الصعب إعطاء تفسير لهذه الاضطهادات التي ابتدأت مع نيرون ولم تتوقف إلاّ مع قسطنطين واستمرت بذلك أكثر من مائتي سنة . إنها ليس لها مثيل في العهود القديمة ، سوىٰ ما كان من أمر بعض الملوك المتصلبين في المجتمعات الدينية ، يضاف إلىٰ هذا ، أن عدداً من الأباطرة الرومان ، الذين لم يكونوا يخفون تعلقهم بالمسيحية ، كانوا يعاقبون المدن

لا الناس ، في حين لم يكن هنالك من مدينة مسيحية حصراً . إن العقاب علىٰ الرأي لم يكن معروفاً في ذلك العصر . ولم يكن الساسانيون الذين يرون بالطبع في المسيحيين أعداء لينظروا إلىٰ اليهود نظرة أفضل ، ولم يكونوا ليلمسوا المسيحيين النسطوريين بأي شر . ويبقىٰ اللغز مع هذا . فلقد زعم أن اليهود قد وشوا بالمسيحيين للسلطات القضائية ، إنها وشاية تبرهن أكثر علىٰ أن رصيد اليهود في الحد الأدنىٰ منذ أيام فيسباسيان . ولقد جعلوا من مؤلّف (ضد النصارىٰ) الذي كتبه رجل سلتيّ في القرن الثاني قضية كبرىٰ ، وكانت التهم الموجهة هي : « أناس دون وطن ولا تقاليد » ، « اجتماعات سرية » ، « عقيدة من أصل بربري » ، « استعمال السحر » ، وهي تهم لا أساس لها ، ولم تكن ، علىٰ أية حال ، لتفضح إنساناً في روما . يضاف إلىٰ هذا أن مقالة السلتيّ تهجو المسيحيين واليهود في آن . إنها مجموعة من الأخطاء الفادحة والتأكيدات المجانية ، تكاد تشبه آنذاك نص تلميذ يدرس البلاغة أكثر من كونها دراسة جادة . وكل شيء يحمل علىٰ الاعتقاد أن هذه النشرة مزورة ، وليس من المعقول الرجوع إليها كمصدر ، ثم إن النقد المزعوم الذي صنعه أوريجين ، والذي يتخذه بعض النقاد دليلاً ، هو نفسه مريب . يضاف إلىٰ ذلك أن مؤلف (ضد النصارىٰ) كتاب لا يعتّد به . ويجب أن ننتظر قرننا التاسع عشر لنرىٰ المخطوطة تظهر . والمراسلات بين بيلينيوس حاكم ولاية بتانيا والامبراطور تراجان لا توضح لنا شيئاً البتة ، والحقيقة أنها في فصل (النصارىٰ) عديمة الفائدة . إن أية حكومة من حكومات العهد القديم لم تطرح هذا أو ذاك من الأنظمة الدينية كبطل متسامح . ولا نستطيع أن ننسىٰ أبداً أن الأباطرة كانوا مسيحيين أو قريبين من المسيحية في عهد سلالة السيغريين مثل فيليب العربي ، وإن الأساقفة كانوا مشتركين في السلطة . وإن الذي يجعل الأمر صعب الشرح ، حين نعتمد علىٰ الشرح الوحيد العقائدي ، هذا التغير الشرس لدىٰ ديوقلستيان بصورة خاصة . ومهما يكن فإن ديوقلستيان قد أخفق في إيجاد دين

دولة ، وإن اصلاحه المجمعي المدعو ولايةً ربعية قد انتهىٰ إلىٰ تحطيم الامبراطورية الرومانية مزقاً .

لقد بقي منها فقط بروتوكول قاسٍ مستعار من الاسكندرية ومن الساسانيين ، والذي لم يكن يؤرخ الماضي . وهكذا فإن نظام الأنطونيين كان قد أوجد امكان خلع الملك والاحتفال بكفالة من يقدمون الرجال للبلاط أو كسيِّدات لبلاط الامبراطورة ، ومراعاة عادة القبلة الامبراطورية علىٰ أطراف الأصابع ، وعادة السجود للامبراطور كذلك . ولقد أضاف ديوقلستيان إلىٰ ذلك أبهة احتفالية : عادة الركوع قرب العرش الامبراطوري ، وملابس العاهل المحاكة بالذهب ، ورسمه المسكوك المكلل بهالة ، فكان يدعىٰ « صاحب الجلالة » .

بيزانطة والحروب المقدسة

« الذروة العليا في الهندسة الكوكبية »

كان ينتمي إلى قسطنطين ، ابن كونستانس ، زميل ديو قليسيان ، وقد استقر أخيراً في عاصمة امبراطورية الشرق ، لأنه في الشرق سيستقر منذئذٍ أغلب الأباطرة .

فلقد افتتح الامبراطور في مكان بيزانس القديم ، وفي مكانٍ رائع على مضيق البوسفور « المدينة الخالدة » « روما الجديدة » (حسب العصر الرسمية) التي أخذت اسم القسطنطينية (مدينة قسطنطين) .

فعلى هذه الشواطئ ، وفي ملتقى تيارات العالم القديم السياسية الجغرافية يمكن أن يستعيد الإنسان ، بنظرةٍ ، أكثرَ الأحداث الماضية تألقاً ، ويتأمل في الوقت نفسه مستقبل البحر الأبيض المتوسط . فطرق المواصلات الدانوبية ، وخط الفرات وطريق النيل تَجْمعُ وتُوَجِّهُ ، نحو نقطة الالتقاء العربية ـ الأوربية ، أي في القسطنطينية ، ثروات أوربا وجنوبي قارة آسيا ، أي الصين والهند ، والقارة الافريقية .

إننا أثناء تمهلنا في فحص بانوراما القسطنطينية ، نرى أن البحر الأسود ، وشبه جزيرة القرم والقوقاز وأراضي روسيا الجنوبية تقع بالطبع تحت التبعية الامبراطورية . وستبقى الشروط الجغرافية والاقتصادية لسياسة العالم القديم حتى حفر قناة السويس هي ذاتها لا تتغير مثلما كانت عليه في عهد قسطنطين . والواقع أن انتقال عاصمة الأعمال في القرن الرابع من الإسكندرية إلى القسطنطينية قد كرس أهمية بلاد الشرق الأقصى التي أخذت موضع قدم لها في

افريقيا ، انه يبرهن أيضاً أن بحري قزوين والأسود ، المنفتحين على مقاطعات آسيا المركزية قد أصبحا نقطة ارتكاز حضارة قوية . وهكذا وجد الامبارطور نفسه أميراً دانوبياً وسيتياً وروسياً وعربياً ومغولياً في آن . فمدينة القسطنطينية باعتبارها ملتقى طرق ، هي أيضاً ملتقى حروب .

كذلك فإن النظام الاقتصادي البيزانطي متشابك مع نظام الساسانيين الاقتصادي الذي كان تنظيم مراقبة طرق الشرق القوي فيه يشمل المناطق الآسيوية من سمرقند وبخارى حتى سيلان .

ولقد ألف تاجر اسكندري يدعى (انديوبلوستس) كتاباً ، في القرن الرابع رسم فيه مخطط المنشئات الساسانية . لقد كانت القسطنطينية وطيسفون ، وهما تتحاربان بحاجةٍ كلٌ منهما للأخرى ، فكل منهما تفتش عن حلف مع القوط والمصريين والمدن العربية أو الأثيوبية . مسلحين إياها حتى الأسنان ومهيئين إياها للخراب . وكان يوجد في جيش شابور الأول ، الذي تسبب في هزيمة مخجلة ، عدة فِرق من الهون ومن عرب شبه الجزيرة . ولقد حاول في القرن الرابع وفي ظل إمارة قسطنطين ، ثم كونستانس وجوليان وتويودسوس الكبير ، أن يقيم نوعاً من الوحدة الظاهرية للامبراطورية المقسمة جغرافياً إلى أربع ولايات ، لتأمين الحدود ، وبخاصة لتأسيس ديانة دولة لمعارضة الكنيسة الساسانية وكان ذلك صعباً في دولةٍ العقائدُ والكنائسُ كثيرةٌ جداً فيها ، ومتنوعة ، ومتعارضٌ بعضها مع بعضها الآخر ، وبينها فروق حادة ، تمنع من فرض عبادة وحيدة ولقد حاول قسطنطين ذلك ، وقامت الامبراطورة هيلينا أمه التي كانت مسيحية ، باستقصاء في فلسطين بحثاً عن آثار حياة المسيح المادية . إن قسطنطين لم يكن تلميذاً متحمساً للمسيح بل كان مبتدئ التنصر طوال حياته ، وكان يتلقى العماد ويوصي دائماً ، مودعاً حياة الوثنية الفلسفية التي لم تكن تبدو بالنسبة له بعيدة أبداً عن الرسالة المسيحية ، ولكنه وهو يأمل في أن تتمكن المسيحية من أن تكون ديانة ملائمة لمخططاته ، بدأ بالاعلان في

مرسوم ميلان لسنة ٣١٣ ، عن حرية العقيدة المسيحية ، دون أن يُحرِّم العقائد الأخرى ، ولم يغلق سراً المعابد الوثنية ، على الأقل . يبقى أن نعرف ما هي المسيحية التي تمارس . فلقد ألحَّ الأسقف الاسكندري أريوس على طبيعة المسيح الإنسانية ، مؤكداً أنه لم يكن إلهاً ، ولكن من خلق الله . وكان اسكندريٌّ آخر هو أتاناس يبشر على العكس من ذلك بألوهية المسيح ، وهي وجهة نظر روحية بعيدة عن المقولات العقلية . ولقد وجد ، إذاً ، أن مقولة آريوس ، بين عديد من البراهين ، تصل إلى نظريات ماني والكنيسة الساسانية ، الكنيسة العدوة . لذلك وجب الحكم على أريوس . ورأس قسطنطين بنفسه في سنة ٣٢٥ مجمع نيقيا وألقى فيه خطبة الاحتفال . وأُنذر أريوس رسمياً بأن يرجع عن آرائه ، بينما كان الآباء التوفيقيون يؤلفون عقد الإيمان الذي حرره أتاناس ، مبرراً منذئذٍ ، والذي هو كما يلي :

« إننا نؤمن بإله واحد ، هو المسيح عيسى ، ابن الله ، ابن الله الوحيد . إله ولد من إله ، نور منحدر من نور ، إله حقيقي مولود من إله حقيقي ، مولود وليس مخلوقاً ، مشارك الأب في الجوهر » .

ورسم المجمع عشرين نسخة من مجموعة الشرائع الكنسية أو قواعد النظام : واعترفت الشريعة السادسة لأسقف الاسكندرية ، في أراضي مصر ، بالسلطات نفسها التي يتمتع بها اسقف روما في ايطاليا ، وهناك أمر جدير بالتنويه هو أن الشريعة السادسة ترفض أن تسند ، لأسقف ايليا (اسم القدس الرسمي) حقاً ، سوى حق شرفي ، بينما يمتع أساقفة انطاكية وبعض المناطق الأخرى ، « بحقوق قديمة » لم تكن طبيعتها واضحة .

وإنه لحدث كبير هذا المجمع . فلأول مرة تحاول الدولة غربي الفرات أن تفرض على الشعب ديناً ، مخالفة بذلك ، وبشدة ، التقليد المتوسطي والمسكوني العالمي الذي كان الصفة المميزة له منذ عدة آلاف من السنين . صحيح أن قسطنطين لم يفعل سوى التصدي لموقف السلطات الساسانية

المسؤولة الأولى عن هذا العمل . ولكن مفهوم المجمع نفسه كان ثورياً ومستهجناً ، ففكرة أن الكهنة ، رجال الله ، يمكن أن يجتمعوا لكي يحكموا على كهنة آخرين أو على إله آخر بدت غير محتملة بالنسبة لغالبية سكان الشرق العربي الذين لم يروا فيها سوى اجراءات حكومية فنحن ، المتعودين على المنازعات العقائدية والدينية ، يصعب علينا تخيل الذعر الذي أصاب الشرق تجاه اعلان قرار نيقيا الذي فسر على أنه اعلان حرب مضاعفة ضد الساسانيين أولاً ، والتقليد العربي ثانياً . فمن هذه السنة ٣٢٥ يبدد تاريخ جديد صنعته اضطرابات دينية عميقة لم تكن سوى انعكاسات قومية وشعبية على مبادرات السلطة الأمبراطورية المتحدة في الخارج . وبينما اتخذ كثيرون من مريدي أريوس وجهة طيسفون ، حيث شهدوا أكرم استقبال ، لم تفعل انطاكية سوى التحفظ على أوامر مجمع نيقيا . وكان الخطر الأكبر هو أن تغدو آسيا الصغرى تابعة للساسانيين وجمع الأمبراطور تيودوسيوس الكبير ، لكي يتجنب الحركة الانفصالية ، مجمعَ القسطنطينية في سنة ٣٨١ ، وتداول في أمر معاقبة مصر مرة ثانية على الأريونيسية ، والرد على مُحاجَّةِ الفقهاء الاسكندريين ، فقد أعلن أن الروح القدس ينبثق عن الأب والابن . وولدت عقيدة التثليث . وكبر تقدير الاسكندرية ، إلى حد أن بطريقها كان ينظر إليه وكأنه وريث الفراعنة . والجدير بمقرّ الحبر الأعظم الذي يتمتع في الشرق بسلطة توازي سلطة البابا ، اسقف روما .

وتركز في الوقت نفسه انقسام العالم العربي إلى عالمين ، على جانبي الفرات ؛ وبين القوات الامبراطورية وقوات الملك شابور من طيسفون ، كانت المعارك تتوالىٰ وتطول شيئاً فشيئاً ، بينما غدت الهدنات قصيرة المرة بعد الأخرى . وأضيفت إلى هذه الحروب تمزقات داخلية . فلقد اثار مجمع القسطنطينية الثورات وشجع النزعة الانفصالية في انطاكية التي وجد تيودوسوس الكبير صعوبة في إخماد الفتنة الدامية فيها . وكانت ولايات

الامبراطورية الأوروبية تنفصل بتأثير ضربات الشعوب الجرمانية . وعندما مات تيودوسوس ، اقتسم ولداه الدولة ، فحصل اركايوس على القسطنطينية ، واستقر هونوريوس السيء الحظ بين روما ورافينا حيث لم يكن له من الحكم إلاّ الاسم . والحق أن الغزوات الكبرى ستكتسح الأراضي الرومانية وسيستقر الفاندال في اسبانيا وسيعطون اسمهم للمقاطعة الأندلسية ، وسيمرون من هناك إلى إفريقيا بإذن من القسطنطينية ، ليؤسسوا مملكة بقيادة (اجينذيرك) . واحتل القوط ايطاليا والغال وايليريا ؛ أما غزوات اتيلا المسمى ملكاً في سنة ٤٤٥ ، فقد زعزعت القواعد الرومانية الأخيرة ، حتى إنه أبطل سنة ٤٧٦ لقب امبراطور الغرب ، ولم يبق من امبراطورية ، سوى القسطنطينية ، التي ستقف في وجه الرياح حتى سنة ١٤٥٣ . وتفرق الغرب إلى ممالك متعادية يسيطر عليها أمراء القبائل الجرمانية . وستغدو فاشلةً ، محاولةُ جمع شمل الامبراطورية بتأثير حزم تيودور (٤٥٥ ـ ٥٢٦) صهر كلوفيس ملك فرنسا ، وسيبقى الشرق مفتاح العالم الوحيد . بقوته المدينية المحترمة ، وصناعاته ، ونظام انهاره وموانئه المعدة لمراقبة البحار ، واقتصاده الثابت الذي يخدمه ملايين الرجال ، المجتمعين في جماعات حرفية منذ آلاف السنين . وتتمسك الاسكندرية ، وبيريت (بيروت الحالية) وطرابزون ، وكورنثه ، وانطاكية واللاذقية ، وسالونيك وبرغام وغيرها من المدن بتقاليدها المشهورة . وستتكسر الغزوات المنتصرة في الغرب أمام الدفاعات البيزنطية في الشرق .

ولقد توغل ضد القوط في فيرجيا ، وضد الهون الذين تقدموا فيما بين النهرين وفي سوريا ، وضد الساسانيين ، جيشُ الشرق الامبراطوري ، ثابتاً دائماً ، منتصراً دائماً . وبنى تيودوسيوس سور القسطنطينية الكبرى الذي لا يزال باقياً حتى أيامنا هذه : ستة كيلو مترات ، وستة وتسعون برجاً ، وعشرة أبواب ، إنه واحد من أجمل الأبنية المعمارية العسكرية العربية وكلما توغل الغرب الروماني في الظلمات أكد الشرق العربي نفسه وارتقى إلى العلاء

بعظمة . ولكن الدودة كانت في الثمرة . واشتدت المنازعات الدينية وادعى نسطور السوري ، بطريرك القسطنطينية ، المتأثر بطيسفون ، والمتبني نظريات أريوس المسيحية ، ان يسوع المسيح ليس إلا مخلوقاً ووقف سيريلا بطريرك الاسكندرية ، في وجهه نصيراً للطبيعة الواحدة للمسيح ، وهي العقيدة المستعارة من أتاناس . وفرض بطريرك الاسكندرية وجهات نظره الروحية ، بمعونة روما ، في مجمعي افسوس في سنة ٤٣١ ثم في سنة ٤٤٩ ، وحكم على أسقفي مدينتي انطاكية والقسطنطينية . وكان النصر المصري ظاهراً إلى حد أن الناس اعتقدوا لحظة أن كسوف شمس البابوية قد حان ، أو أنها ستنقل إلى ضفاف النيل . وتمَّ حَدَثٌ دون مقدمات : ففي السنة ٤٥٠ أقيم حفل قداس ، فقد تلقى الامبراطور مارسيان التاج من يدي البطريرك . وبدلت الكنيسة والدولة المتحدتان في القانون الإلهي ، السلطة الزمنية ، وجعلتا من رعايا الامبراطورية ، أتباع ديانة مكرسة لله ولقيصر . وكان في ذلك ، لبابا روما ، خطر لا يستهان به ، وهو أن يصبح تابعاً للقسطنطينية والاسكندرية . وناور البابا (ليون) الكبير في مجمع خلقيدونيا ليحكم على مذهب الطبيعة الواحدة ، مقتلعاً بذلك ، من الاسكندرية ، رصيداً روحياً كانت قد حصلت عليه . وهكذا اغتيل ضمير الشرق العربي بصورة مؤلمة . ورأى الشعب نفسه يعتدى عليه من قبل غرب لا يستطيع أن يوافق على حمايته الروحية ، وآملاً في متسلم حقيقي لعقيدة لم يكن الغرب سوى تابعها ، بينما كان الشرق مصدرها ، ومتلقيها وحارسها . لقد اعتدت روما بينما كان الشرق مصدرها ، ومتلقيها وحارسها . لقد اعتدت روما والامبراطورية مرتين على عقل الشرق المقدس : الأولى في الحكم على الايمان السوري ورمزه أريوس ، والثانية عندما شهرَّت بالايمان المصريّ المتمثل في البطريرك المقدس أتاناز ، والبطريرك سيريل المقدس . وكان الحقد الدفين عميقاً ، فلقد رئب الصدع بين كنيستي انطاكية والاسكندرية اللتين كانتا حتى الآن متنافستين لا في جمع الشمل بينهما ، ضد

البابوية الرومانية فقط ، بل في لفت النظر نحو الكنيسة الثالثة الشرقية الزرداشتية ، أي كنيسة طيسفون الساسانية أيضاً . إننا لنلمح إذاً ، في وقت مبكر ، ومنذ القرن الخامس ، تحالفاً دينياً وشعبياً بين العالمين المصري والبابلي ، إن ذلك التحالف سيقدم وثاقاً متيناً للاسلام ، ورد فعل المجتمع الآرامي على العقيدة اللاتينية .

وامتد وتأكد الهجوم ضد الغرب الأوربي ، الذي اعتبر عنصر تعكير وإقلاق ، في عهد جوستنيان الذي امتد من سنة ٥١٨ إلى موته في عام ٥٦٥ . وكانت الامبراطورة تيودورا نفسها عدوة لدودة واضحة لدولة واضحة ضد اللاتينية . فلقد آزرت طوال هذا الحكم الطويل زوجها في محاولته اصلاح القوة السلوقية . هذه المحاولة المتجانسة مع الأسف مع إرادة إخضاع مصر والساسانيين ، لقد أراد جوستنيان حقاً أن يوحد العالم العربي ، ولكنه خضوعاً لسيطرتها وتحت ضغط مراسيم مجمع خلقدونية ، وبازدراء التقاليد الشعبية وطبيعة الشرق المتسامح نفسه ، والمهيأ قليلاً للانقسامات . . . أراد جوستنيان أن يوجد في سنة ٤٢٥ جامعة القسطنطينية حيث تكون كراسي التدريس الاغريقي الخمسة عشر أكثر من كراسي التدريس اللاتينية الثلاثة عشر . وحرمت جامعة الاسكندرية في السنة نفسها من مميزاتها ، وكانت جامعة أثينا في عام ٥٢٩ مغلقة ، وأخلت الشرطة معابد آمون وايزيس وفيله من روادها .

وبقي أن يخضع بعض القائلين بالطبيعة الواحدة الذين يسندهم بطريرك مصر والذين حكم عليهم مجمع خلقدونية . وأثار جوستنيان الراغب في أن يكون سيداً على دولته ، ضدهم اضطهادات قوية متمثلة في قتلٍ عام ، ونفيٍ ، وهجومٍ مسلح ، وطرد الهراطقة من الوظائف العامة . ولكن تبشيرهم لم يتوقف البتة . وكانت المقاومة الشعبية ضد جوستينيان القيصر ـ البابا شرسة جداً ، وآزرت الامبراطورة تيودورا بنفسها مذهب طبيعة المسيح الواحدة المصري واستقبلت واستضافت في قصرها رجال الدين الذين تفتش عنهم

الشرطة . وبفضل معونتها أنشأ يوسف البارادي سراً كنيسة اليعاقبة التي لا تزال موجودة حتى أيامنا . يضاف إلى ذلك أن الصحارى ازدانت بالأديرة والزهاد ، وكانت الحماسة الروحية قوية في القرن السادس إلى حد أنها دفعت المسيحية في طريق كانت مجهولة حتى الآن في كنيسة الرسل : إنها كنيسة التأمل المنعزل ، ودخلت الأورفيّة والبوذيّة والصفاء الزرادشتي عند الكثيرين في هذه الحالة الجديدة .

وأوجدت حوالي العام ٣٣٠ ، في منطقة النيل العليا ، في كابينيزيس (بساتين النخل) أول دير أقامه راهب من أصل قيني ، يسمى باقوم ، وأسست أخته أول أديرة النساء . وثبت في القدس ، القديس شاباش ، الراهب الشهير في قاعدة الدير . وسجلت في سنة ٥٣٤ ممارسة القديس بنوا . وامتلأت الامبراطورية بالأديرة وعد منها ٦٧ في مقاطعة القسطنطينية وحدها ، وكانت جميع هذه الأديرة ملاجئ لمقاومة جوستنيان ، وصوامع ارشاد شعبي تتوافد فيها الروحانيات العربية ، والشرقية ، كما لو أنه قد أقيم إلى جانب الكنائس الرسمية والملتزمة بالأعراف ، وإدارات القصر والطبقات العليا المؤلفة من النبلاء شكلٌ من أشكال الأحزاب الثورية المؤسسة على دين القلب ، القليل التعقيد ، والغني بالحميّة ، والمختلط بالأساطير والظلال . وتراقب الرهبان ورجال الكنيسة العليا ، كما تراقبت المدن والأرياف ، والأغنياء والفقراء . وكانت الفتنة في كل مكان كامنة وفي كل راهب كان يختفي ثائر . وكان الشعب الآرامي يتآمر ضد روما والبابا ، السلطة الامبراطورية والعقائدية الأسقفية أو يقاتلها باسم المسيح ، بالتأكيد ، ولكن باسم الاخلاص لتدين داخلي انجيلي مملوء بايمان اوزيريس أو يهودي ، سابق للطوفان ، يعد سابقاً للاسلام .

ويرعى هذه الانتفاضة الشعبية ويقويها الحروب المتوالية ضد الفرس الساسانيين ، واتلاف المزروعات ، وهجرة الفلاحين ، وبؤس المكلفين وشراء الضمائر بذهب طيسفون الذي يُغْري العامة في هجوم ضد الامبراطورية

وكان جوستنيان المحاصر في قصره خلال شتاء عام ٥٣٢ ـ ٥٣٣ مديناً بسلامته للقائد بليزاريوس الذي حاصر ، وأباد من ملعب القسطنطينية ما يزيد على عشرين ألف ثائر ومع ذلك فقد جعل بينه وبين الشعوب الآسيوية قضية مشتركة من حيث الجوهر ، إنه يفرق بين كراهيتهم لروما وكراهيتهم للغرب المُتَجَرْمِنْ في ذلك الوقت ، وأعادت جيوشه فتح مملكة الفاندال في تونس وصقلية ونابولي وروما ، مقتطعة أراضي ورثة تيودوريك . وانتهى بتوقيع « سلم دائم » مع كسرى ، الملك الساساني ، موافقاً على دفع جزية من أجل ثغوره القوقازية التجارية . والتفت إلى البابا ، وأجبره على العدول بنفسه من مؤتمر القسطنطينية المسكوني في سنة ٥٥٣ وشكا البابا فيجيل من الغرب ، حيث أصبح قسم كبير من رجال كهنوته منشقاً ، وكان قد انهار سياسياً أيضاً ، لأن جوستنيان قد نقل العاصمة من روما إلى رافينا ، وفقد الغرب ، في ذلك الوقت ، تضامنه الروحي . ولن يكون خَلَفا فيجيل (بيليجايوس ويوحنا الثالث) المنتخبان بناء على تعليمات قواد الامبراطور ، سوى تابعين مطيعين للقصر . وبين الحين والحين كان جوستنيان ، بعد وفاة زوجته ، يقترب من القائلين بمذهب الطبيعية الواحدة ، ومن الرهبان ، وحتى من الأريوسيين منهم ، لكي يجمع الشرق كله في كنيسة واحدة متلائمة مع تقاليده . وجدد صلاته بمصر ، مضاعفاً المؤتمرات والندوات ، وانهمك في مساعٍ لاهوتية لكي يصل إلى الوحدة المذهبية . ولقد تخلى من أجل ذلك عن الأرثوذكسية ، وأصدر في سنة ٥٦٥ ، قراراً لصالح الكنائس المنشقة .

وكانت السلطة الامبراطورية ، للأسف ، وبالنسبة له قد فقدت سمعتها ، لأنه لعب طويلاً بهذه وتلك ، ولم تلق إرادة جوستنيان الطيبة إلا الحذر أو الغضب . وانتهت مدة حكمه باختلاط الأمور بعضها ببعضها الآخر .

ولم يصلح على الأقل في كل مجده ثقافة الشرق الغربي وفنه . إن العمل التشريعي الذي يؤلف قانون جوستنيان ، هو مجموعة منتخبات واسعة موزعة

على اثني عشر كتاباً (تقليداً لقانون الاثني عشرَ لوحاً) ؛ مجموعة لا تصنع شيئاً سوى اقرار العادات القائمة في الشرق منذ الأزمان السحيقة . إن مدونته عن القانون المدني سوف تكون دليلاً لجميع.الأنظمة القانونية الموضوعة بعدها ، وستكون ، وهي المستوحاة من القوانين المصرية والبابلية والفلسطينية والرومانية المشتقة منها ، معتمد مجتمع الخلفاء وأنظمة الملوك في الغرب . وفيها يعترف بأن جميع الناس هم بالطبيعة متساوون وأحرار . وأن حقوق الإرث ينبغي ألا تفرق بين الأجناس ، وأن المرأة يجب أن محمية من الطلاق ، وأن الأسرة هي الخلية الرئيسة في المجتمع . وأكد فيها بوضوح . على قوة الدولة الشاملة ، التي تتلقى تعريفاً قانونياً خاصاً يماثل شخص العاهل . وهكذا نقل المفهوم الفرعوني عن السلطة إلى دول ستتأسس من ثَمَّ في العالم . وإذا كان صحيحاً أن قانون نابليون قد استعارته عواصم الشرق الحديث ، فليست هذه إلاَّ استعارة معادة ، ذلك أنه شكل يلخص ، عن القدماء ، القوانين الفرعونية والجوستنيانية .

إن إحياء الآداب العربية خلال حكم جوستنيان فصل هام في تاريخ الحضارات العام . فلقد كان استعمال اللغة الاغريقية فيها موازياً لاستعمال الآرامية التي تطورت إلى « السريانية » على مستوى الأدباء ، ولكنها لم تكن سوى العربية في قوتها اليومية والشعبية . إن جميع أسماء الأدباء في عصر جوستنيان فلسطينية أو سورية . فبروكوبيوس ، أكبر مؤرخي العصر ، مولود في قيسارية ، ويوحنا مالالاس ، وهو مؤلف تاريخ شاملٍ ، يمتد إلى أصول العالم ، هو راهب من إنطاكية ، ويوحنا الأفسوسي قد شرح بالسريانية التاريخ الأسقفي ، وكثرة من الشعراء ، وناظمي الأناشيد ، والزجالين ، تبشر بالعهد الأموي المتلألىء وتطرق موضوعات متماثلة باللغتين الإغريقية أو السريانية ، وإذا كان أكبر علماء لاهوت العصر ، من بيزانطة ، فإن غالبية الكتاب تأتي من غزة وأوديسا ونصيبين وبيريت (بيروت) وهم قد تتلمذوا مثلاً ، على أساتذة

مشهورين في الحقوق مثل دوروتيوس ، وأناطوليوس ، ولنذكر أسماء : بولص من سيلانيتر ورومانوس ، وكوردبوس ، ويوحنا ليدوس الخ . . .

إن الإسهام الذي قدمته سوريا آنئذ للثقافة الشاملة لم يعترف بها في عصرنا الرأيُ العام الذي يجهل كل شيء سوى القسطنطينية ، التي قامت مقام الاسكندرية في نشر الفكر والفنون ، متلألئة بعيداً عن أوربا ، أي في آسيا وأفريقيا . ولقد ظهر هنا التقليد الذي يرتقي بعيداً في الزمان .

لقد أبرز لويس برهية وبول شيفربواشورست (في مدونته البيزنطية) منذ فجر القرن العشرين تأثير الفكر السوري في الغرب . لقد حكم سبعة باباوات عرب على الأقل الكنيسة الأولية : القديس أنيست (١٥٥ ـ ١٦٦) والقديس يوحنا الخامس (٦٨٥ ـ ٦٨٦) ، والقديس سرجيوس الأول (٦٨٧ ـ ٧٠١) والقديس سيسنيوس (٧٠٨) ، والقديس قسطنطين (٧٠٨ ـ ٧١٥) ، والقديس غريغوار الثالث (٧٣١ ـ ٧٤١) وليوْن الثالث . وليس هناك واحة أو مدينة في الجزيرة العربية لم تكن مملوءة بالثقافة الانطباعية ، التي ظهرت ثقافتها وسموها المعماري ، بالتأكيد في كنيسة القديسة صوفيا .

إنها تلقي ، بالتقاليد التي تمثلها ، على تاريخ الفن ، نوراً يكشف التناغمات الداخلية التي تنظم الأسلوب الرومانسكي ، إنها تشرح بالبندقية وتوسكان ، وتمنح ذوقها لأشكال كنيسة القديس بطرس في روما ، ولكتدرائية ألتمارو في البوي ، ولكنائس بوي ، وكنيسة كرسي الله ، وفونتيفرد الخ . . . إننا نقف بوساطة كنيسة القديسة صوفيا ، على عظمة سر العمارة العربية وقوتها ، تلك العمارة التي ستزدهر في الغرب ، وتسعى لتجميله . أن موضوع القديسة صوفيا ، وموضوع كل فن عربي بصورة عامة ، يكمن في حضور السماء والأرض المتزامن ممتزجين في احتفال يأخذ فيه الصرح دور الصلاة . حب وكبرياء بكل ما تملك الإنسانية من فخامة ، وإيثار للمخططات المعمارية الكبيرة المتجانسة للسطوح المستديرة الناعمة حسب الأسلوب المصريّ وشغف

بالنظام ، ومعرفة صحيحة بالهندسة ، فلا التفاف ، ولا طيش ، ولا أحلام يقظة .

لاحظ المهندس المعماري حسن فتحي أنه « لم تعرف أية عمارة كيف تدعو السماء كما عرفت العمارة العربية » . وكان جوستنيان يعتبر كنيسة القديسة صوفيا رائعة حياته والتعبير عن العظمة السورية ـ الآسيوية ، ولقد عهد بتحقيقها إلى مهندسيْن معماريين هما : أنطونيوس من تراليس ، وايزدردر من ميليا ، وهما تلميذا التقاليد السورية . لقد حققا معجزة : ولقد افتتحت كنيسة القديسة صوفيا ، بعد أن تمت في كانون الثاني سنة ٥٣٧ ، ثم أعيد ترميمها بعد سقوط القبة في سنة ٥٥٨ ، وتم الترميم في سنة ٥٦٣ . وتحدت ، منذ ذلك الوقت ، أي منذ أربعة عشر قرناً ، قوانين الجاذبية الأرضية ، وكانت شاهدة نجاح ليس له حتى الآن نظير . لقد رأى فيها (بروكوب) في كتابه (أبنية) « عملاً من أعمال الألوهية نفسها » . ولنقف قليلاً عند هذا المشهد : القبة تحوّم بقطرها البالغ واحداً وثلاثين متراً ، على ارتفاع مقداره خمسون متراً من سطح الأرض ، مشدودة بأربعة أقواس ، مدعمة بنصفي قبتين ، مستندتين أيضاً إلى ثلاثة كوى نصف دائرية . لقد كانت الزينة الداخلية براقة خاطفة للأبصار من الفسيفساء ، والذهب والحرير والسجاد ، والطلاء الخزفي ، مشتعلة بنيران الذهب المصاغ ، وكانت الجدران عارية في الخارج باذخة في الداخل : إنها صورة الروح .

إن الفن البيزنطي يجسد مقدماً التأمل الإسلامي ، لأنه فن عربي ، يعرف أن الأرواح السامية هي الأرواح المتوارية التي تصنع حولها الفراغ لكي تدع روح الله تتنفس بحرية . وليس يصعب علينا أن نجد ثانية في العمارة البابلية والنيلية وفي خرائب مأرب في اليمن وطيسفون ، وفي بانتيون روما أيضاً ، وفي كنائس دمشق ، وفي أصول القباب . . . . رموزَ القبة السماوية ، وتقنيات ارتكاز عقد على زوايا كاملة . لقد كان على القبة التي دفعها السوريون نحو

الكمال ، أنْ تظهر لأول مرة في أوربا ، على امتداد واسع ، مع برونوليتشي في فلورانسا . إنَّ الشكل الأكثر سماوية هو الذي يرتكز على دعامات مثمنة الأضلاع (رباعية أضلاعها مقطوعة) ، بواسطة عقد الزاوية ، أي بأجزاء القبة . فهنا توجد ذروة التقنية المستوحاة من الهندسة الفلكية . وقبة الصخرة أروع نماذجها ، المسماة مسجد عمر ، الذي بناه الخليفة الأموي عبد الملك في عام ٦٩١ ، في القدس حول صخرة إبراهيم المقدسة . ولكن نموذج الضريح الذي كان بناء بيزنطيا هو كاتدرائية بصرى الغسانية . فابتداء من مخازن حبوب رعمسيس العائدة إلى الأسرة التاسعة عشرة الفرعونية إلى إيوان طيسفون الساساني ، مروراً بأسلوب الحصون البيزنطية ، وسانتا صوفيا ، ومنازل قرطاجة ، حتى تنتهي في القصور العربية في غرناطة أو طليطلة ، وبمسجد القيروان وبقصور النورمانديين في باليرمو ، وكاتردائيات البندقية وبورغونيا . . . يبدو الفن في هذه الأبنية جميعاً واحداً ، والقبة ملكة ، والمثمن منتصراً . إننا أمام فن عربي من حيث النموذج ، وكنيسة القديسة صوفيا تعطينا فكرة تامة عنه . ونقلت صقلية هذا الفن إلى توسكانيا ، بينما أدخلته رافينا والبندقية إلى ايطاليا اللومباردية والبيمونت ، ثم حمله الصليبيون مرة ثانية إلى فرانسا ، وبقية أوربا بشكل كامل .

وحين تحول هذا الفن إلى فن الرّسم ، منح أعمال جيوتو وبيير فرانشيسكو الكبيرة السينادية[1] ميزتها البدائية الخاصة ، حيث يختلط اللون في كتل مصممة بقوة ، مغلفة بالسكون والسكوت ، وحيث تتوضع امتدادات سماء واسعة على وجوه منطلقة من تعبير نفسي ، على أجسام متخلصة من كل قبح جسماني . إن نوعاً من الطهارة الباردة المثير للذكريات الشفاف يشمل لوحةً لبيير فرانشيسكو في تصاوير جدارية ملحمية فيها هالات توضع لشخصيات تاج

[1] نسبة إلى مقاطعة إيطالية تضم توسكانيا

خلود ، بينما تسبر أعينها الخالية من البؤبؤ عالم الغموض والأسرار . إن كنيسة أيا صوفيا والفن البيزنطي يأتيان من بعيد ، وقد ولدا من جهود وتأملات عمرها آلاف السنين نقلتها وحورتها مصر وآسيا . فليس هناك فن خاص إسلامي أو مسيحي ، ولا يوجد أيضاً فن يهودي أو نسطوري أو بروتستانتي أو أي فن غير الإيمان الذي يقطن مسجداً . . لهذا السبب أردنا أن يكون فن العمارة في أحدهما مختلفاً عن الآخر . ولم يكونا كذلك قط . . إن علينا اعتماد فكرة كون الفنان العربي ملهم كنائسنا كما كان ملهم كنائس اليهود ، والمساجد ، والمزارات الأورفية والزرادشتية . فليس للفن وطن طائفي البتة ، لأنه ليس للطائفية وطن . ولا لحزب سياسي أبداً ، كما أنه ليس فيما نعرف فن ماركسي أو فاشيستي .

إن طرفة الفن العربي أياصوفيا (الكنيسة ـ المسجد) تعتبر نقطة النهاية بالنسبة للشرق ، ونقطة البداية بالنسبة للغرب . فمن ضفاف الفرات ودجلة حتى ضفاف الأرنووالييسين ، هنالك تيار فني واحد لم ينقطع عن الجريان . ويجب ان نعدّ ، بغية استكمال معرفتنا عن عمر بيزانطة في ميدان الفنون الجميلة ، محترفات الذهب والحرير ، وصناعات الخزف والجلد والزجاج والصياغة والمعدن المسبوك ، والتوابل ، وهذا ما يدعونا إلى إعادة المصطلحات المذكورة سابقاً بمناسبة حديثنا عن الأمبراطوريتين البابلية والسلوقية ، أو إلى ذكر مصطلحات سوف تفخر بها امبراطورية الخلفاء . فلنكتف ، لكي نثبت هيبة بيزانطة ، بالقول : إن النقود المضروبة في القرن السادس في معاملها كانت تبحث عن مؤسسات مالية في جميع أنحاء العالم .

إن الأسرة الجوستنيانية قد انتهت في الحروب الضارية على ضفاف الدانوب والفرات ، والمتفاقمة بالغزوات ، وبانتفاضات الجيش التي يساندها السلافيون ويذكي أوراها الفرس . إن واحدة منها ، وهي انتفاضة القائد (فوكاس) قد رافقتها مذبحة الأسرة الأمبراطورية وحملت إلى السلطة

هيراكليوس أسقف قرطاجة الشرقي ، وهو جندي أشقر مصاب بالخور . لقد حكم من سنة ٦١٠ إلى سنة ٦٤١ ، وشهد تهدم امبراطورية قسطنطين وجوستينيان الكبرى . وعندما ارتقى العرش كان الشاب محمد ارثوذكسي أو هرطيقي . إن كنيسة أيا صوفيا وكنيسة القديس مرقص في البندقية ، وكنيسة القديس بطرس في روما يستطعن أن يكن أيضاً مساجد أو كنائس يهودية ، وليست أبراج بيزا أو طِورشيلو شيئاً آخر سوى منارات ومآذن . وأين الفرق ؟ إن جميع هذه الأبنية تملك أسلوباً عاماً ، واتجاهاً عاماً ، إنهن عربيات مصممات لقيادة الإنسان خارج نفسه . إننا لا نريد البتة أن نقول شيئاً آخر سوى أَن الإسلام لم يبدل انسجام الشرق الداخلي الذي سكنه ، وإنما احترمه ، ونفخ فيه روحاً ولنكرر ذلك : إن تاريخ فن ما ليس البتة تاريخ الحروب والأديان ، وهو لا يعتمد أبداً على الحوليات التاريخية والعلوم التطبيقية . فليس لدينا الحق في جعل فن بناء المسجد يبدأ مع الإسلام ، ولا الفن غير المصور مع القرآن . إن الميل الطبيعي للإنسان والأشياء ، وامتزاج المجتمعات ، ووجدانها المتضامن فنياً عبر العصور . . إن هذه الأمور جميعاً هي التي تخلق الفن . والإسلام لم يغيّر عقلية الشرق ، ولكنه ، على العكس من ذلك ، قد حفظها وقوّاها ، وأغنىٰ بنى العرب الطبيعية والعقلية التي لم يصبها تغيير كبير . وأحسن برهان على ذلك أن المهندسين المعماريين الذين بنوا قبة الصخرة كانوا مسيحيين . وهذا يعني أن العقيدة الجديدة ، وقد أخذت بعين الاعتبار معطيات العالم العربي الجمالية والأساسية ، قد رفعت حقيقتها إلى القمة . إن المضمون المشترك والدائم للحضارة الآرامية التي تمتد من النيل إلى الهندوس قد بقيت مستمرة متصلة في ظل ايزيس كما لو أنها بقيت في ظل قانون المسيح أو محمد . ولكي ننسىٰ هذا الوضوح خضعت فلسفتنا المدرسية لتصنيفات كانت صفتها المتكلفة سبباً في الشر لا في الخير . . على أن قليلاً من التواضع في مطامح علمائنا الموسوعيين كان سيقود إلى مفهوم أقل مشايعة للفن

الروماني[1] أو القوطي . ولكن لأن الإيمان الذي يسكن ظاهراً في كنيسة ، يكبر في أسرة مكية ، بينما كانت أزمتان حادتان تستعدّان لضرب ، الإمبراطورية : أولاهما حرب لا معنى لها ضد الفرس ، ومنازعة ضارية بين الأديان . وكانت جيوش هرقل وكسرى في زحْوفها وتراجعها يحاول أن يدمر كل منها الآخر ، فلقد احتل الفرس أرمينيا ودمشق والقدس ومصر ، مع تواطؤ الشعوب الثائرة على بابوية الأمبراطور ، وأوغل هذا الأخير ، من جهته ، ومعه البطريرك سيرجيوس في بلاد الساسانيين من البحر الأسود ، ووصل إلى جدران طيسفون بعد أن اجتاح الأرياف ودمر مدناً عديدة . وأسرع الجيش الساساني الذي لم يتأثر بمعركة متهورة ، يلقي حصاره على القسطنطينية في العام ٦٢٦ . وكانت المعارك التي تجري ضارية خارقة ، تحت الأسوار وفي المرافىء ، وفي الضواحي وحتى في الأحياء السكنية من العاصمة . ووقف العامة في وجه المغير . ولم ينقذ المدينة سوى معجزة عزيمة البطريرك سيرجيوس ، وولدت معجزة ، بعد أن طافوا بتمثال العذراء على الأسوار ، وسط تطواف صلاة : وكانت معجزة أم الإله الحامية والمنقذة ، وألّف سيرجيوس أنشودة تمجيدٍ لها ، وانتقلت هذه الأغنية منذئذٍ من قرن إلى قرن حتى أدرجت في الطقس الأرثوذكي الحديث . لقد رأت القسطنطينية الموت وجهاً لوجه . وكان الساسانيون على حافة الهوة . ثم تفاوضوا وأعادوا لهرقل قطعة الصليب المقدس التي كانوا يحتفظون بها منذ نهب القدس . ولقي الإمبراطور ، عندما عاد إلى المدينة في سنة ٦٢٩ ، استقبالاً لا ينسى احتفظ المؤرخون له بصفحة متلألئة . وتبع ، في السنة نفسها ، حادث هام في نتائجه ، إنه الحادث الذي استرعى انتباه مصر : النبي محمد تجاوز أبواب مكّة . لقد ولد ، كما قيل حوالي العام ٥٨٠ من أسرة ارستقراطية مكية كان إيمانها بوحي الملائكة كبيراً . إن ولادة دين تمس أعماقاً لا يصل إليها

(١) أي الفن الروماني في العصر الوسيط .

التحليل . والوحي الذي تلقاه محمد في تخوم الصحراء كان كبيراً بحيث فرض عليه النهوض بأعباء دعوة مواطنيه إلى الله . إن الحرب الكلامية المستعرة والتي كانت تمزق منذ ثلاثة قرون القلوب حول طبيعة المسيح الحقيقية ووحدانية الله لم تتحد في آسيا الصغرى ولا في مصر ، لقد كانوا يتكلمون عنها في كل مكان ، وكانوا يناقشونها في مكة والبتراء واليمن ، وكان ذلك يجري بحماسة أكبر بحيث إنه كان يخالط المناقشة الدينية حقد ، وبغضاء سياسية تتجلى في معارضة الشرق العربي لادعاءات الغرب الجرماني ، وفكر المكيون بقتل محمد ، لأنهم اغتاظوا من دعوته لدينه ، وغادر مكة ، في عام ٦٢٢ ، متجاوزاً حسابات الذين يحيطون به ، ليبحث عن ملجأ في يثرب التي ستتخذ لها فيما بعد اسم (مدينة الرسول) ، تذكاراً لهذه الهجرة ، ثم لقبت (المدينة) بشكل أبسط . واتفقت هذه الهجرة مع مغركة هرقل المظفرة ضد فرس كسرى . لقد فكروا في جعل محمد مريد اليهود أو النساطرة . وفي ذلك جهل شديد لأن اليهود والنساطرة كانوا هم أنفسهم غارقين في تيارات الشرق الدينية المعقدة جداً ، وإنهم ليسوا سوى عناصر بين عناصر أخرى في هذا الشرق الكبير .

سلام الإسلام

« وجدت قبل أن يوجد إبراهيم » (انجيل القديس يوحنا ٨ - ٥٨)

﴿ إنا كنا من قبله مسلمين ﴾ (سورة القصص ، الآية ٥٣)

حين أعلن النبي محمد دعوته إلى العالم جميعاً ، كان لصوته دوي كبير تردد في الأبهاء والكنائس ، وفي الأوساط المثقفة والمجربة ، وفي الوزارات ومكاتب الخدمات الأمبراطورية كما في الأرياف . إن العقول الكبيرة المتفتحة سرعان ما تجاوبت معه بحماسة ، لأن دعوته كانت عالية ذات قيمة سامية ميتافيزيائية . ولقد أثبتت التجربة أن مدن الشرق قد اعتنقت الإسلام وتقبلته . وبلغت سمعةُ محمد الشخصية وفكره مراكزَ الامبراطورية الحيوية ، وكان الرسول قد أرسل رسله إلى كسرى ، وهرقل ، وملك الحبشة ثم إلى بطريرك الإسكندرية ، وفي هذه المدينة الأخيرة لقي رسوله أحسن استقبال ، لقد كان استقبالاً ذا مغزى خاص ، فمصر ستقدم له وسائل الدعم ، والشعب الآرامي كان يأمل أن يكتسب قوة ضد العدوان وضد الاستبداد . فانتصار الإسلام إذاً جاء لقاء دعاء لا يقاوم وأمل مستجاب . وكانت مصر في ذلك العصر القوة الوحيدة التي لا تزال في آن سليمة في الشرق ، ووطناً للمقاومة الآرامية ضد إرادة القوة البيزنطية الرومانية . . ودخل محمد في سنة ٦٣٠م مرة ثانية إلى مكة ، دخلها ، هذه المرة فاتحاً غير منازع وأعلن من الكعبة الإيمان بالله الواحد . وسلّم أسقف دمشق سنة ٦٣٥م مفاتيح المدينة للخليفة عمر ، وثارت

القوات السورية في معركة اليرموك ضد القائد البيزنطي تيودور وقتله مطالبة بسقوط الامبراطورية ومتحالفة مع رسل عمر ، واستقبل أسقف بيت المقدس الخليفة صديقاً وحليفاً ، وفعلت إنطاكية الشيء ذاته ، ووقعّت كنيسة أرمينية مع المسلمين معاهدة ، مسلّمة منطقة الموصل ، وأعطى بطريرك الإسكندرية سيروس في سنة ٦٤١ عهد السلام إلى القائد عمرو بن العاص ، وفتح له طريق ليبيا ، وامتدت سلطة الخليفة عثمان حتى مشارف قرطاجة . ولم يكن تقدم الإسلام باتجاه الهندوس أقل ، فلقد كفت معركة واحدة لتحطيم الأمبراطورية الساسانية ، وفر ملك طيسفون بعد أن كُسِرَ جيشه في القادسية ، وهي قرية تبعد ثلاثين كيلو متراً عن الكوفة في العراق ، فرّ ليقتل في سنة ٦٥١ في جبال خراسان . . ولنضف إلى ذلك أن شعوب ما بين النهرين وإيران قد استقبلت أخوة الفتح السلمي لجيرانهم الجنوبيين والغربيين ، وكان المهزوم في القادسية ـ في الحقيقة ـ الأسرة الساسانية وحدها . وحلت البهجة الشعبية في كل مكان ، وانطلق رسل مبعوثون من الإسكندرية وإنطاكية والقدس ومكة ، حاملين كلمة الله الطيبة ، ولعب التضامن الآرامي دوراً في كل مكان ضد العدو البيزانطي الذي غدا آنذاك في النزع الأخير ، ولعبت أفريقيا الشمالية كاسبانيا أيضاً دوراً كبيراً لأنها كانت مسكونة بالأريوسيين والقائلين بالطبيعة الواحدة ، والثائرين ضد الأمبراطورية ، يضاف إلى هذا أن انحطاط بيزانطة الاقتصادي قد انتزع منها أحسن حلفاء الأمس . وجذبت القوة الجديدة التي استقرت فيما بين النهرين وعلى ضفاف النيل هؤلاء الحلفاء ، لأنها أخذت على عاتقها العلاقات مع الشرق الأقصى ، ووقعت مع الهند والصين اتفاقيات كان الساسانيون قد بدوا غير قادرين على تجديدها .

وهكذا وجدت كابول نفسها في سنة ٦٦٢ عائدة إلى الأمبراطورية المصرية ـ البابلية . ولم يكن الأمر يتطلب سوى جيوش « عربية » تنتقل من هنا وهناك على شكل فرق مؤلفة ، لا إلى تلك الجيوش الضخمة من سرايا جند

الله التي صورها خيال معلمي التاريخ تدك الأراضي من الهندوس إلى الغارون ، مجتازة سلاسل جبال ، وصحارى ، وقلاعاً أو حصوناً مكدسة . وإذا كانت إسبانيا القوط القوية والغنية قد سقطت في التبعية الخليفية في سبع سنوات ، وإذا كان الغال الغاربوني قد اصبح « عربياً » في سنة ٧٢٠ ، وإذا كان السند والبنجاب قد طلبا الحماية الأموية ، فلأن كل هؤلاء الناس كانوا يركضون نحو منبع (المن)[١] الجديد ، والراحة التي استعادتها الأمبراطورية المصرية - الرافدية ، مؤسسة تحت راية الإله الواحد ، أي تحت راية الإسلام والمسيحية . فكانت هذه السياسة الموازية لخط الاستواء من بحر الصين إلى شواطىء البرتغال ، وبالعكس ، تحمل مواكب منتظمة من المنتجات الطبيعية أو المصنوعة ، واستعادت الإسكندرية ودمشق دورهما التقليدي كمصرفين عالميين بانتظار أن ترتفع بغداد إلى عاصمة أعظم سلطة أيضاً . ولكي ينتهي الخلفاء من أمر الأمبراطورية سيحاصرون كل سنة القسطنطينية بين سنتي ٦٧٣ و٦٧٧م . وبلغ الخليفة الأموي هشام في سنة ٧٣٩م البوسفور ، وتراجع بعد أن اجتاح آسيا الصغرى في معركة اكروانيون بفضل وحدات عسكرية أتت من أوربا . وسيعيش البيزنطيون والخلفاء ، منذ هذا التاريخ ، في صلات حسنة عاقلة ، وفي مشاركة ثقافية حتى انتصار الترك . وإذا كانت امبراطورية الخلفاء قد امتدت من جبال البيرينه حتى الهند ممتصة قليلاً أو كثيراً اكيتانيا وإسبانيا وصقلية وإيطاليا الجنوبية والبلقان ، فليس لأن « العرب » قد احتلوا ، كما قيل ، مناطق غير عسكرية ، بل لأن هذه الأراضي هي ، تقليدياً ، تقع في منطقة الأمبراطورية الآرامية الاقتصادية والثقافية القديمة . إن الآراميين ، الذين سميناهم من ثم العربَ ، كانوا يشعرون أنهم في بيتهم سواء أكان الفراعنة أو البطالسة أو داريوسَ أو بيزانطة يحكمونها أو الخلفاء . ولم تر الشعوب التي

---

(١) المن : طعام عجائبي قيل إنه أنزل على بني إسرائيل أو هبة سماوية .

نعيش فيها خلال العصور تغييراً في لغتها أو حضارتها . لقد كانوا عرباً ، وسيبقون عرباً دون صدع أو انفصال .

وهكذا فإننا سنرى أخت أسقف القدس تتزوج ، في القرن الحادي عشر من السلطان الفاطمي العزيز . ولم تلحّ مختلف الاحتلالات الأجنبية على ما هو جوهريّ . إننا لنعرف عن طريق القديس أوغسطين أن اللغة الآرامية قد كانت في عصره مستعملة في شمالي إفريقيا ، وكانت كذلك في إسبانيا . وإذا كانت لغة شبه الجزيرة الايبرية غنية بالتعابير العربية ، فإنها ليست مدينة بذلك لبضعة من الخيالة الأشباح الذين رافقوا طارق بن زياد ، إنهم ، عندما وضعوا أرجلهم على الأرض ، قد وجدوا على الطرف الآخر من أعمدة هرقل أناساً يتكلمون مثلهم تقريباً ، إنهم الليبيون . إن القديس أوغسطين ، الذي يعبر عن نفسه بالآرامية ، لغته الأصلية ، يعلمنا أن الفلاحين عندما سئلوا عن أنفسهم وعن أسقفيتهم هيبون (بونة أو عنابة اليوم) قد أعلنوا أن أصلهم من فلسطين ، أي من عرق كنعاني[1] .

فلم يكن هناك البتة اجتياح عربي أو سيطرة عربية ، بل الحقيقة أنه تحت اسم العرب ، قد استعادت شعوب المتوسط الشرقي والجنوبي ، وفي وضح النهار ، سيادة سياسية كانت تمارسها منذ عهد الإسكندر وحتى القرن السابع أسر غريبة عن أرضها . ألا تعيّن مخطوطات القرون الوسطى القديمة تحت اسم العرب أو (السارازان) العرب ، شعوبَ المتوسط غير الجرمانية ، والديانات المغايرة لديانة روما ؟ إن أغنية رولان تصف لنا في رونسوفو ، معركة ضد (السارازان) . إن هؤلاء (السارازان) كانوا من الباسك . وإنه لمما يثير الفضول أن مسيحييّ أفريقيا وأسبانيا ، كانوا يتسمون فيما بينهم تمييزاً من الكاثوليك الرومان ، « مسيحيي فلسطين » . كان يوجد في عهد شارلمان

---

(١) ج . كاركوبينو ، المصدر السابق ص٤٠٣ .

وبعده أيضاً ، « مسيحيون عرب » و« مسيحيون رومان » . وهذا ما يوضح كثيراً ظلمات التاريخ ، ويعيد القضية لأعماق تعليمنا المدرسي .

فلقد أعاد محمد ، والخلفاء من بعده ، الشرق إلى نفسه ، أعادوا الشرق إلى ديانة الواحد الأحد على صورة مقنعة ، بحيث إنَّ جميع الديانات ، والميتافيزيكات الشرقية قد عرفت نفسها فيه ، وتمازجت . ولقد استقامت اللغة الآرامية لأن القرآن قد حمل الكمال الصوتي ، وعلم الدلالة وعلم النحو ، للغة شعب مصري ـ رافدي قديمة محكية .

فاللغة العربية ، في الحق ، أول لغات الإنسانية المتوسطة المنظمة ، التي سبقت لغة هوميروس وأعطتها قوانينها . وإنها منذ دعوة الرسول التي أيقظتها على الحياة الحديثة ، قد ارتقت من أعماق العصور التي حملتها الأصداء الضخمة لتفرض نفسها على بضعة ملايين من الناس . إننا نستطيع نحن الأوربيين ، بوساطتها ، أن نتطلع إلى قراءة جديدة لكتاباتنا وتاريخنا . أننا بها نرى رؤية أكثر وضوحاً . إن معرفتنا للغة العربية تساعدنا لا على تجاوز أفق أثينا وروما الضيق ، لنجد المساحات الشرقية الكبرى حية دائماً فحسب ، ولكن لنشارك أيضاً في مستقبل مجتمع جديد يتحرر من سديمنا المختلط . ونحن واثقون من ذلك . فعلى الرغم من أنه من الضروري للعالم العربي أَنْ يجد الخيط الموجه الذي يصله بالغرب ، فإنه ينبغي أن يتجه إلى الثقافة الإغريقية ، لأنها الوساطة الوحيدة بين مشرق الشمس ومغربها . ففي اليوم الذي ستعيد فيه الجامعات العربية دراسة الإغريقية إلى سابق عهدها ويوم تكتشف أوربا كنز الثقافة العربية ، يلتقي قوسا القبة في اصلاح متوسطي لن يكون نظاماً ذا طابع معماري فقط .

إن هذا الإصلاح سيعيد استمرار الثقافة المقطوع في منتصف القرن الثامن عندما طلقت روما الشرق . إن أساقفة روما ، وهم يأملون أن يكونوا ورثة القياصرة الوحيدين ، بغض النظر عن الصفة الحقيقية لهؤلاء الأخيرين الذين ظهروا شرقيين أكثر من كونهم أوربيين ، . . . إن أساقفة روما هؤلاء ، باسم

الرسول بطرس ، قد أرادوا اخضاع الشرق لطاعتهم الرهبانية ، لكنهم انتهوا من مسح فشل كبير لأنهم كانوا قد سببوا بواسطة تصلبهم ، تجميع المسيحية الشرقية في قوة واحدة قومية مع الإسلام واليهودية ، أي الأديان العربية الثلاثة في لغتها وتقليدها . إنهم لم يتماسكوا أبداً لكي يتابعوا ويمارسوا معركة طويلة مستخدمين كل الطرق من عقيدة وسياسة وحرب . لقد اختاروا ، بسبب حاجتهم للاستناد إلى قوة زمنية ، أسرة الكارولنجيين الجرمانية . وإنه لتاريخ أساسي في تاريخ أوربا وإشارة شؤم سيئة ، (نعني سنة ٧٥٤) وهي السنة التي تفاهم فيها الملك بيبان القيصر والبابا ايتيان الثاني لتأسيس دولة حبرية تحت حماية الأسرة الكارولنجية وانتقلت المدن البيزنطية في إيطاليا إلى حماية رومانية ـ جرمانية ، وما بقي منها تحت تبعية القسطنطينية . اعتبرت منذ ذلك الوقت مدن أعداء . وبهذا العمل الذي يستهدف فصل الكنيسة اللاتينية ، وإن كان مستحيلاً وصله مرة ثانية بأصوله الآرامية ، لا يضيع ما هو أقل من مصيرها بين أيدي الشعوب الجرمانية . ومنذ ذلك الوقت تباعدت العربية والاغريقية لصالح اللاتينية . واستسلم رجال الدين الكاثوليك لرسالة الإشادة بدور الإمبراطورية الرومانية ، منزلين إلى الهامش تاريخ فلسطين ، وبابل ، ومصر وآسيا كلها بحيث تنحصر نظرتنا في الأرض الأوربية وحدها . وهكذا برزت إلى الوجود الأمبراطورية الرومانية الجرمانية ، وهو جمع غريب لموضوعين متناقضين كان قد أُسس كل منهما من قبل تحدياً للآخر .

إن الحلف العقائدي بين أمراء أوربا وحبرية روما البابوية سيتلاءم سريعاً مع حلف اقتصادي وسياسي وعسكريّ ستكون نتائجه حاضرة في ذهننا : منع كل ما هو عربي (وتسميته بالهراطقة المختلفين ، والمانوية ، والإسبان ، والبروفنسال ، والصقليين ، والمدعوين سارازان) ووجود الصليبيين ناهبي بيزانطة ، والغزوات الاستعمارية ، وإرسال المبشرين معلمي الدين ، ومحاولات إيجاد تعارض بين مسيحيي الشرق فيما بينهم أو توحيدهم ضد الإسلام ، وجهود بعض من الجماعات اليهودية للتحالف مع روما المجرمنة ضد

الشرق الآرامي ، دون رؤية ما يوجد من مفارقة في مثل هذه المناورة . إن هذا التعداد يكفي لشرح نوع العلاقات التي كانت توقفت منذ ١٢٠٠ عام العالم الشرقي ضد أوربا ، التي أرادت عمداً ، أن تنفصل عنه في العام ٧٥٤ . وتنكشف الطبيعة الحقيقية للغزوة الصهيونية بسهولة ، عندما ينظر إليها من هذه الزاوية ، إنها ليست إلاَّ حرباً صليبية جديدة ، إنها تلبي نفس الأوامر الاستراتيجية والسائدة التي رأت في مخططات غودفروا دوبويون ، أو الذين أوحوا بالحملة الصليبية الرابعة التي عاشت قصة نهب دولة بيزانطة المسيحية ، من قبل مسيحيين آخرين .

وأكد الشرق ، من سنة إلى سنة تضامنه في وجه أوربا . واتحد الإسلام ولم يتشتت ، ليصل إلى تنفيذ الوعود التي قطعها من قبلُ جوستنيان وهرقل على نفسيهما . وقطع الأباطرة الايزوريون الذين حكموا في بيزانطة بين سنتي ٧١٧ و١٢٤٨ وغدوا محاربين للأيقونات مثل الرسول ، قطعوا علاقاتهم مع روما . وأعلن البطريرك فوطيوس ، رجل الآداب والعالم المتميز ، في عام ٨٦٧ الاستقلال عن الكرسي الحبري البابوي ، مفتتحاً بذلك الانفصال عن الكنيسة الرومانية ، التي كرسته أزمة سنة ١٠٥٤ . وأخذت الكاثوليكية الرومانية في القرن الحادي عشر إجازة من الشرق ، البلد الذي ولدت فيه روحها ؟ لقد غدت محبوسة في الغرب ، بينما كان الشرق المجتمع حول الإسلام ومسيحية البطاركة في معسكر آخر ، وإلى جانبه العالم الروسي . وهكذا كان إمبراطور القسطنطينية أول عاهل يهنىء صلاح الدين الأيوبي بإعادة فتح بيت المقدس . وتبقى أشياء كثيرة للقول حول الأسباب العميقة التي فصلت العواصم الشرقية عن العاصمة اللاتينية . وإذا كان غير صحيح أو مغرض ، قولنا : إن السبب الوحيد في هذا الانفصال إنما يعود إلى البابوية الغربية فإننا لا نملك ، مع الأسف الوثائق الضرورية لتحليل دقيق للمسؤوليات ، ولا نملك بخاصة العوامل الاقتصادية والسياسية ، التي حددت ، وأثارت في الكواليس ، المنازعات الدينية . إن جهلنا في هذا

الميدان يكاد يكون تاماً ، فلقد دمرت القرون الشواهد الهشة والبراهين . ولقد أسفت الكنيسة الرُومانية في تاريخها الطويل لنزاعها مع الشرق الذي كانت تحتفظ نحوه بالحنين ، على الرغم من كل شيء ، وليس هناك ما يؤكد واحداً من الأسباب التي دفعت الشعوب الفرنجية إلى الحروب الصليبية التي لم تكن ، إذا ما أبعدنا الأسباب الاستراتيجية الأكيدة ، سوى رغبة سرية في إعادة الثقة بالأرض المقدسة . ذلك أن الفكر المسيحي قد اهتز حتى أعمق قواعده بسبب الانقطاع عن الشرق . إن رعب (العام الألف) يفسّر في هذا الحدث الضخم ، فلقد أفسح مجالاً للعديد من حركات الرعب ، ولميول أخروية ، وذعر وهذيانات كلية وإشراق روحي ، تتخللها رؤى عن نهاية العالم وحدوث القيامة ، استمرت ثلاثة قرون على الأقل ، وقدم لها فن ذلك العصر رسومات مدهشة . إنه جنون حقيقي . ولم تر ذاكرة الأجيال قَطُّ مثل هذه الحفرة تحت أقدامها . وليست علامات القديس فرانسوا الأسيزي إلاّ شاهداً دامياً على الألم البالغ الذي عانته روح القرون الوسطى التي طلقت الشرق .

ولقد غدا الكرسي المقدس في عام ٩٠٤ ، ملك أسرة توسكانية كهنوتية أقامت في روما نظاماً خاصاً بها ، بقيادة تيودورا وابنتيها ، تيودورا الشابة ، وماروزى . وما إن سقطت البابوية الغربية تحت حماية أوتون الأول من ساكس (وهو مؤسس الامبراطورية الجرمانية المقدسة) حتى لم يعد لها أية سلطة روحية ، وستتطلب البابوية ثلاثة قرون ، من أجل أن تنهض من جديد ، تلك القرون الثلاثة التي امتدت بعد رعب (العام الألف) ، وعادت البابوية بعدها إلى الحياة ، مدينة بهذا البعث إلى الحيوية الروحية التي استيقظت فيها والتي منحتها من المنابع العربية . لقد عاشت قروننا الوسطى وكلها رغبة في عزاء ، وأبصارها متلفتة نحو الشرق الذي انتهى بأن اتخذ في عقلها صفة اسطورية مانوية . ولم تكن الشعوب الشرقية من جانبها (يهودية كانت أو مسيحية أو مسلمة أو غيرها . . .) ـ وعلى الرغم من أنها غالباً ما كانت مستثارة وحائرة

من موقف أوربا تجاهها ـ لم نكن لتستسلم لفكرة اعتبار أوربيي المتوسط غرباء ، وهم الذين ترى فيهم إخوة التاريخ والثقافة . وإنه لصحيح ، أنه لا الحروب ولا الاذلالات ، ولا منازعات الدول قد قطعت يوماً ما هذه الصلات الأخوية ، إذ أنه لم ينقطع تيار حي آت من الشرق ، وفي أية لحظة ، عن أن يرفع في الغرب وفرة في الفن ، وتأملات خلاقة . لقد بقينا عرباً في إيماننا ، مثلما نحن غربيون في شكوكنا ، ففي أوبرا مونتيفيردي[1] حيث ترفرف ألوهية شمسية شرقية ، وفي الغابة الجهنمية حيث يجوس فهد دانتي الأفريقي ، هنا وهناك نسمع سراً همسة منابعنا الشرقية مستمرة ، مثلما نسمعها في العلم المعاصر حيث تسود الذرة ومنطق الفرضيات . إن في استماعنا لهذه الهمسة ، وفي إعارتنا إياها أذناً صاغية ، دلائل على ما نقول .

« أيها الملك . إنني انتظرك في بابل » ، هذا هو عنوان العمل الفني الذي عرض ، منذ عهد قريب بباريس ، في متحف الفن الحديث ، حيث اتحدت ريشة أندريه مارلو ، ومجلدات سيلفادور دالي لكي تبعثا معاً تاريخ الشرق الأدنى الرمزي في أربع عشرة صورة منحوتة . كانت الصحارى في هذه الصور مغطاة بالمصوغات الذهبية ، وكانت النسمة ، التي تنتشر هناك فوق معارج الأبعاد السماوية ، جديرة ببعث الأموات . . . فأمام فكرنا المستبدل والمغلوط ، وأمام الأفكار الآلية التي تسكننا ، وأمام إحساسنا المحتضر . . . أمام ذلك كله ، كان يبدو من المؤكد ، أن الشرق ، هو الذي يقدم لنا الارتقاء الصعب نحو البعث .

نعم إن الحياة تنتظرنا في بابل .

باريس في التاسع عشر من شباط
لعام ١٩٧٥

---

(١) مؤلف موسيقي إيطالي ، ولد في كريمونا بإيطاليا (١٥٦٧ ـ ١٦٤٣) ، وهو واحد من مؤلفي الأوبرا في إيطاليا ، وقد أثار ثورة في اللغة الموسيقية .

التعريف بالمترجم والمؤلف

أ ـ المؤلف :

بيير روسي ، واحد من أساتذة التاريخ اليوناني ، مما يجعله حجة في ميدان علمه . درس في كورسيكا ، ثم أتم دراسته في جامعة الصوربون بباريس حيث تخصص في تاريخ اليونان وحضارتهم ، وأعدَّ عن ذلك أطروحة تتحدث عن التقاء الشرق والغرب في التراث اليوناني .

قاده ذلك بالطبع إلى الآثار الكثيرة التي تركتها الحضارة العربية قبل الإسلام وبعده على الحضارة اليونانية ، ولما تعمق الأمر وجد تشابهاً كبيراً بين جميع حضارات الأرض ، وأن كل حضارة أصلية قد أخذت عما سبقها ، وأثرت فيما تلاها .

فآمن بنظرية هامة وخطيرة في تاريخ العلم ، نظرية تقول : « إن جميع الحضارات الإنسانية بنات الحضارة العربية ، قبل الإسلام وبعده » فعرف بها في هذا الكتاب التي ترجمناه في عام ١٩٧٩ ، وطبع لأول مرة . وهانحن أولاء نعيد طباعته ، بعد أن أعدنا النظر في الأخطاء المطبعية التي نزلت في الطبعة الأولىٰ ، التي تم طبعها ونشرها من دون أن يتم ذلك بإشرافنا حتى نقوم بتصحيحها .

يعود الفضل في طباعة هذا الكتاب ، ونشره ، ووضعه بين أيدي القراء إلى الأصدقاء الكثر الذين انتبهوا إلى أهميته العلمية والقومية ، وشجعوني على إعادة طباعته ، ولذلك أتوجَّه بالشكر الجزيل إلى :

السادة : .

الصديق الدكتور محمد سلمان وزير الإعلام ، الذي ألح على إعادة طباعة

(التاريخ الحقيقي للعرب) ، ثم وجه بوجوب ذلك ، ويسره لنا كل التيسير .

والصديق نصرت منلا حيدر ، رئيس المحكمة الدستورية العليا ، الذي كان واسطة الخير ، بيننا ، وبين السيد عادل عساف ، صاحب دار البشائر للطباعة والنشر في دمشق الفيحاء .

والسيد عادل عساف ، الذي لفت الكتاب انتباهه ، فعول عليٰ أن يكون بين منشورات داره العامرة ، أضاف إلىٰ ذلك اهتماماً خاصاً وذوقاً رفيعاً ، وضعهما في خدمة هذا المؤلَّف الهام ، فخرج في أحسن حلة ، وفي وقت مثالي .

والكتاب ، شديد التركيز ، عسير التلخيص ، لذلك يتعذر علينا تقديم فكرة ، ولو موجزة عنه ، نكتفي لذلك بالكلمات القليلة التي لخصت موضوعه ، وفكرته العامين ، تاركين للقراء متعة قراءته والافادة منه .

أثار الكتاب حين صدر ضجة كبيرة ، لا تثيرها عادة إلا الكتب الهامة ، فَكُتِبَ معه ، وضده آلاف الصفحات ؛ وضعه بعضهم في الدرك الأسفل من الأبحاث العلمية ، ورفعه بعضهم إلى السماوات العلى ، تمَّ ذلك في فرنسا وأوربا ، ثم في دمشق بعد أن ترجم . أثنى عليه كل من يحب أمته ، ويعرف تراثها ويجله ، فكتب في ذلك مكبراً ما فعلناه ، وتهجم آخرون على الكتاب وعلى مترجمه ، واستغلوا ما ورد في الكتاب من أخطاء مطبعية ، تقود أحياناً إلى أخطاء نحوية وإملائية وأسلوبية لا يمكن أن نمر بها مرور الكلام ، لو قرأنا تجارب الكتاب قبل طباعته أول مرة .

فإذا ما عدنا إلى بيير روسي نُعرِّف به قلنا إنه من أصل كورسيكي ، وهذا ما سهل على حضارتنا طريق الدخول إلى قلبه ، ألم يكن المتوسط المحيط بتلكم الجزيرة العظيمة ، البحر العظيم الذي كان واسطة انتقال الشعوب وحضاراتهم ، منذ أيام الفينيقيين الذين وصلوا إلى بحر الزقاق وعبروه ،

ووصلوا انكلترا ، وأقاموا المستوطنات على الشواطىء الفرنسية ، والاسبانية ، والافريقية . . .

وتلت ذلك موجات هجرة كثيفة انتقل فيها السكان من المشرق إلى المغرب ، فنقلوا معهم حضاراتهم ، وتم ذلك على مختلف الأصعدة ، وضمن جميع الفنون والعلوم ، وتجسد ذلك خاصة في التراث العربي في الأندلس ، بعيداً عن حضارة استمرت ثمانية قرون (٩٢ ـ ٨٩٢هـ) ، حضارة مبدعة تجلت آثار خالدة يُمثّلها حتى اليوم المسجد الجامع بقرطبة ، وقصر الحمراء وجنة العريف ، حيث المجد المعماري العربي الباذخ فخامة وأناقة وعظمة . . .

عرفنا كتابه (مدينة ايزيس تاريخ العرب الحقيقي)

La Cité d'ISIS ...Histoire Vraie des Arabes

المطبوع بإشراف المطبوعات اللاتينية الجديدة عام ١٩٧٦ بباريس ، وسعدنا بالتعرف إليه ، وزيارته في (دار الشرق) في الدائرة العاشرة من العاصمة الباريسية ، حيث تبادلنا الرأي في الحضارات واستمعت إليه ثلاث ساعات عرض فيها فكرة الكتاب في أسلوب شيق متحمس . . . ولا زلنا نراه في الذهن ، وهو يقف مرافعاً عن حضارتنا ، وعن عروبة المسجد الأقصىٰ (مثلاً) حيث يقوم الصهاينة منذ عام ١٩٦٧ بالتنقيب عن آثاره بحثاً عن معبد سليمان ، فلم يعثروا على حجر واحد من حجارته . . . مما عزز رأيه ، وآراءه ، وكان الدافع وراء ما سجل في الكتاب من حقائق .

تبع ذلك غداء عمل ، كان روسي فيه مسرفاً بكرمه العربي ، وقد تم في زاوية هادئة من مطعم (صحن البقرات) ، القابع في جادة عظمى تقود إلى شارع سان جرمان ، حيث المكتبات العامرة ، والمقاهي التي يلتقي داخلها ، وعلى أرصفتها ، الأدباء والمفكرون والعلماء من كل جنس ومن كل دين .

كان يعمل آنذاك مديراً لإحدى مديريات القسم الثقافي التابع لرئاسة الوزراء الفرنسية ، ولا نعرف عنه الآن شيئاً ، ألا يزال في خدمة الدولة أم تركها

ليتفرغ للتأليف؟ مبدعاً كتباً كان ، من بينها ، بالإضافة إلى كتابه الذى قمنا بترجمته ، كتاباه (مفاتيح الحرب ، وحرب الخليج) .

نُحيّيه بهذه المناسبة أطيب تحية ، ونأمل أن نراه ، وأن ندعوه إلى تلبية دعوة وزارة الاعلام وسيدها الصديق الدكتور محمد سلمان ، ليكون ضيف القطر ، يرى أوابد حضارته وشواهد أعماله الحالية ، دليلاً على أن العربي صانع الحضارات .

ب ـ المترجم :

١ ـ محمد فريد جحا ، أتم دراسته الابتدائية في إدلب حيث حصل من مدرستها على سرتفيكا التعليم الابتدائي عام ١٩٣٩ .

٢ ـ أتم دراسته الثانوية في عام ١٩٤٦ حيث حصل من مدرسة التجهيز الأولى بحلب على بكالوريا التعليم الثانوي شعبة الفلسفة .

٣ ـ درس في كلية الآداب في الجامعة السورية (جامعة دمشق حالياً) الأدب واللغات والتاريخ وعلوم القرآن والحديث وعلم الاجتماع والتربية ، وتخرج في هذه الجامعة في تموز ١٩٥٠ مجازاً في الآداب والفلسفة والتاريخ ، واللغة العربية ، مختصاً بالتربية وعلم النفس .

٤ ـ عين مدرساً للغة العربية وآدابها في ثانويات حلب وداري المعلمين والمعلمات فيها بين سنتي ١٩٥٠ و١٩٦٤ ، ثم مفتشاً اختصاصياً لمادة اللغة العربية وآدابها ، فموجهاً اختصاصياً لهذه المادة ولآدابها ، ورئيساً لمجموعة التربية في الهيئة المركزية للرقابة والتفتيش . إلى أن تقاعد بناء على طلبه في عام ١٩٩١ ليتفرغ للكتابة والتأليف .

٥ ـ زاد اختصاصه الواسع بالقراءة الكثيرة المتجددة والمتنوعة ، ثم كتب بالإضافة إلى الأدب واللغة والتربية في الآثار والعلوم ، وتاريخ العلوم عند العرب ، وعرّف بالأعلام العرب والمسلمين ، وبالأعلام الأوربيين

(الفرنسيين منهم خاصة) من فنانين وأدباء ومفكرين وفلاسفة .

٦ ـ طبع له خمسة عشر مؤلَّفاً نذكر منها : الحنين واللقاء في شعر المهجر الشمالي ، الحنين واللقاء في شعر المهجر ، العروبة في شعر المهجر ، من حديث العقل والقلب ، كتب أنصفت حضارتنا ، الياس قنصل سيرة ابن سينا ، الغزالي ، فيكتور هيغو . . .

٧ ـ كما ألَّف بالإضافة إلى ما سبق ، خمسة وأربعين كتاباً نذكر منها : ابن ماجد ، الرازي ، ابن العوام ، التراث العربي في ميدان علم النبات ، والتراث العربي في ميدان علم الحيوان ، وستاندال ، وغي دوماباسان ، ورامبو وغيرها . . . .

الفهرس

الموضوع	الصفحة



دمشق

مؤسسة غبور للطباعة ٦٤١٢١٣٥ ـ ٦٤١٠٤٤٤

مطبعة خالد بن الوليد ٢٢٤٥٠٩٣ ـ ٢٢١٢٦٩٤



دَارُ البَشَائِر

للطباعة والنشر والتوزيع

دمشق ـ شارع ٢٩ أيار ـ جادة كرجية حداد

هاتف ٢٣١٦٦٦٨/٩ ـ فاكس ٢٣١٦١٩٦